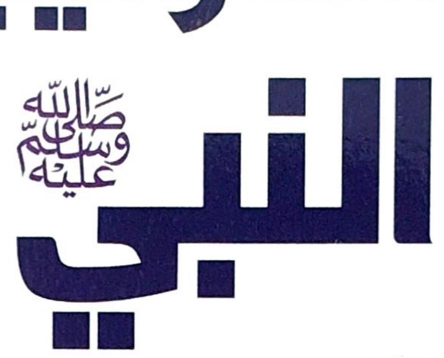
د. عبد الله معروف عمر





مراحل الفتح
من الخطّة الأولى إلى التنفيذ

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

الطبعة الثانية

بَيتُ المَقْدِس في استراتيجيّة النبي ﷺ

مـراحـل الفتـح
من الخطّة الأولى إلى التنفيذ

بَيتُ المَقْدِس في استراتيجيّة النبي ﷺ

مـراحـل الفتـح
من الخطّة الأولى إلى التنفيذ

د. عبـد اللّه معروف عمـر



الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L



الطبعة الأولى: 1434 هـ – 2014 م

الطبعة الثانية: 1436 هـ – 2015 م

ردمك 978-614-01-0665-9

توزيع

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم

هاتف: 786233 - 785108 - 785107 (1-961+)

ص. ب: 13-5574 شوران – بيروت 1102-2050 – لبنان

فاكس: 786230 (1-961+) – البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb

الموقع على شبكة الإنترنت: http: //www.asp.com.lb

صورة الغلاف: **Wikimedia**

تصميم الغلاف: **سامح خلف**

التنضيد وفرز الألوان: **أبجد غرافيكس**، بيروت – هاتف 785107 (9611+)

الطباعة: **مطابع الدار العربية للعلوم**، بيروت – هاتف 786233 (9611+)

الفهرس

الفصل الأول
خلفية تاريخية

الفصل الثاني
الوثائق الأساسية

الفصل الثالث
التحركات العسكرية

بين يدي هذا الكتاب

أصل هذا الكتاب مأخوذ عن أطروحة درجة الدكتوراه التي قدمها المؤلف في تخصص دراسات بيت المقدس بجامعة Aberdeen في المملكة المتحدة عام 2008م.

ويشار إلى أن ترجمة المادة الأساسية والصياغة العربية تمت بالتعاون مع الباحث المترجم أ. محمد سعد الدين زيدان، فله جزيل الشكر والتقدير.

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد النبي الكريم الأمين وعلى آله وأصحابه أجمعين، وبعد،

هذا الكتاب

يعدّ الفتح[1] الإسلامي الأول لبيت المقدس في القرن السابع الميلاديّ نقطةَ تحول كبرى في تاريخ العالم في القرون الوسطى، ذلك لأن بيت المقدس كان يرزح تحت حكم واحدة من أقوى إمبراطوريات ذلك الزمان، ألا وهي الإمبراطورية البيزنطية. لذا كان لا بدّ أن يتطلب فتح بهذه العظمة والأهمية تحضيراتٍ كبيرةً وتخطيطًا على أعلى المستويات كي يتم الظفر به وبلوغ الغاية منه. وبينما يعزو معظم الناس، سواء كانوا من المختصين أو العامّة، الفضل في فتح بيت المقدس إلى الخليفة الراشد الثاني عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وينسبه آخرون إلى أبي بكرٍ الصديق، خليفة المسلمين الأول، رضي الله عنه. إلا أنّه قلّما يشارُ إلى دورِ النبيِ محمد ﷺ وخطتِهِ لفتح بيت المقدس، مع أنّ تأثيره لا يخفى في الأحداث والوقائع التي أدت إلى فتح تلك البلاد المقدسة. لذا جاء هذا الكتاب ليسلط الضوء على دور النبي محمّد ﷺ في صياغة الفتح الإسلامي الأول لبيت المقدس.

أهمية البحث

لقد تناول العديد من العلماء والباحثين الجوانبَ المختلفة لحضور المسلمين في بيت المقدس في وقت مبكّرٍ من تاريخ الإسلام، وبخاصة فتح بيت المقدس وبسط النفوذ على المنطقة في عهد الخليفة الثاني عمر بن الخطاب رضي الله عنه. إلا أننا

1 عادة ما تستخدم كلمة الفتح في المصادر الإسلامية للحديث عن تحقق انتصار في السلم والحرب بمعونة إلهية. وتستخدم الكلمة في سياق سيطرة جيش المسلمين على مدينة ما، وسيتضح مفهوم الفتح بشكل أكبر في سياق هذا الكتاب.

ألفينا عنصرًا أساسيًا غائبًا في هذه البحوث، ألا وهو دور النبـــي محمد ﷺ، وهو خاتم النبيين وزعيم المسلمين في أول دولة أقامها هوَ لهم، وأثره ﷺ في الأحداث والوقائع التي وقعت في بيت المقدس والتي تكللت بفتح هذه البقعة من الأرض على يد المسلمين. فهذه الدراسات لم تسبر بعض الوقائع التاريخية التي مهّدت الطريق أمام أبـــي بكر وعمر رضي الله عنهما لبسط نفوذ دولة الإسلام على تلك المنطقة.

وترد علينا في سياقنا هذا العديد من الأسئلة من هذا القبيل: ما الذي دفع المسلمين نحو فتح بيت المقدس؟ وماذا كان دور النبـــي محمد ﷺ في تلك الأحداث، وهل مهّد النبـــي ﷺ بنفسه هذا الفتح، أم أنه لم يول اهتمامًا إلى تلك المنطقة؟ هذه الأسئلة المبدئية وغيرها لا بد أن تلقى إجابة كي تتضح الصورة أمامنا بخصوص ما حدث في بيت المقدس خلال أول فتح إسلامي له. وهكذا جاء هذا الكتاب ليعود إلى تفاصيل سيرة النبـــي محمّد ﷺ وليلقي نظرة فاحصة على خطته الإستراتيجية لتحقيق هذا الفتح وأثره ودوره ﷺ في تحقيق ذلك التغيير التاريخي الذي حدث في بيت المقدس إبّان وفاته.

إن دراسة العلاقة بين نبيّ الإسلام محمّدٍ ﷺ وبيت المقدس اقتصرت غالبًا على النظر في الأحاديث الشريفة التي ورد فيها ذكر بيت المقدس والمسجد الأقصى والتنبيه إلى فضائلهما، بالإضافة إلى ما ورد من أحاديث بخصوص رحلة الإسراء والمعراج. بل إن التركيز في هذه المعجزة التي انتقل خلالها النبـــي ﷺ من مكةَ ليلاً إلى بيت المقدس، وعرج به من هناك إلى السماء، قد اقتصر على رحلته ﷺ إلى السماء، وهكذا يصبح بيت المقدس في كثير من هذه البحوث والمقالات مجردَ مكان لالتقاء النبيين فيه وما أشبه ذلك من جوانب قد تكونُ هي الفرع لا الأصل.

الفرضية

يتناول هذا الكتاب فرضية مفادها أنّ النبـــي محمدًا ﷺ هو من خططَ بداءةً وأصالةً للفتح الإسلامي لبيت المقدس. ووفق هذه الفرضيّة، فإن أبا بكر الصديق وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما إنّما قاما بتنفيذ خطة النبـــي ﷺ وتحقيق مراده. وبناءً على هذه الفرضية، فإن جميع الحملات العسكرية الإسلامية التي سبقت فتح تلك المدينة إنما كانت تطبيقًا لهذه الخطة.

إنّ ما دفعني لدراسة هذه القضية هو افتراضات وإشارات طرحها عددٌ من العلماء والباحثين من أمثال خليل عثامنة (2000: 88)، وعبدالفتّاح العويسي (2006: 50)، ومحمد شراب (1994: 74)، وإبراهيم بيضون (1997: 8)، وموشي جيل (1997: 21)، وهاني أبو الرُّب (2002: 96)، وأسامة جمعة الأشقر (2006: 23) وسواهم من الباحثين، حيث أشاروا إلى فكرة أن النبي ﷺ هو من خطا الخطوات الأولى ولفتَ الأنظار نحو فتح بيت المقدس. إلا أن أولاء الباحثين يختلفون حول أهداف تلك الخطوات، وكيف بدأت ومتى بدأت. ويبدو أن العويسي وعثامنة هما الوحيدان اللذان يعتقدان أن النبي ﷺ قد وضع خطة هذا الفتح، بل إن العويسي يرى أن هذه الخطة كانت تفصيلية كذلك. وفي المقابل نجد من يعارض هذه الفكرة في مصادر أخرى، مثل ما جاء عند هافا لازروس يافيه (1990: 35)، وجويتين (1986: (5) 323)، وعوفير ليفني كَفْري (2005: 216)، إذ يشيرون إلى أن بيت المقدس لم يكن ذا أهمية في مراحل الإسلام الأولى أثناء حياة النبي ﷺ وأنّه لم يضع في حسبانه فتحَ تلك المنطقة.

وهكذا يحاول كاتب هذه السطور هنا أن يشق طريقه بين هذه الفرضيات المتعلقة بخطة النبي محمّد ﷺ لفتح بيت المقدس، ساعيًا لتحقيق فهم أفضل لمقاصد النبي ﷺ بخصوص علاقته ببيت المقدس. كما ينظر هذا الكتاب إلى جوانب متعددة من السيرة النبوية العطرة كمحاولة لإعادة قراءتها وتحديد أوجه الارتباط فيها ببيت المقدس.

الدراسات السابقة

ذكرنا فيما سبق أن العديد من الباحثين قد تناولوا هذه القضية وأبدوا آرائهم حول دور النبي محمد ﷺ في فتح بيت المقدس. وأحد المصادر التي دُرِسَت لغرض هذا الموضوع هو كتاب موشي جيل (1992) بعنوان "تاريخ فلسطين 634-1099"، وقد نشر بالعبرية عام 1983 وبالإنجليزية عام 1992. وتحلل هذه الدراسة التفصيلية أحداث السيرة النبوية ووجه ارتباطها بالفتح الإسلامي لبيت المقدس، ويركّز الكتاب بشكل كبير على فلسطين في القرن السابع الميلادي. إلا أنّ تحليله للأسباب والدوافع لنظريته بأكملها تعتمد بشكل حصري على تحليل الجانب

العسكري وحسب. ويرى الكاتب في مقال له بعنوان *التاريخ السياسي للقدس* أنه "من المستبعد أن تكون قدسيّة القدس أحد الدوافع التي دفعت بالنبـــي محمد ﷺ لإطلاق حملاته العسكرية ضد البيزنطيين قبيل وفاته" (جيل 1996: 4). وهكذا نجد هذا الباحث يعزو أفعال النبـــي ﷺ فيما يتعلق بفتح بيت المقدس إلى أسباب اقتصادية وسياسية. ولا بدّ من الإشارة هنا إلى أن جيل لا يستعين في تحليلاته بالمصادر الإسلامية الأساسية كالقرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، وفي هذا إغفال لأول وأهم ما يساعد على فهم أهداف النبـــي ﷺ في هذا الصدد. وبما أنّ محمدًا ﷺ هو نبـــي المسلمين، وبما أن القرآن الكريم قد كان أهمّ ما يؤثّر فيه ويسيّر حياته، ولاسيما علاقته ببيت المقدس، فكيف يمكن بعد ذلك إغفال المصادر الإسلامية الأساسية في هذا السياق!.

هنالك مصدر آخر يتناول هذه القضية كذلك، ألا وهو كتاب محمد حسن شراب، والذي جاء بعنوان *بيت المقدس والمسجد الأقصى* ونشر عام 1994. ويشير هذا الكتاب إلى أنّ النبـــي ﷺ قد قام بعدد من الخطوات لفتح بيت المقدس، إلا أنه لا يحلل هذه الخطوات أو الأحداث بالعمق الذي تتطلبه مسألة بهذا الحجم، ثمّ إنه يغفل بعض العناصر الأساسية، كوثائق النبـــي ﷺ في تلك الفترة.

ومن المصادر التي تناولت هذا القضية كتاب بعنوان *تقديم بيت المقدس* لعبد الفتاح العويسي، والذي نشر أول مرة عام 2005. ويرى العويسي أن النبـــي ﷺ قد وضع "خطة استراتيجية" لفتح بيت المقدس، ويرى كذلك أن رحلة الإسراء والمعراج كانت نقطة البدء لهذه الخطة. ويمضي الباحث في تحليل عددٍ من الأحداث والوقائع في حياة النبـــي ﷺ ويتناولها على أنها عناصر خطة الفتح. غير أنه وبالنظر إلى طبيعة الكتاب والهدف منه فإن العويسي لا يتعمق بتحليل الأحداث التاريخية المرتبطة مباشرة بهذا الشأن.

كما تناول إبراهيم بيضون (1997) هذه القضية في كتابه *تاريخ بلاد الشام*. وبيضون كاتب وباحث معاصر ومؤرخٌ مختص بتاريخ الخلافة الأموية، كما أنه مهتم بتاريخ بلاد الشام، وهي منطقة تضم ما بين حلب في سوريا إلى العريش في مصر. وهو يتعرض للتحركات العسكرية والسياسية للنبـــي محمد ﷺ ويشير إلى أن الهدف من هذه التحركات هو فتح بلاد الشام بأكملها، إلا أنه لا يربط ذلك

مباشرة ببيت المقدس ولا يظهره كدافع أساسيّ لوضع النبيّ ﷺ خطته لفتح المنطقة.

أما كتاب *فلسطين في خمسة قرون* (2000) فهو من المصادر المهمة الأخرى التي تناولت هذه القضية، وهو من تأليف خليل عثامنة، المؤرخ المختص بالتاريخ العربي الإسلامي ولاسيما تاريخ بلاد الشام في العصر الإسلامي. ويبحث عثامنة في هذا الكتاب ما يسميه هو "خطة الفتح المبكرة في عهد النبوة" (2000: 88)، إلا أنه ينطلق في مناقشاته للقضية من زاوية سياسية بحتة، مشيرًا إلى أنّ النبي ﷺ رسم خطة فتح فلسطين في السنوات الأخيرة من حياته. كما يقتصر عثامنة في دراسته هذه على فلسطين بحدودها المعاصرة، كما أنه يغفل العديد من الجوانب التي شكلت العلاقة بين النبي محمد ﷺ وبيت المقدس في مرحلة مبكرة من النبوة. ولأن عثامنة يدرس حياة النبي ﷺ بوصفه قائدًا سياسيًا وليس بوصفه نبيًا، فإنه لا يتعدى في كتابه هذا التحركات العسكرية التي قام بها النبي ﷺ في الأيام الأخيرة من حياته، ومن الطبيعي في هذه الحالة أن يغفل النقطة المرجعية الأساسية للنبي ﷺ، والتي من شأنها أن تفصح عن دوافعه الحقيقية لوضع خطة الفتح. وهكذا نجد عثامنة يعزو التحركات العسكرية إلى أسباب تجارية وسياسية، مغفلاً الطبيعية التاريخية الأساسية لمحمد ﷺ، ألا وهي كونه نبيًا في المقام الأول.

ترد هذه القضية كذلك عند هاني أبو الرب في كتابه *تاريخ فلسطين في صدر الإسلام* (2002). كان هذا الكتاب أطروحة درجة الدكتوراة التي قدمها أبو الرب للحصول على درجة الدكتوراة في التاريخ الإسلامي في جامعة بغداد في العراق عام 1998. ونجد أن فلسطين عند أبو الرب هي فلسطين التاريخية كما كانت في القرن السابع الميلادي، وهي قريبة في حدودها لمنطقة بيت المقدس. ومع هذا فإنه يخصص 10 صفحات فقط لبيان العلاقة بين النبي محمد ﷺ وهذه المنطقة، رابطًا بين تحركات النبي العسكرية وتحركات أبي بكر الصديق رضي الله عنه، وواصفًا لها بأنها خطوات ممهدة للحملات الأخرى وحسب.

وأحد آخر الكتب الصادرة في هذا الشأن كتاب بعنوان *فتوح فلسطين* لمؤلفه أسامة جمعة الأشقر (2006). وهو باحث معروف في حقل الأدب وفي حقل التاريخ، ويدرس في هذا الكتاب الخطوات الأوليّة للفتح الإسلامي الأول لبيت

المقدس في عهد النبـــي محمد ﷺ. ويتناول الكاتب استراتيجية النبـــي ﷺ في التحضير لفتح بيت المقدس. إلا أنه يركز كذلك على الأسلوب العسكري والدبلوماسي للنبـــي من دون أن يسبر دوافعه ﷺ لتبني تلك الإستراتيجيات، كما أنه يتناول فلسطين بحدودها المعاصرة.

وهناك بالإضافة إلى هؤلاء الباحثين الذين سبق ذكرهم والذي تناولوا هذه القضية بالتفصيل، باحثون آخرون مثل أمنون كوهين، والذي يدرس العلاقة بين النبـــي محمدﷺ وبيت المقدس في كتابه *القدس، دراسات في تاريخ المدينة* (1990). فهو يؤكد في كتابه هذا أنّ النبـــي ﷺ قد اهتمّ بأمر القدس وخطط لفتحها، إلا أنّه في الوقت نفسه يعزو هذا إلى ما يدّعيه من تأثر النبـــي ﷺ بما للقدس من مكانة مقدسة في اليهودية والنصرانية. ويتوقف كوهين عند هذا الحد في دراسة خطة النبـــي ﷺ لفتح القدس، مع التوسع في تحليله للتأثير اليهودي النصراني على النبـــي ﷺ، مما دفعه حسب رأي كوهين إلى وضع استراتيجية كان من شأنها أن تجعله أقرب إلى اليهود والنصارى وتمنحه الشرعية لديهم. ويغفل كوهين الجانب الأكثر أهمية في تحديد علاقة النبـــي ﷺ بالمنطقة، ألا وهو القرآن الكريم.

يهدف هذا الكتاب إلى ردم هذه الفجوات التي وقفنا عليها في هذه التحليلات والدراسات. فهو دراسة للعلاقات العملية والدينية والسياسية بين النبـــي محمد ﷺ وبيت المقدس، مبتدئًا بالعنصر الأول والأكثر أهمية وتأثيرًا على النبـــي ﷺ في توجيه اهتمامه نحو بيت المقدس، ألا وهو القرآن الكريم، لذلك فإننا ننظر ونبحث في رحلة الإسراء والمعراج وفي فرائض الإسلام، وعلى رأسها الصلاة، وفق هذا السياق. وتساعد جميع هذه العناصر في تحديد التجليات الفعلية للعلاقة بين النبـــي ﷺ وبيت المقدس. وعليه فقد درسنا التحركات الدبلوماسية والسياسية للنبـــي بخصوص بيت المقدس من أجل التأكد من وجود خطة للفتح، وأن نحدد دلالات هذه الخطة في حال تأكد وجودها.

المنهجية

يعتمد الباحث كلاً من منهجية البحث التاريخي ومنهجية دراسة الأحاديث النبوية من أجل تحليل المصادر. وبما أن هذا الكتاب يتعامل مع قضية تاريخية يحضر

فيها النبـــي ﷺ، فإن الباحث يعتمد على المنهجية التاريخية، وبما أن الكتاب في الوقت ذاته يبحث في حياة النبـــي ﷺ، فإن هذا يتطلب تحليلاً لمصادر إسلامية أصيلة، وهي الأحاديث النبوية الشريفة في هذه الحالة، وعليه فإن الباحث يتكّئ كذلك على منهجية الحديث النبوي عند الحاجة بحيث يتشكل لديه منهجية متعددة ومتداخلة بين أكثر من منهجية.

ويجري استخدام المنهجية التاريخية لأغراض التقييم النقدي ودراسة الوثائق التاريخية المختلفة المستخدمة في البحث. ويطبق الباحث المنهجية التاريخية عند التعامل مع المصادر التاريخية، ككتب التاريخ وكتب السيرة، وذلك من خلال دراسة وتحليل لغة هذه الوثائق وأفكارها. ويقوم الباحث كذلك بجمع النصوص والمعلومات المتعلقة بالأحداث التاريخية من المصادر المتعددة التي تتناول حياة النبـــي ﷺ، ومن ثم يقوم بتحليلها نقديًا والمقارنة فيما بينها من أجل تحديد فهمٍ أكثر دقة لها. ومن ثم يمكن ربط هذه البيانات التي خضعت للتحليل والمقارنة مع الوقائع التاريخية التي حدثت في الفترة موضوع البحث، أي خطة النبـــي ﷺ لفتح بيت المقدس.

أمّا منهجية الحديث الشريف فتتعامل بشكل أساسي مع استخدام الأحاديث المرفوعة إلى النبـــي ﷺ والتأكد من صحتها. كما تتعامل هذه المنهجية مع جرح وتعديل الرواة وقتما يستلزم ذلك في الدراسة. بيدَ أنّ الباحث يتعامل بشكل أساسي مع مصادر الحديث الصحيحة (كالأحاديث الواردة في البخاري ومسلم)، لذا تم الاقتصار في استخدام منهجية الحديث على المواطن التي يرد فيها حديث مختَلَف على صحته. وكجزء من استخدام منهجية الحديث بالتبادل مع المنهجية التاريخية، فإنه وفي حال ورود حديث وكان هو المصدر الوحيد لأي حادثة كانت، فإنه يُنظرُ في صحة الحديث، فإن كان ضعيفًا صار نصًا تاريخيًا. ويتم بعد ذلك مقارنة هذا الحديث بالنصوص التاريخية الأخرى ويتم النظر فيها على هذا الأساس. وعليه فإنه في حال تعارض حديث ضعيف جدًا أو أثر مع نص تاريخي آخر، فإنه يتم التعامل معه باستخدام المنهجية التاريخية. والحقّ أنّ الحديث الصحيح أكثر دقة من الرواية التاريخية، ولكنّ الحديث الضعيف قد يتساوى في الدقة مع الرواية التاريخية أو يتفوق عليها، وذلك لأنّ منهجية المحدثين صارمة في تحديد الحديث الصحيح من غيره.

لا بد من الإشارة إلى أنّ الكاتب يقوم بعمليات التقييم والتحليل وفق المصادر الإسلامية الأساسية، فمحمدٌ ﷺ في المصادر الإسلامية هو نبـــي مرسلٌ من ربّ العالمين، ورحلة الإسراء والمعراج هي حقيقة لا مراء ولا جدال فيها وليست خرافةً أو حلمًا. كما أن القرآن الكريم هو كلام الله عزّ وجلّ الذي نــزّله على نبيّه ﷺ والحديث الشريف هو المصدر الثاني بعد القرآن، وله المكانة نفسها تقريبًا في معتقد المسلمين.

الفصل الأول

خلفية تاريخية

مقدمة

الهدف من هذا الفصل هو تقديم خلفية للنظرية المتعلقة بخطة النبـــي محمد ﷺ لفتح بيت المقدس والأسباب المحتملة لوضعها. إذ إن معرفة أطراف من تاريخ بيت المقدس قبل بعثة النبـــي محمد ﷺ وفي إبّانها تساعد في تقديم صورة أكثر وضوحًا لحالة المنطقة في تلك الفترة.

ويتناول هذا الفصل بعض الأحداث الأساسية التي تبلورت من خلالها مكانة بيت المقدس في الإسلام. وهذا يشتمل بالتأكيد على النصوص القرآنية التي ورد فيها ذكر هذه المنطقة، كسورة الروم. كما يقف هذا الفصل عند رحلة الإسراء والمعراج، واتخاذ المسجد الأقصى قبلة للمسلمين في الصلاة في مرحلة مبكرة من الإسلام، بحيث ندخل في إطار اهتمام النبـــي ﷺ ببيت المقدس لتتجلّى لنا بوضوح الأسباب وراء تحركاته باتجاه فتح المنطقة بأسرها.

الوضع السياسي لبيت المقدس قبل بعثة النبي ﷺ

استولى الرومان بقيادة بومبـــي على منطقة بيت المقدس وتأسس حكم الرومان في مدينة القدس في أيلول 63 قبل الميلاد (ويلكنسون 1990: 75). وليس هنالك وثائق واضحة تدل على طبيعة العلاقة بين سكان بيت المقدس في ذلك الزمان وبين الرومان، لكنّ الظاهر أن وضع بيت المقدس قد تغير مرارًا حسب الظروف التي مرت بها المنطقة وساء الحال في المرحلة الأخيرة من حكم الرومان.

ومع بعثة النبـــي عيسى عليه الصلاة والسلام، ولدت النصرانية في بيت المقدس. ولم يقبل معظم اليهود هذه الرسالة الجديدة، وهذا يفسر سبب القمع الذي تعرض له أتباع عيسى عليه الصلاة والسلام. وقامت الثورتان اليهوديتان المعروفتان ضد الرومان دون تدخل العرب من سكان الأرض المقدسة، الأولى عام 70م، والتي أنهاها القائد الروماني تيطس في عهد والده الإمبراطور فاسباسيان. والثانية المعروفة باسم ثورة شمعون باركوخبا عام 132م، والتي كانت شديدةً على

الرومان، إلا أنّ تدخّل الإمبراطور الروماني هدريان أخمد الثورة اليهودية الثانية، وأقام إقليم إيلياء وأسس مدينة إيليا كابيتولينا. وقد تعرض اليهود للقمع وطردوا من المنطقة بعد ثورة باركوخبا (جولدهيل 2005: 81). ويشير ويلكنسون (1990: 88) إلى وجود الكثير من الشاميين والعرب من بين الذين لم يطردوا من بيت المقدس مع اليهود، ويتفق كلّ من عثمان الطل (2003: 216–218) وفاطمة الزهراء عبد الرحمن (2005: 141–142) مع ما ذهب إليه ويلكنسون.

الرومان والنصرانية

اعتنق قنسطنطين النصرانية وعُمِّدَ قبيل وفاته عام 337 ميلادية، وترتّب على ذلك تحول عظيم انقلبت الإمبراطورية الرومانية على إثره من حضارة وثنية إلى إمبراطورية نصرانية (ماكهنري 1993: (2) 699). لكنّ هذا التحول لم يقف عند هذا الحد، بل تبعه انقسام في الإمبراطورية الرومانية؛ فأصبح القسم الآسيوي هو أوروبا الشرقية والأجزاء الآسيوية من الإمبراطورية الرومانية، أي الإمبراطورية البيزنطية. أما القسم الأوروبـــي فأصبح أوروبا الغربية، أي الإمبراطورية الرومانية المقدسة (ماكهنري 1993: (2) 699). وصارت روما عاصمةَ الإمبراطورية الرومانية الغربية المقدسة، وبيزنطة عاصمة الإمبراطورية البيزنطية الشرقية[1]، وباتت تعرف بالقسطنطينية.

وقد كان بيت المقدس في وقتٍ مبكّر من حياة النبـــي ﷺ قبل بعثته تحت حكم البيزنطيين، وكانوا يعدّون تابعين للكنيسة الشرقية (جونـــز 2005: (10) 6912)،

1 تشتق صفة "بيزنطي" من كلمة "بيزنطة" وفيما يلي توضيح لهذه الكلمة ورد في الموسوعة الحديثة "Modern Encyclopedia Illustrated" (جوريل 1962: (2) 442):
مدينة تأسست على ضفاف البسفور في القرن السابع قبل الميلاد على يد مستعمرين من اليونان أتوا من مدينة ميغارا، حيث احتلوا موقعًا ذا أهمية إستراتيجية وتجارية بسبب ما تمنحه من تحكم بالعبور إلى البحر الأسود. وقد سيطر عليها الإمبراطور الروماني سيبتموس سيفروس (196 ميلادية)، وأعاد قسطنطين إعمارها من جديد لتصبح عاصمة الإمبراطورية الرومانية الشرقية عام 330 للميلاد فصارت تعرف بالقسطنطينية.
ويظهر هذا أن الاسم الأصلي للقسطنطينية كانن بيزنطة، ولكن الإمبراطور قسطنطين أعاد تأسيسها لتصبح عاصمة الإمبراطورية الرومانية الشرقية، والتي بقيت معروفة باسم الإمبراطورية البيزنطية نسبة إلى اسمها الأصلي.

وهم النصارى الأرثوذكس، كما يعرفون الآن. وبخلاف الكنيسة الكاثوليكية التي يرأسها أسقف واحد، وهو بابا روما، فإن الكنيسة الشرقية يرأسها أكثر من أسقف. ومنذ القرن الرابع الميلادي كان هنالك أربع مراكز أساسية للكنيسة الأرثوذكسية هي: أنطاكية والقدس والقسطنطينية والإسكندرية (جونـــز 2005: (4) 2581).

الوضع السياسي في بيت المقدس في مطلع بعثة النبي ﷺ

إن إدراك طبيعة الوضع السياسي في مطلع بعثة النبـــي ﷺ بشكل جيد يتطلب النظر بدقة فيما كتبه المؤرخون الذين اهتموا بالأحداث التي وقعت بين الفرس والبيزنطيين بشكل عام وما كان يحدث في بيت المقدس على وجه الخصوص في تلك الفترة المبكرة من نبوته ﷺ. ويركز الباحث هنا على مصادر أساسية ثلاثة وهي: *يوميّات الفِصح* (Chronicon Paschale) في القرن السابع الميلادي، وتاريخ تيوفانيس المعرِّف (ت. 818 ميلادية)[1]، والذي عاش ووضع كتابة في القرن التاسع الميلادي. أما ثالث هذه المصادر فهو تاريخ الراهب أنتيكوس ستراتيجوس، والذي عاش في مدينة القدس في تلك الفترة وشهد غزو الفرس للمنطقة والمدينة. وبينما يتناول المصدران الأولان هذه الفترة بتفاصيلها، فإن المصدر الثالث يتحدث بشكل مخصوص عن استيلاء الفرس على بيت المقدس. وقد دُوِّنت يوميّات الفِصح في وقت الأحداث التي تصفها، ولذا يمكن أن تعدّ مصدرًا موثوقًا. أمّا تيوفانيس المعرّف فقد دوّن العديد من الأحداث نقلاً عن مؤرخين غيره، إلا أنّه تحرّى الدقّة، ولذا يعدّ كتابه من المصادر المهمة كذلك. ونجد من ناحية أخرى أن ستراتيجوس قد أرّخ حدثًا واحدًا خلال فترة قصيرة من الزمن، بيدَ أنّه تناوله بشكل تفصيلي وشمولي، مما يوفّر لنا إضاءات على تلك الفترة لا يمكن الاستغناء عنها.

---

1 نظرت في بعض المصادر التاريخية التي تعود لتلك الفترة أو بعدها بقليل ووجدت ثلاثة مصادر فقط تقدم معلومات عن تلك الفترة (وهي موجودة الآن باللغة الإنجليزية). هذه المصادر هي: تاريخ تيوفانيس، ويوميات الفصح، وستراتيجوس. وقد كتب الأخير بعد الغزو الفارسي لبيت المقدس في القرن السابع للميلاد، أما يوميات الفصح فقد كتبت في القسطنطينية في القرن السابع الميلادي أيضًا. أما تاريخ تيوفانيس فقد كتب بعد مائتي سنة من تلك الفترة، واعتمد على مصادر مختلفة في كتابه. وقد كتبت معظم هذه المصادر باليونانية أو اللاتينية.

كانت بعثة النبـــي محمّد ﷺ كما تذكر المصادر التاريخية في العام 610 للميلاد (المباركفوري 1996: 68). وقد كانت الإمبراطوريتان البيزنطية والفارسية قبل هذه الفترة وأثنائها قد دخلتا فيما بينهما في حروب طويلة طاحنة. ويشير ويلكنسون (1990: 100) إلى أن هجمات الفرثيين[1] على روما قد بدأت منذ العام 41 قبل الميلاد واستمرت حتى إنشاء الإمبراطورية الفارسية الساسانية، مع فترات متقطعة من الهدوء، كتلك الهدنة التي استمرت 50 عامًا والتي توصّل إليها الإمبراطور جستنيان مع الفرس. ويعدّ غزوُ كسرى عظيم الفرس للأقاليم البيزنطية من المفاصل المهمّة في الحرب بين الإمبراطوريتين، وقد حدث ذلك في العام 602 للميلاد، أي قبل ثماني سنوات فقط من بعثة النبـــي ﷺ، وقد ذكر تيوفانيس ذلك كذلك في تاريخه (تيوفانيس: 1997-418-420).

ويروي تيوفانيس أنّ الحرب اندلعت بادئ الأمر في منطقة الرّها[2] (جنوب الأناضول) عندما قام جنرال بيزنطي يدعى نارسيس بالاستيلاء على المدينة وحرّض على الثورة ضد الإمبراطور البيزنطي الجديد بوخاس، إذ كان نارسيس يرفض الطريقة التي جاء بها بوخاس إلى سدة الحكم وكان يقف ضدّ الاغتيالات التي قام بها بوخاس هذا لتصفية شخصيات وقادة كبار في الإمبراطورية وقتل عائلاتهم كذلك. ويذكر تيوفانيس أن نارسيس طلب العون من كسرى الفرس للتغلب على الإمبراطور البيزنطي، وقد أجابه كسرى إلى ذلك بالفعل، وأرسل جنده وأعلن الحرب ضد البيزنطيين في العام 602 للميلاد.

ومما يستدعي الاهتمام في هذا المقام هو أن يوميات الفصح لا تذكر دور الفرس في هذه الفوضى، مع أنّ من دوّنوا هذه اليوميات كانوا معاصرين لهذا الحدث وكانوا يعيشون في القسطنطينية في تلك الأوقات (يوميات الفصح 1989:

---

1 الفرثيون كما يورد ويلكنسون (1990: 100) هم أحد الشعوب الإيرانية التي حكمت فارس قبل أن يقوم أردشير بإنشاء الإمبراطورية الفارسية الساسانية عام 224 قبل الميلاد.

2 تقع الرها في آسيا الصغرى جنوب شرقي تركيا على بعد 950 كم من إسطنبول، وكان الإسكندر الأكبر قد أطلق عليها اسم (إديسًا)، وتعرف اليوم باسم شانلي أورفا (أو أورفا) (انظر الموقع الإلكتروني لوزارة الثقافة والسياحة في تركيا: http: //www.kultur.gov.tr/EN/BelgeGoster.aspx?17A16AE30572D313404F9755767D76FF89326D2B69E01EEB. تاريخ الرجوع إلى الموقع: 17-5-2006)

142–145). ولربما كان مدونو يوميات الفصح أكثر اهتمامًا بالأحداث التي كانت تجري في القسطنطينية نفسها، عاصمة الإمبراطورية، أو لعله لم يتوفر بين أيديهم معلومات واضحة عمّا كان يجري في الرها في ذلك الوقت.

ويمكننا من خلال تحليل التسلسل التاريخي أن نتوصل إلى أن الفرس كانوا بالفعل يسعون جاهدين للتوسع والاستيلاء على مزيد من الأراضي والأقاليم لتكون أقرب إلى القسطنطينية عاصمةِ البيزنطيين، إذ لم تكن الرها تبعد عنها سوى 950 كم، وتحققُ ذلك يعني أن يُحكِم الفرس قبضتهم على البيزنطيين، وأن يغتنموا هذه الفرصة الذهبية لتدمير هذه الإمبراطورية أو زعزعة أركانها على الأقل.

وجدير بالذكر هنا، كما ورد عند تيوفانيس، أن الفرس لم يهاجموا بلاد الشام مباشرة، وهذا يعني أنه لم تراودهم فكرة غزو بيت المقدس لأسباب دينية، وإنما لأسباب سياسية محضة. بيد أنّ البعض قد يرى أن الفرس كانوا يسعون للسيطرة على الأجزاء الجنوبية الشرقية من الإمبراطورية البيزنطية، ابتداءً من الرها، والتي كانت تعدّ حاجزًا أساسيًا بين الأقاليم البيزنطية الأساسية، أي آسيا الصغرى، وبين المناطق غير البيزنطية[1]، وهي بلاد الشام ومصر. ويعزز هذا القول ما ورد في المصادر التاريخية المتعددة، كالتاريخ الذي كتبه تيوفانيس وما جاء في يوميات الفصح، حيث يظهر لنا في هذه المصادر المسلك الذي اختطته الجيوش الفارسية لنفسها بعد الهجوم على الرها والمنطقة المجاورة لها تيوفانيس 1997: 422–424) كما يظهر في الخريطة 1 فيما يلي:

1 وهذا يعني المناطقَ المأهولة بأعراق أخرى غير البيزنطيين الأصليين، كالعرب والقبط (والذين يعدّون عرقًا مختلفا عن العرب).. إلخ.



الخريطة (1): الغزو الفارسي والمدن التي استولوا عليها من البيزنطيين في القرن السابع الميلادي. رسم الباحث هذه الخريطة اعتمادًا على ما ورد عند كمباريتي (2002).[1]

1 ماتيو كمباريتي، 2002، الساسانيون في إفريقيا، ترانسوكسيانا (4): //www.salvador.edu.ar/transox/0104/sasanians.html، وقد تم الرجوع إلى الموقع في تاريخ: 13-3-2008.

وقد يتعارض هذا الفهم مع النظرية التي ترى أن الفرس أرادوا تدمير الإمبراطورية البيزنطية عن بكرة أبيها والهجوم على القسطنطينية، مع أنّه ليس بعيدًا على الفرس أن يسعوا للاستيلاء على المناطق البعيدة نوعًا ما عن القسطنطينية مركز القوة البيزنطية، حيث كان يمكنهم على هذا النحو التمكين لأنفسهم خلال هجومهم الأخير على المناطق البيزنطية الأساسية. ولهذا توجه اهتمامهم نحو الرها فهاجموها، فصارت القوات البيزنطية في الشام معزولة وانقطعت عاصمة البيزنطيين عن العديد من الأقاليم الأساسية الخاضعة لسيطرة هذه العاصمة في الجنوب. أما غزو الشام ومصر فكان يعني تأمين مدخل مهمّ للفرس نحو المتوسط، الأمر الذي قد يساعدهم في أي تحركات قادمة لهم ضد القسطنطينية وآسيا الصغرى.

يتجلى لنا فيما سبق صورةٌ للوضعِ السياسيِّ المتقلب لبيت المقدس، وهو انعكاس لطبيعة الوضع السياسي في بلاد الشام بأسرها والتي كانت ظلال الحروب تغشاها. وتلك هي الفترة التي شهدت بعثة النبـــي محمد ﷺ وتلقّيه وحي السماء، وذلك في العام 610 للميلاد (المباركفوري 1996: 68). ويرد في العديد من الروايات في السيرة النبوية أن الأوضاع في بلاد الشام وبيت المقدس شهدت استقرارًا نسبيًا بعد بعثته ﷺ، ويمكن تأكيد ذلك من خلال دراسة الروايات التي تتحدث عن قوافل قريش إلى بلاد الشام، وهو أمر ذكره القرآن الكريم في سورةٍ من أوائل السور المكّية، وهي سورة قريش (106: 1-4) (الزركشي 1998: (1) 193). ولم يرد في كتب التاريخ ما يشير إلى توقّف حركة هذه القوافل خلال تلك الفترة، رغم الحرب الدائرة بين الفرس والبيزنطيين، إذ إنّ وقوع أمرٍ كهذا كان لا بدّ أن ينقل في التاريخ لو أنه حدث نظراً لضخامته وتأثيره المباشر على حياة قريش. لذا يمكن القول إن وضع المنطقة شهد هدوءًا إلى حدّ ما، واستمرّ هذا الوضع الهشّ في بيت المقدس إلى أن دهمه الغزو الفارسيّ.

الغزو الفارسي لبيت المقدس

غزا الفرس بلاد الشام وبيت المقدس خلال فترة قصيرة، وقد ورد ذكر هذا الغزو في العديد من المصادر التاريخية، كيوميات الفصح، والتي كتبت في القسطنطينية بُعيد هذه الحرب مباشرة. إلا أنّ ما كتبه ستراتيجوس حول هذه الفترة

التاريخية يعدّ الأهمّ بين ما كُتب في هذا الصدد، إذ شهد ستراتيجوس تلك الحرب بنفسه، وخصّ ذكرَ دخول الفرس إلى بيت المقدس وحدّد ذلك بالعام 614 للميلاد. وفيما يلي وصف لما حدث كما ورد في يوميات الفصح:

> في هذا العام وفي شهر حزيران، تجرعنا مرارةً تستحقُّ عزاءً لا ينتهي، كيف لا وقد سقطت القدس ومعها العديد من مدن الشرق في يد الفرس.

ويظهر هذا النصّ أن الفرسَ قد استولوا على العديد من المدن في الوقت نفسه، ومع ذلك لم يردْ ذكرٌ لأيٍّ من هذا المدن بأسمائها باستثناء القدس. ويذكر تيوفانيس المناطق التي احتلّت غير مدينة القدس، فيذكر منطقة "الأردن وفلسطين والمدينة المقدسة". وهذا يظهر أنّه قصد المنطقة ضمن بيت المقدس أو القريبة من بيت المقدس، وليس منطقة الشام بعمومها، ذلكَ أنّه يذكر في الوقت نفسه على سبيل المثال أن الفرس احتلوا دمشق في العام 613 للميلاد (تيوفانيس 1997: 430).

أما ستراتيجوس فيركّز من ناحية أخرى على مدينة القدس (إيلياء). حيث يصف في البداية الطريق الذي سلكه الفرس للوصول إلى مدينة القدس بعد احتلالهم للمناطق الشرقية من بلاد الشام. كما يذكر ستراتيجوس بعض الأماكن والمدن التي احتلها الفرس في طريقهم إلى القدس، فيقول:

> ووصلوا فلسطين ومشارفها، كما وصلوا إلى قيسارية، والتي كانت من المتروبوليس[1] ولكنّهم استجدوا هنالك للتوصل إلى هدنة، وانحنت رقابهم خاضعين. ثم تقدم جيش العدو نحو سرابيون (أرسوف)، واستولوا عليها، وسقطت معها جميع المدن الساحلية وحصونها... ثم وصلوا منطقة يهودا، ومن ثمّ أتوا مدينة كبيرة ومشهورة، مدينة مسيحية، ألا وهي مدينة القدس (كونيبير **1910**: **503**).

يظهر هذا الوصف أن التحرك الفارسي كان من الشمال باتجاه الجنوب الشرقي. ولو قمنا بالربط بين ما ورد هنا وبين ما دوّنه تيوفانيس بخصوص احتلال الفرس لدمشق عام 613 للميلاد، فإنه سيظهر لنا أن الفرس قد تحركوا من دمشق

1 أي أنها من أمّهات المدن

إلى أذرعات (درعا)، ومن ثم انتقلوا نحو مدن الساحل الفلسطيني مرورًا بالجزء الشمالي من وادي الأردن باتجاه قيسارية ومن ثم جنوبًا نحو سرابيون (أرسوف)[1]، ووصلوا في نهاية المطاف إلى القدس من الشمال الغربـــي.

بالمقارنة بين المصادر نقول: مع أنّ تيوفانيس قد عاش في القرن التاسع للميلاد، ومع أن يوميات الفصح قد كتبت في القرن السابع، فإن الباحث هنا يرى أن تيوفانيس كان أكثر دقة في تدوين بعض هذه الأحداث، ولعل ذلك راجع إلى اعتماده على مصادر أخرى، بخلاف يوميات الفصح، والتي اعتمدت على تجارب المؤلفين أنفسهم في القسطنطينية في العام 630 للميلاد (يوميات الفصح: 1989، ظهر الغلاف). وهذا ما جعل الكثير من أجزاء يوميات الفصح مقتضبة، وذلك لأنّ كتابها كانوا في القسطنطينية على وجه العموم. أما ستراتيجوس، فقد كان أكثر تفصيلاً من تيوفانيس ومن يوميات الفصح، وذلك لأنه كان شاهد عيان على تلك الأحداث بأكملها، ولكنّه في الوقت نفسه لم يكن على علم بتحركات الفرس قبل وصولهم إلى فلسطين، وقد يعزى ذلك إلى الوضع غير المستقر في بيت المقدس أو بسبب عدم اهتمامٍ من ستراتيجوس نفسه بالوقوف على تلك التحركات.

مكانة بيت المقدس في الإسلام

لبيت المقدس مكانة خاصة عند المسلمين منذ السنوات المبكرة الأولى للإسلام في مكة. وقد بحث العالم الماليزي محمد رسلان نور أهمية بيت المقدس في الإسلام من منظور القرآن الكريم والحديث الشريف في أطروحةٍ غير منشورةٍ له عام 2006، جاء فيه (2006: 299):

> إن هذه المنطقة راسخة بكل ما تعنيه الكلمة في القرآن الكريم والسنة الشريفة، كما أنها راسخة في تاريخ المسلمين، ولا عجبَ أنها تحتل أرفع مكانة وأسمى منـــزلة في عقل ووجدان كل مسلم.

1 سرابيون هي مدينة أرسوف الواقعة على الساحل الفلسطيني (انظر دجادو (غ. م): http: //www.biblioteca-tercer-milenio.com/sala-de-lectura/Bizancio-Vasiliev/docs/DestrucciondeJerusalen.htm: في تاريخ 7-1-2008)، وهي تقع جنوب قيسارية وشمال يافا التي تقع شمال غرب القدس.

ويتفق الباحث مع ما ذهب إليه نور، إذ يمكن للدارس لمنـــزلة بيت المقدس في الإسلام أن يتوصل دونما صعوبة إلى حقيقة مفادها أن لبيت المقدس مكانة عظيمة عند المسلمين، ويمكن فهم هذا الأمر بدراسة الآيات القرآنية والأحاديث التي تشير إلى مكانة هذه المنطقة.[1]

يقول عبد الحليم عويس (2002: 27) في هذا الشأن: "والمسلمون منذ أربعة عشر قرناً ينظرون إلى بيت المقدس نظرة تقديس، على أنه مركز لتراث ديني كبير تجب حمايته، وهم يربطون ربطاً كاملاً وثيقاً بين المسجد الحرام في مكة، والمسجد الأقصى في القدس"، ويضيف قائلاً: "وإذا كان المسلمون في كل بقاع الأرض أصبحوا يتجهون في صلاتهم إلى المسجد الحرام، فإنهم لا ينسون أن نبيهم محمداً وأسلافهم الصالحين قد اتجهوا - قبل نـــزول آيات حديث القبلة[2] إلى الكعبة- إلى المسجد الأقصى أولى القبلتين.. ولا زالت مدينة الرسول عليه الصلاة والسلام تضم مسجداً يسمى "مسجد القبلتين" شاهداً حياً على الترابط الديني بين مكة والقدس، والمسجد الحرام والمسجد الأقصى". ويتفق الكاتب مع الأستاذ عويس، ويزيد على ذلك أن تعدّد الروايات في التراث الإسلامي فيما يتعلق بأهمية بيت المقدس إنما يعكس المكانة العظيمة لهذه المنطقة وما لها من اعتبار خاص في الإسلام.

نجد في المقابل أنّ لازاروس يافيه (1990: 41-42) ترى أن قدسية هذه المنطقة تطورت خلال الوقت في الإسلام، وأنّ هذا المكانة لم تكن موضع قبول دومًا. وهي تعتمد في ذلك على بعض الأحاديث الشريفة التي تذكر قدسية مكة والمدينة وتغفل ذكر بيت المقدس. وتدّعي يافيه أن معارضة هذه المكانة لبيت المقدس قد بدأت بالظهور لدى العديد من العلماء كابن تيمية (ت. 728 هجرية/1328 ميلادية). ويتفق معها في هذا ليفني-كافري (2005: 216)، والذي يرى أن للأمويين دورًا مهمًا في تطوير مكانة بيت المقدس في الإسلام، وتجلى ذلك

1 لن نخوض في تفاصيل هذه القضية لأنها قد بحثت بشكل مستفيض عند محمد رسلان نور، كما أنها ليست في صلب بحثنا.

2 تشير القبلة إلى جهة الصلاة (القلعجي 1998: 356)، وأتت كلمة "قبلة" في العربية من الجذر الثلاثي ق ب ل، ويعني حرفيا "الاتجاه" (ابن منظور 1999: (11) 25، الفيروزأبادي 1991: (4) 46).

في آثارهم المعمارية في مدينة القدس. غيرَ أنّ مكانة بيت المقدس جليةٌ لا مراء فيها في العديد من الأحاديث النبوية وفي ما كتبه فقهاء الإسلام ومؤرخوه. فابن تيمية رحمه الله على سبيل المثال يذكر استحباب زيارة المسجد الأقصى للصلاة فيه (1997: (الجزء 26) 83). كما تكلم في كثير من مؤلفاته عن مكانة تلك المنطقة في الإسلام. (انظر ابن تيمية 1997: (الجزء 27) 7–8).

مواطن ذكر بيت المقدس في القرآن الكريم

ورد ذكر بيت المقدس في القرآن الكريم في مراحل مبكرة من تنـــزّل الوحي على النبـــي ﷺ. فنرى مثلاً أن مطلع سورة التين في القرآن الكريم هو:

﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ * وَطُورِ سِينِينَ * وَهَذَا الْبَلَدِ الأَمِينِ﴾ (التين: 1–3)

وهذه من أوائل السور التي تنـــزلت على النبـــي ﷺ كما يذكر الزركشي (ت. 794 للهجرة/1392 ميلادية) (1998: (1) 193).

ويذكر ابن كثير (ت. 774 للهجرة/1372 ميلادية) ما يلي في تفسير هذه الآيات: (1994: (4) 681):

> هذه محال ثلاثة بعث الله في كل واحد منها نبيا مرسلا من أولي العزم أصحاب الشرائع الكبار. فالأول محلة التين والزيتون وهي بيت المقدس التي بعث الله فيها عيسى ابن مريم عليه السلام، والثاني طور سنين وهو طور سيناء الذي كلم الله عليه موسى بن عمران، والثالث مكة وهو البلد الأمين الذي من دخله كان آمنا وهو الذي أرسل فيه محمداً ﷺ.

ويتفق سيد قطب (ت. 1967 ميلادية) (1996: (6) 3933) مع ابن كثير. وجدير بالذكر أن هذا النص يساوي بين وجود التين والزيتون وبين وجود جبل سيناء ومكة في وقت معًا، وفي هذا إشارة إلى أن ذكر التين والزيتون هو إشارة إلى البلاد التي تنمو فيها هاتان الثمرتان. ولا بد من الإشارة كذلك إلى أن الآيات القرآنية التي تذكر الأرض التي بارك الله فيها، وهو الاسم الذي يستخدم عادة

للإشارة إلى بيت المقدس أو الأراضي المجاورة له، قد تنـــزّلت كلها في المرحلة المكية من البعثة. وهنالك أربع آيات يرد فيها ذكر هذه الأرض المباركة، وجميعها مكّية. ولهذا الأمر دلالة على الأهمية التي يمنحها القرآن لهذه المنطقة من مرحلة مبكّرة.

كما نجد في السنّة العديد من الأحاديث التي تذكر بيت المقدس، منها ما رواه أحمد بن حنبل (ت. 241 للهجرة/855 ميلادية) (1995: (13) 99) عن ذي الأصابع أنه قال: "قلت: يا رسول الله، إن ابتلينا بالبقاء بعدك أين تأمرنا؟ قال: عليك ببيت المقدس، فلعله أن ينشأ لك ذرية يغدون إلى ذلك المسجد ويروحون".

ويظهر بجلاء في هذا الحديث الأهمية التي يضفيها النبـــي ﷺ على بيت المقدس، ولا بدّ من الإشارة هنا إلى أنّ هذا الحديث سابق لفتح المسلمين بيتَ المقدس. وهكذا يتّضح أن مكانة بيت المقدس في الإسلام هي سبب اهتمام النبـــي ﷺ بها.

كانت هزيمة البيزنطيين على يد الفرس واستيلاء الفرس على بيت المقدس من الأحداث الأساسية التي تناولها القرآن الكريم، وذلك في سورة الروم. ويرى العديد من المفسرين وعلماء القرآن الكريم أنّ هذا الحدث قد ورد في الآيات الخمسة الأولى من سورة الروم:

﴿الم * غُلِبَتِ الرُّومُ * فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ * فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ * بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾.

إن مجرّد ذكر هذه الأحداث في القرآن الكريم لهو دلالة على مدى أهميتها عند المسلمين. كما أن أهمية هذا الحدث بالتحديد نابعة من أهمية المنطقة التي جرت فيها هذه الحرب. بينما نجد أن القرآن الكريم لم يأتِ قطّ على ذكر سقوط دمشق أو أنطاكية أو حمص أو غيرها من المدن البيزنطية ذات الأهمية السياسية والدينية في بلاد الشام، واكتفى القرآن بذكر سقوط بيت المقدس.

كما أن اهتمام القرآن الكريم في ذكر زمن سيطرة الفرس على بيت المقدس والانتصار المرتقب من بعد ذلك للبيزنطيين يفيد بوجود علاقة محتملة بين هذه

الأحداث وفتح المسلمين لبيت المقدس. ولو تناولنا هذه التواريخ والفترات التاريخية فإننا سنجد أن الفرس دخلوا بيت المقدس عام 614 ميلادية، ثم تمكن البيزنطيون من هزيمتهم في المرة الأولى بعد أقل من 10 سنوات (عند حساب الشهور)، وكان ذلك في العام 624 ميلادية، وذلك حسب إشارة القرآن الكريم[1]، وهذه إشارةٌ إلى مدى أهمية هذا الحدث وأبعاده. وتعدّ هذه الآيات من سورة الروم أول موطن في القرآن فيه إخبار بالغيب، وهو مرتبط في الوقت نفسه ببيت المقدس، أي أن بيت المقدس موطن أول نبوءةٍ في القرآن، بل أول نبوءة في الإسلام، وهذا أمر له أثره الخطير في بناء صورةِ بيت المقدس في الذهن المسلم.

بيت المقدس قبلة المسلمين الأولى

الصلاة ركن الإسلام الثاني بعد الشهادتين، وهو الفرض الوحيد الذي يتوجب على جميع المسلمين أداؤه كل يوم مهما كانت ظروفهم من غنى أو فقر وصحة أو مرض وعمل أو فراغ أو غير ذلك من الأحوال، بينما نجد أن أركان الإسلام الأخرى تختلف من شخص لآخر كما أنها مقيدة زمنيًا ومكانيًا، إذ يمكن استثناء بعض المسلمين من أداء بعض الفروض لرخصٍ مختلفة، كالفقر في حال الزكاة والحج أو المرض في حال الصيام أو غيره. أما وإن للصلاة شأنها المميز في الإسلام، فإن لارتباطها ببيت المقدس شأنًا مميزًا كذلك.

تشتق كلمة "صلاة" في لسان العرب من الجذر الثلاثي صلا. ويذكر ابن منظور (ت. 711 للهجرة/1311 ميلادية) (1999: (7) 397)، والجرجاني (ت. 816 للهجرة/1413 ميلادية) (2002: 112) والفيروزأبادي (1991: (4) 510) أن الصلاة تعني الدعاء. ويرى الباحث أن كلمة "صلاة" بمعناها اللغوي، أي الدعاء، لها ارتباط أقرب بكلمة عربية أخرى مشتقة من جذر قريب، وهي كلمة

---

1 كنت قد نشرت بحثاً محكماً يتناول بشكل تفصيلي هذه الآيات القرآنية وعلاقتها بالأحداث التي ترتبط بها، وكان هذ البحث بعنوان: Islamicjerusalem and the First Qur'anic Prophecy: A Study of the First Verses of Chapter 30 al-Rum (بيت المقدس والنبوءة القرآنية الأولى: دراسة لأوائل سورة الروم)، وقد نشر البحث في مجلة دراسات بيت المقدس، العدد 10 في العام 2009.

"صِلة" (انظر البعلبكي 2001: 699). هذه الكلمة مشتقة من الفعل "وصل" (انظر البعلبكي 2001: 1235). وهذا المعنى مرتبط كذلك بالمعنى الذي ذكره ابن منظور والجرجاني والفيروزابادي، إذ أن الدعاء يمثل صلةً وحبلاً بين العبد الداعي والربّ المدعوّ، ويتبع ذلك أن الصلاة في الإسلام تمثل صلةً بين العبد وربه، وهذا ما يعطي الصلاة وزنها في الإسلام.

فرضت الصلوات الخمس في الإسلام في رحلة الإسراء والمعراج، حسب ما ورد في العديد من الأحاديث. فالإمام مسلم (2000: (1) 82) يروي حديثًا صحيحًا عن الحادثة التي فرضت فيها الصلاة في معراج النبـــي ﷺ للسماء. ويرى بعض العلماء أن الصلاة نفسها قد فرضت من وقت مبكر، معتمدين على ما ورد في سورة المزمّل، وهي من السور الأولى في القرآن الكريم، وجاء في الآيتين الأوليين فيها:

﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ * قُمِ اللَّيْلَ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ (**المزمل: 1-2**).

ويقول العديد من المفسرين كابن كثير (1994: (4) 558)، والطبري (1999: (12) 278-279)، والزمخشري (1995: (4) 623-624)، والرازي (2002: (15) 172-173) والألوسي (1994: (15) 114)، في تفسير هاتين الآيتين "قم الليل إلا قليلا" أن هذه إشارة إلى قيام الليل. وينطبق هذا على الآية رقم 20 من السورة نفسها ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِنْ ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ﴾. ويرى الباحث أن هذه الآية الأخيرة تؤكد أن المقصود هو صلاة الليل، وفيها إشارة إلى التخفيف على المسلمين في هذه الصلاة.

وهنالك العديد من الروايات التي تذكر الصلاة في مكة قبل رحلة الإسراء والمعراج، وتبدو كأنها تتعارض مع الأحاديث الأخرى التي تشير إلى أن الصلوات الخمسة قد فرضت في رحلة الإسراء والمعراج. ويذكر ابن اسحاق بشكل واضح أن الصلاة بدأت بعد اعتناق أم المؤمنين خديجة رضي الله عنها للإسلام، فيقول (2004: 180) إن النبـــي ﷺ وخديجة رضي الله عنها كانا يصليان سرًا في بداية البعثة.

كما يذكر ابن اسحاق ما ورد عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه حين قال: "ما كنا نقدر على أن نصلي عند الكعبة، حتى أسلم عمر" (انظر ابن اسحاق 2004: 225). ومن المعروف أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أسلم قبل رحلة الإسراء بكثير، إذ أسلم رضي الله عنه في السنة السادسة للبعثة/615 ميلادية (انظر: المباركفوري 1996: 109)، أي بعد هجرة المسلمين الأولى إلى الحبشة. وهذا يعني أن المسلمين قد بدؤوا الصلاة في وقت مبكر، قد يكون في السنة الأولى من بعثة النبـــي ﷺ، لكن ما حدث ليلة الإسراء والمعراج كان تقنين الصلوات المفروضة بخمس صلواتٍ في اليوم والليلة.

وجاء في الحديث أن النبـــي ﷺ كان يستقبل بيت المقدس عند الصلاة. وقد روى البخاريّ هذا الحديث في صحيحه (2000: (1) 13):

> عن البراء بن عازب أن النبـــي ﷺ كان أول ما قدم المدينة نـــزل على أجداده أو قال أخواله من الأنصار، وأنه صلى قِبَلَ بيت المقدس ستة عشر شهراً أو سبعة عشر شهراً وكان يعجبه أن تكون قبلته قبل البيت وأنه صلى أول صلاة صلاة العصر وصلى معه قوم فخرج رجل ممن صلى معه فمر على أهل مسجد وهم راكعون فقال أشهد بالله لقد صليت مع رسول الله ﷺ قبل مكة فداروا كما هم قبل البيت، وكانت اليهود قد أعجبهم إذ كان يصلي قبل بيت المقدس وأهل الكتاب فلما ولى وجهه قبل البيت أنكروا ذلك.

ويظهر أن الراوي ليس متأكدًا في هذا الحديث من الفترة التي توجه فيها النبـــي إلى بيت المقدس في صلاته، أكانت 16 أو 17 شهرًا. ولكنّ روايات أخرى تحدد هذه الفترة، كالحديث الذي رواه النسائي (2000: (1) 120)، والذي حددها بستة عشر شهرًا. ومن المعروف أن المسلمين شرعوا بأداء الصلوات الخمس المفروضة يوميًا بعد رحلة الإسراء والمعراج، والتي حدثت قبل الهجرة إلى المدينة. ولذا لا بد من معرفة القبلة التي كان عليها المسلمون قبل الهجرة.

جاء في مسند أحمد (1995: (3) 310):

عن ابن عباس قال: (كان رسول الله ﷺ يصلي وهو بمكة نحو بيت المقدس والكعبة بين يديه، وبعد ما هاجر إلى المدينة ستة عشر شهراً، ثم صرف إلى الكعبة).[1]

من الواضح في هذا الحديث أن النبـــي كان يصلي جهة بيت المقدس حين كان في مكة، حيث كان يستقبل بيت المقدس والكعبة المشرفة في آن معًا، أي أنه كان يصلي خلف الركن الجنوبـــي للكعبة، والمعروف بالركن اليماني بحيث يتجه إلى بيت المقدس وتبقى الكعبة أمامه. وهذا يشمل الفترة التي فرضت فيها الصلاة في الإسلام خمس مرات في اليوم، وذلك في رحلة الإسراء والمعراج، واستمرّ ذلك 16 إلى 17 شهرًا بعد الهجرة إلى المدينة.

ويرى فادي الرابـــي (2009: 18) أن "لا دليلَ على حدوث تغيير للقبلة بعد الإسراء والمعراج (لأنّ حدثًا بهذا القدر من الأهمية لا بدّ أن يكون قد دوّن بشكل أفضل)، وأنّ القبلة على الأرجح قبل رحلة الإسراء والمعراج بقيت كما هي بعدها". وهذا يعني أن الصلاة جهة بيت المقدس كانت هي الأصل عند المسلمين، منذ بدء الصلاة في مكة. بناءً على ذلك نصل إلى أن النبـــي ﷺ والمسلمين في ذلك الوقت قد صلوا باتجاه بيت المقدس طيلة 14 سنة أو أكثر، كان منها في المدينة 16 شهرًا تقريبًا، أما البقية فكانت في مكة، أي أن النبـــي ﷺ صلى نحو بيت المقدس أكثر مما صلى نحو مكة المكرمة.

في الوقت نفسه نقول إن السؤال الذي يجب أن يطرح هنا هو: لماذا أُمر النبـــي ﷺ بالصلاة نحو بيت المقدس لأكثر من 14 سنة؟ لا ريب أن النبـــي ﷺ قد توجه إلى بيت المقدس في صلاته بأمر من الله تعالى من بداية الأمر، وهذا ما ورد في القرآن الكريم، حيث يقول الله تعالى: ﴿...وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إلاَّ لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ وَإنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إلاَّ عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾. وهذه الآية الكريمة دليل قطعي على أنّ اتخاذ بيت المقدس قبلةً كان بأمرٍ من الله تعالى.

---

1 وهذا حديث صحيح كما يذكر الهيثمي (ت. 707 للهجرة/1308 ميلادية) في مجمع الزوائد (2001: (2) 88)

لقد كانت الكعبة حسب العديد من المصادر الإسلامية قبلة النبـــي إبراهيم عليه السلام، وهو النبيّ الذي يمثّل أصلاً راسخًا ونقطة مرجعيةً للنبـــي محمد ﷺ وهو أمرٌ يؤكده القرآن الكريم في غير موضع.[1] وربما يفسّر هذا الأمر سبب ذكر القرآن في سورة البقرة لإبراهيم عليه السلام ورفعه قواعد البيت الحرام، للدلالة على الفكرة الكامنة وراء اختيار الكعبة قبلةً المسلمين.

إن التفسير الوارد لآيات تحويل القبلة في التفاسير المختلفة يغفل نقطة مركزية. فهذه التفاسير تعنى بالوقوف على الأسباب التي دعت إلى تغيير القبلة من بيت المقدس إلى مكة المكرمة، كما ورد في الآية رقم 144 في سورة البقرة، من دون الكشف عن الأسباب التي دعت أصالةً إلى اتخاذ بيت المقدس قبلةً أولى للمسلمين.[2] إن السبب الوحيد والممكن لهذا هو أن يصبح بيت المقدس نقطة مرجعية للمسلمين

1 وذلك كقوله تعالى ﴿وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ (النساء: 125)، والحنيفية هي التوحيد الصرف والإيمان بالخالق وحده (انظر خان 1996: 804). وهنالك آيات غيرها في هذا السياق كقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلاَّ مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ...﴾ (البقرة: 130)، وقوله تعالى: ﴿...قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (البقرة: 135). أما في سورة آل عمران، فقد قال تعالى: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلاَ نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (آل عمران: 67–68)، وقوله في السورة نفسها ﴿قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا...﴾ (آل عمران: 95). وجاء في سورة الأنعام: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (الأنعام: 161). وفي سورة النحل: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا...﴾ (النحل: 123)، وفي سورة الحج: ﴿...مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ...﴾ (الحج: 78)، والعديد غيرها من الآيات في القرآن الكريم، والتي تظهر أن النقطة المرجعية من الأنبياء السابقين في الإسلام بشكل عام هو النبـــي إبراهيم.

2 لقد كان سيد قطب (1996: (1) 132) المفسر الوحيد الذي طرح السؤال بصورة معكوسة، إذ بحث عن السبب الذي دعا إلى اتخاذ بيت المقدس قبلة في المقام الأول، مع أن رأيه في المسألة يعتمد على أن الكعبة قد كانت قبلةً للمسلمين قبل الهجرة، ثم تغيرت القبلة نحو بيت المقدس بعد الهجرة، ومن ثم عادت مكة مرة أخرى لتكون قبلة المسلمين بعد الهجرة إلى المدينة، حيث يرى سيد أن التحول عن القبلة الأولى، وهي الكعبة حسب رأيه، إلى بيت المقدس، كان اختبارًا للمؤمنين مع النبـــي ﷺ والذي كانت الكعبة في وجدانهم رمزًا وطنيًا. ولكنّ هذا الرأي غير دقيق، فالأدلة والمصادر تشير إلى أن النبـــي ﷺ قد صلى نحو بيت المقدس حيث كان في مكة قبل الهجرة، وهذا الرأي الذي عرضه قطب في تفسيره يخالف العديد من المصادر والروايات التي تؤكد أن الصلاة في مكة كانت نحو بيت المقدس كما أوضحنا.

جميعًا وذلك من خلال إقامة هذه الصلة الروحية العميقة والفعلية بينهم وبين هذا المكان، و لم يكن ليتحقق ذلك فعلاً سوى بالصلاة، وهي كفيلة بجعلهم يدركون أهمية تلك المنطقة وقيمتها في الإسلام.

كان مشركو مكة يدعون أنهم يرتبطون بعلاقة دينية بالنبـــي إبراهيم عليه السلام، لذا يمكن أن يقول البعض إنه كان أجدرَ بالنبـــي ﷺ أن يتوجه في صلاته إلى الكعبة منذ بداية بعثته، لا إلى بيت المقدس، فمحمد ﷺ قد نشأ وعاش في هذا المجتمع الذي يقدّس الكعبة ويجلّها، ولذا لم يكن من المفترض عقلاً أن يستقبل بيت المقدس. حتى أنّ النبـــي ﷺ حين هاجر إلى المدينة، والتي كانت تضم قبائل من اليهود، كان يشاركهم القبلة التي هي من أهم شعائر الدين، ثم توجه إلى الكعبة التي لا يقدسونها، ولكنّه لم يتوجّه إلى الكعبة في مكّة. الحاصلُ هنا أنّ الادّعاء بأن محمدًا ﷺ كان يسعى في قضية القبلة لكسب تعاطف اليهودِ أو أهلِ مكةَ ادعاءٌ باطل، فلو كان النبـــي ﷺ يحاول استمالة أحد الفريقين إليه لكان استقبل الكعبة وهو في مكة، ومن ثم تحوّل إلى بيت المقدس حين هاجر إلى المدينة.

كل ما في الأمرُ إذن أنه كان يجب على المسلمين التوجه في صلاتهم كل يوم نحو بيت المقدس ولفترة طويلة من أجل ترسيخ علاقة دينية مقدّسة بينهم وبين بيت المقدس، علاقةٍ ستتجلّى لتصبح أهمّ الدوافع لدى المسلمين بعد سنوات للتوجه لفتح المدينة وما حولها. وبما أنّ الأمرَ في استقبال بيت المقدس في الصلاة كان وحيًا من الله تعالى إلى نبيّه ﷺ، فإنّ الله تعالى هو من أراد لهذا الارتباط أن يتمّ بين نبيه والمسلمين وبين تلك البقعة المباركة من الأرض، تمامًا كما كان القصد من تنـــزيل سورة الروم في القرآن الكريم. لقد كانت الصلاة نحو بيت المقدس بكل وضوح إحدى أهمّ الخطوات التي ربطت المسلمين ببيت المقدس ورسّخت المكانة الشريفة لتلك المنطقة.

رحلة الإسراء والمعراج

تمّ الاتصال المباشر لأوّل مرةٍ بين النبـــي محمدٍ ﷺ وبيتِ المقدس بعد نبوّته خلالَ رحلة الإسراء وما تلاها من عروجٍ إلى السماء. ويمكن أن تُعدّ رحلة الإسراء إحدى أهمّ الأحداث في سيرة النبـــي ﷺ فيما يرتبط بعلاقته ببيت المقدس. ولا بد

من الإشارة هنا إلى أن رحلة الإسراء قد حدثت والنبيّ ﷺ يمرّ بإحدى أقسى المراحل في بعثته.

يرى عبد الفتاح العويسي (2006: 48–49) أنّه من الممكن أن تعدّ هذه الرحلة نقطة البدء لخطة النبـــي محمّد لفتح بيت المقدس، ولعلّه كان من الممكن أن يتطوّر هذا الرأي ليفسّرَ أهميةَ هذا الحدث بحد ذاته، أي بيان وقت الرحلة، والوقائع التي حدثت في تلك الليلة، وأثر تلك التجربة بأسرها على حياة محمّد وبعلاقته ببيت المقدس.

ويذكر ابنُ سعد (ت. 230 ه/895م) (1997: (1) 164–165) ثلاثَة حوادث أساسية وقعت خلال العهد المكيّ من نبوّة محمّد ﷺ والتي دفعته لترك مكةَ إلى الطائف طالبًا النصرة. وأول هذه الحوادث أنّ النبـــي ﷺ وقبيلته (بني هاشم) والمسلمين قد عانوا عنتَ المقاطعةِ في شِعَب أبـــي طالب، إذِ استمرت هذه المقاطعة بضع سنين. تلا ذلكَ وفاةُ أبـــي طالب عمّ النبـــي ﷺ ووفاة زوجه خديجة رضي الله عنها، حيث لم يفصل بين وفاة عمه وزوجه سوى شهرين (انظر المباركفوري 1996: 124).

ويشير كلٌّ من المباركفوري (1996: 124) والعويسي (2006: 44) إلى أن أبا طالب كان يعدّ ظهيرًا للنبـــي ﷺ، أمّا خديجة رضي الله عنها فقد كانت سنده المعنويّ والماديّ معًا. فقد كانت خديجة تسلّيه ﷺ خلال أوقات الشدّة في مكّة. وتعني خسارة هذين المصدرين من المؤازرة أنّ محمدًا ﷺ بات أكثر ضعفًا من الناحية السياسية والمعنوية. ولعل هذا ما دفع ابن إسحاق (ت. 151 ه/768 م) ليقول إنه وبعد هذه الخسائر الكبيرة، عَمِدت قريش إلى إلحاق الأذى به أكثر من أي وقت مضى (انظر ابن إسحاق 2004: 270–271)، ولعل هذا أيضًا ما جعل ذاك العام يعرف باسم "عام الحزن" (المباركفوري 1996: 126).

تبع ذلك زيارةٌ للنبـــي محمّد ﷺ إلى الطائف لم يكتب لها النجاح، بعد أن سعى لدعوة أهلها إلى الإسلام وطلب النصرة من قادها، وهم ابن عبد ياليل بن عبد كلال، ومسعود بن عمر، وحبيب بن عمر. وما كان من سادة الطائف إلا أن قابلوا دعوة النبيّ ﷺ بالرّفض وطردوه من بلادهم، وحرّضوا أهل المدينة على رميه بالحجارة وإهانته (انظر ابن هشام 2005: (2) 16–17). لقد كانت الظروف

التي سبقت رحلة الإسراء أقسى ما تعرّض له النبـــي ﷺ، كما يقرّ ذلك هو نفسُه بعد سنوات في حديثٍ أورده البخاري (2000: (2) 632–633)

تروي عائشة رضي الله عنها أنها سألت النبيّ ﷺ: "هل أتى عليك يوم أشد من يوم أحد؟ قال: لقد لقيت من قومك ما لقيت، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة[1]، إذ عرضت نفسي على ابن عبد ياليل بن عبد كلال[2]، فلم يجبني إلى ما أردت، فانطلقت وأنا مهموم على وجهي، فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب، فرفعت رأسي، فإذا أنا بسحابة قد أظلتني، فنظرت فإذا فيها جبريل، فناداني فقال: إن الله قد سمع قول قومك لك، وما ردوا عليك، وقد بعث الله إليك ملك الجبال، لتأمره بما شئت فيهم، فناداني ملك الجبال فسلم علي، ثم قال: يا محمد، فقال: ذلك فيما شئت، إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين[3]؟ فقال النبـــي ﷺ: بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده، لا يشرك به شيئا.

وبعد معالجة هذا الأذى في الطائف، توجّه النبـــي ﷺ إلى الله بدعاء تجلّى فيه ذلك الحزن العميق الذي حلّ به، وقد ورد هذا الحديث عند ابن هشام (ت. 218 هـــ/834م) (2005: (2) 17) بهذا اللفظ:

اللهم إني أشكو إليك ضعف قوتي، وقلة حيلتي، وهواني على الناس يا أرحم الراحمين، أنت رب المستضعفين وأنت ربـــي، إلى من تكلني؟ إلى بعيد يتجهمني؟ أم إلى عدو ملَّكته أمري؟ إن لم يكن بك عليَّ غضب فلا أبالي، ولكن عافيتك هي أوسع لي، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة، من أن تُنـــزِلَ بـــي غضبَك، أو يحل عليَّ سخطك، لك العتبى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بك.

1 العقبة هنا مكان على الطريق نحو الطائف وليس المقصود بالعقبة هنا بيعة العقبة المعروفة في السيرة النبوية والتي حدثت بعد رحلة الإسراء والمعراج.

2 يوضح العسقلاني (ت. 852 للهجرة/1449 ميلادية) (1997: (6) 379) أن ابن عبد ياليل الوارد ذكره في هذا الحديث كان أحد زعماء الطائف.

3 الأخشبان جبلان في مكة، وهما جبل أبو قبيس وجبل القعيقعان (المباركفوري 1996: 138).

يرى الباحث أنّه لولا وصول النبـــي ﷺ إلى تلك الدرجة من الإحباط، لما أقدمَ على ترك مكة، التي بقي فيها فترة طويلةً حين كان عمّه أبو طالب يوفّر له الدعم. أما بعد وفاة أبـــي طالب، فيبدو أن النبـــي ﷺ قد فقد الأمل في مكّة. ولعلّه شعر أيضًا أنّ حياته معرضة للخطر، وهذا يفسّر سبب نـــزوله في جوار أحد أكبر رجالات مكة، المِطعم بن عديّ، لدى عودته من الطائف. كل هذه الظروف قد سبقت رحلة الإسراء، ولذا يمكن النظر إلى هذه الرحلة على أنها استجابةٌ لتظلّم النبيّ محمّد ﷺ ومواساة له.

وقد وقعت رحلة الإسراء على الأرجح في 27 رجب من السنة 12 للبعثة، أي في العام الثاني قبل الهجرة/621 للميلاد (انظر نور 2006: 16). ويرى العديد من العلماء أن بداية نبوّة محمد ﷺ كانت في شهر رمضان، أي في السنة 13 قبل الهجرة (انظر ابن إسحاق 2004: 173، وابن هشام 2005: (1) 172). وقد توفي النبـــي ﷺ في 12 ربيع الأول للعام 11 بعد الهجرة (انظر ابن كثير 1966 (4) 507)، وهذا يعني أن النبوّة كلها قد امتدت على فترة 22 سنةً و6 أشهر في التقويم القمري. وتكون نصف هذه الفترة 11 سنة و3 أشهر. ولو حسبنا هذه المدّة من بداية بعثة محمّد ﷺ، فإن منتصف مدّة نبوّته ستكون في شهر ذي الحجّة في السنة الثانية قبل الهجرة. أي أن رحلة الإسراء قد حدثت قبيل منتصف فترة نبوّة محمد ﷺ، وهنا نشير إلى ما طرحه أحمد إسماعيل نوفل من أن رحلة الإسراء قد تمّت في قلبِ نبوّة النبـــي ﷺ، وهذا يتوافق مع السورة 17 من القرآن (سورة الإسراء)، وهي السورة التي يرد ذكر رحلة الإسراء فيها. وهذا السورة، وفق ما يرى نوفل[1]، تقع في قلب القرآن. ولتحليل ذلك وتدقيقه نقول إن نقطة النصف في

---

1 لقد سمعت هذا الرأي من الدكتور أحمد إسماعيل نوفل للمرة الأولى في الجامعة الأردنية عام 1997، وسمعته منه مرة أخرى في مكالمة هاتفية معه في تاريخ 2008/1/26. ويدعي بعض الأكاديميين والمستشرقين مثل لازاروس-يافيه (1990: 39) وبيترز (1995: 183) وبوز (1991: 3) أن كلمة "المسجد الأقصى" في هذه الآية لا تعني بالضرورة المسجد الأقصى في القدس، بل يذهب بوز (1991: 3) إلى أبعد من ذلك ويقترح أن هذه الآية تشير إلى مسجد في الجعرانة قرب مكة، أو إلى مسجد في الجنة. ولكنّ الأحاديث العديدة التي وردت في هذا الشأن لا تترك مجالاً للشك في أنّ المسجد المذكور في الآية هو المسجد الأقصى في القدس. وقد كان يشار إلى هذا المسجد في ذلك الوقت باسم بيت المقدس

القرآن الكريم في الحقيقة تقع تمامًا في سورة الكهف[1]، وهي تأتي مباشرة بعد سورة الإسراء. أي أنّ سورة الإسراء تأتي قبيل منتصف القرآن، وهذا يتوافق تمامًا مع الوقت الذي جرت فيه حادثة الإسراء في نبوّة محمّد ﷺ.

وقد ورد ذكر ترتيب أحداث رحلة الإسراء في العديد من الأحاديث، وأحد أكثر هذه المصادر موثوقية ما ورد في صحيح الإمام مسلم (ت. 261 بعد الهجرة/875 ميلادية) (2000: (1) 82):

> عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: أتيت بالبراق وهو دابة أبيض طويل فوق الحمار ودون البغل يضع حافره عند منتهى طرفه، قال فركبته حتى أتيت بيت المقدس، قال فربطته بالحلقة التي يربط به الأنبياء، قال ثم دخلت المسجد فصليت فيه ركعتين، قم خرجت فجاءني جبريل عليه السلام بإناء من خمر وإناء من لبن فاخترت اللبن فقال جبريل ﷺ اخترت الفطرة، ثم عرج بنا إلى السماء.... الحديث.[2]

(انظر ابن إسحاق 2004: 309). كما تذكر العديد من الأحاديث كذلك أن بيت المقدس هو المكان الذي سرى إليه النبـــي ﷺ في رحلة الإسراء والمعراج، كالحديث الذي رواه مسلم (2000: (1) 88089). ونرى أن هذا الخلط سببه اعتماد أولئك الكتاب على النص القرآني وحسب من دون النظر في النصوص النبوية، مع أنّه لا بد من الأخذ بنصوص القرآن والحديث الصحيح كمصادر أساسية في الدراسات الإسلامية.

1 إن النقطة التي ينتصف عندها القرآن باعتبار الكلمات هي كلمة "وليتطلف" في سورة الكهف، الآية رقم 19. وهذا رأي معظم المفسرين (انظر الشبكة الإسلامية: www.islamweb.net/ver2/Fatwa/ShowFatwa.php?lang=A&Id=65007&// Option=FatwaId، تاريخ الرجوع إلى الموقع: 1-10-2006). أما باعتبار الحروف، فهي حرف النون في كلمة "نكرًا" في سورة الكهف كذلك، الآية رقم 74 (انظر ابن عطية 2001: (3) 532). أما ابن عاشور (ت. 1393 للهجرة/1973 ميلادية) فيرى أن منتصف القرآن الكريم باعتبار الحروف يقع عند حرف (التاء) في كلمة وليتلطّف في السورة نفسها في الآية رقم 19. (انظر الشبكة الإسلامية: http: //www.islamweb.net/ver2/Fatwa/ShowFatwa.php?lang=A&Id=65007& Option=FatwaId، تاريخ الرجوع إلى الموقع: 1-10-2006).

2 ورد هذا الحديث بروايات عديدة تختلف في بعض تفاصيلها، كموضع انطلاق الرحلة واتجاهها وغير ذلك، ولم نتعرض لهذه الروايات والاختلافات الطفيفة بينها إلا في السياق الذي يعنينا في هذا الكتاب.

وهناك روايات أضعف، بعضها يقترب مما ورد في الحديث السابق، وبعضها يشتمل على اختلافات طفيفة عن رواية مسلم. وقد ورد ذكر هذه الروايات عند بعض علماء الحديث مثل أحمد وأبـــي داود (ت. 275 بعد الهجرة/ 888 م)، والنسائي (ت. 303 بعد الهجرة/916 م)، وابن ماجه (ت. 273 بعد الهجرة/887 م). ويظهر في هذه الروايات المتعددة أن مدة الزيارة للمسجد الأقصى كانت قصيرة نوعًا ما، واشتملت على حدثين أساسيين: أولهما كان صلاة النبـــي محمد ﷺ داخل المسجد الأقصى، وعلى الأخص صلاته بالأنبياء إمامًا، وثاني هذين الحادثين هو اختياره اللبن حين خُيِّرَ بينه وبين الخمر.

إنّ الصلاة في المسجد الأقصى أمر مهمّ ذو دلالة؛ فالنبـــي ﷺ لم يصلِّ قطّ خارج شبه جزيرة العرب قبل رحلة الإسراء ولا بعدها، فلماذا صلى النبـــي ﷺ في المسجد الأقصى ولم يصلِّ في مكان غيره خارج شبه الجزيرة العربية.[1] أليس في هذا بيانًا بأنّ تلك الصلاة قد كانت إعلانًا للصلة التي تربط محمدًا ﷺ، وكذا المسلمين، ببيت المقدس؟ كما تجدر الإشارة هنا إلى أن النبيّ ﷺ لم يذكر ما إذا كانت تلك الصلاة أمرًا من الله أو كانت مجرد اختيار شخصي من قبله. بيد أنّه لا بدّ أن هذه القضية قد كانت واضحة للنبـــي ﷺ حتى لو يكن قد أُمر بالصلاة هناك. فقد عرف النبـــي ﷺ أن المسجد الأقصى مكان مقدّس، ولذا فإنه قد صلى فيه كفعلٍ طبيعي لدى دخوله مسجدًا.

أما إمامتُه النبيين في الصلاة في المسجد الأقصى فهو حدث مهم وذو مغزى. ففيه دلالة على أن النبـــي محمدًا ﷺ وارث النبيين من قبله وأنه قائد البشرية جمعاء. وإمامته للعديد من الأنبياء من مختلف الخلفيات والأصول، وفي بيت المقدس على الخصوص، يمثل الطبيعة العالمية لبيت المقدس والنظرةَ الكونية التي تكتنفه. لم يحصل للنبـــي ﷺ أن صلى بالأنبياء في مكة، رغم أنها تمثّل بؤرة الإيمان لدى المسلمين، ولكنه صلى بهم في بيت المقدس، والذي يمثل بؤرة اهتمام العالم. وينظر

---

1 تورد بعض الروايات الضعيفة عن رحلة الإسراء أن النبـــي ﷺ قد صلى في تلك الليلة في سيناء أو مدين وفي بيت لحم (انظر ابن كثير 1994: (3) 21–22)، ولكن معظم العلماء يردون هذه الروايات لضعفها. كما أن هناك حديثًا آخر أكثر صحةً يدل على أنّ النبـــي ﷺ إنما صلى في المسجد الأقصى في تلك الرحلة.

العويسي (2006: 46) إلى هذا الحدث من جانب مثير للاهتمام، إذ يقول: "إن النبـــي محمد لم ينتقل إلى بيت المقدس في رحلة الإسراء وحسب، بل رُتّب له لعقد قمّة من نوع خاص مع الأنبياء في بيت المقدس". إن هذا الاجتماع بالأنبياء كان أمرًا مميزًا كيفما نظرنا إليه، في مكانه، وتوقيته، وجمهوره. مثل هذا الحدث لم يسبق له مثيلٌ من قبل في تاريخ البشرية. وهذا يمنح بيت المقدس منـــزلة خاصة من دون جميع البقاع المقدسة في المعمورة ويمثل أهمية خاصة لتلك المنطقة.

إن رحلة الإسراء قد كانت بحق نقطة فارقة في حياة النبـــي ﷺ. فقد تحمّل النبـــي المهانة والمشقّة في بداية نبوّته، وكانت تلك المعاناة قد وصلت مداها قبيل رحلة الإسراء. وفي الوقت ذاته، فإن رحلة الإسراء كانت بداية التغيير في حياة النبـــي محمد ﷺ، إذ تحقق له بعد رحلة الإسراء ما كان يرجوه حين استقبله أهل يثرب (والتي صارت تعرف بالمدينة) وبدأ هناك دولة المسلمين الأولى.

لقد كانت هذه الرحلة عنصرًا مهماً في تكوين رؤية وفهم النبـــي ﷺ، ليس لأهمية بيت المقدس فحسب، بل للحاجة للتخطيط لفتح بيت المقدس. لقد بدأ النبـــي ﷺ مرحلة جديدة مباشرةً بعد رحلة الإسراء؛ ويمكن تلخيص هذه المرحلة بوصفها التخطيط العملي لمستقبل هذه المهمة. ويلاحظ أثناء دراسة السيرة، أن النبـــي ﷺ قد بدأ عهدًا جديدًا من نشر رسالته، وذلك باتخاذ خطوات عملية لبناء دولة تمثّل مصدرًا لقوّة المسلمين. وقد بدا ذلك جليًا في بيعة العقبة الثانية بعد رحلة الإسراء. لقد كانت تلك البيعة خطوة عملية خطاها النبـــي ﷺ في طريق بناء دولة حقيقية ووضع خطة عملية تتناول الجوانب السياسية والاجتماعية والمالية والدبلوماسية والعسكرية للدولة الإسلامية الناشئة.

الخلاصة

كانَ بيت المقدس في مطلع بعثة النبـــي ﷺ مسرحًا لأحداثٍ قاسيةٍ وحروب طاحنة بين أكبر قوتين في ذلك الزمان. فاحتلَّ بيت المقدس وسفكت دماء كثيرة في المجازر التي ارتكبت على أرضه. وفي تلك الأوقات العصيبة، شهدت الدنيا ميلاد دينٍ جديد. لقد جاء ذكر هذه البقعة المباركة في السور الأولى من القرآن الكريم، وارتبط المسلمون بهذه الأرض منذ البداية، وهذا ما جعل تلك المنطقة تتنفس

الصعداء لأول مرة، إذ تجدّد الأمل في أن تشهد عصرًا جديدًا يمسح عنها ما تعانيه من حروب ودمار. لقد كان بيت المقدس بحاجة لفسحة الأمل هذه في تلك الظروف العصيبة، وهذا ما تحقق في السور الأولى من القرآن الكريم ولاسيما في سورة الروم، التي أكّدت لبيت المقدس أن النصارى سيعودون إليه، وأنّ ذلك سيفرح المؤمنين؛ وهذه إشارةٌ إلى أنّ أمّة أخرى بعد ذلك ستأتي إلى تلك المنطقة وتفتحها ليشيع فيها الاستقرار والطمأنينة من جديد. أمّا النبـــي ﷺ فقد توجّه نظره وقلبه إلى تلك البقعة منذ بدء تنـــزّل الوحي عليه، وذلك لأهميتها في الإسلام وما كانت تشهده من ظروف صعبة في ذلك الزمان.

إن سورة الروم من أوائل السور التي تنـــزلت على النبـــي ﷺ، ومن أول ما تنـــزل عليه بعد انتهاء مرحلة الدعوة السرية في الإسلام، وهي في الوقت نفسه من الأدلة الواضحة على التوجيه الرباني اهتمامَ النبـــي ﷺ إلى منطقة بيت المقدس في مرحلة مبكرة من الدعوة. فهذه السورة قد اشتملت على أول إشارة في تاريخ الإسلام تلمّح إلى فتح بيت المقدس. ولا بدّ أن هذا الارتباط الروحي المبكر مع بيت المقدس والذي تجلّى صراحة في القرآن الكريم سيتبعه ارتباط فعليّ بين النبـــي ﷺ وبيت المقدس، وذلك من أجل وضع فهمٍ شامل لطبيعة هذه المنطقة ومكانتها.

إن الصلاة نحو بيت المقدس كانت بمثابة تواصل يومي بين النبـــي ﷺ وأتباعه وبين بيت المقدس، إذ صارت هذه البقعة مركزية في حياة المسلمين، إذ كانت هي القبلة التي يجب على المسلمين جميعًا استقبالها للتوجّه إلى ربّهم، وهكذا يظهر أن أمرَ المسلمين للصلاة نحو بيت المقدس أمر يقع في صلبِ قضية الصلاة في تلك الفترة.

أما إسراء النبـــي ﷺ إلى المسجد الأقصى في قلب بيت المقدس فقدكان أمرًا ضروريًا لرؤية المنطقة عيانًا واستشعار خصوصيتها. إن رحلة الإسراء هذه كانت اللقاء المباشر الأول والوحيد للنبـــي ﷺ بالمسجد الأقصى في بيت المقدس، وكانت نقطة تحول بين مرحلتين تاريخيتين، إذ كانت هذه الزيارة الخطّ الفاصل بين مرحلة الابتلاء ومرحلة النصر. إن رحلة الإسراء تعدّ بحقّ نقطة التحول الأساسية في حياة النبـــي ﷺ، إذ انتقلت به هذه الرحلة إلى مرحلة جديدة حيث تفتّحت

عيناه ﷺ نحو نقطة بداية جديدة. ولا عجب إذن أن تكون سورة الإسراء قبيل منتصف القرآن، تمامًا كما وقع هذا الحدث نفسه قبيل منتصف بعثته ﷺ.

ويبدو أن العلاقة بين النبـــي ﷺ وبيت المقدس كانت قائمة على أساس دينيٍّ متين، ولكنّه ﷺ كان يعرف طبيعة منطقة بلاد الشام بشكل عامٍ حتى قبل بعثته، إذ زارها عدة مرات مع قوافل التجارة (انظر ابن إسحاق 2004: 122 و128)، مما ساعده فيما بعد على فهم المنطقة وأهميتها على مستويات متعددة، دينية وسياسية واقتصادية وغيرها.

بقي أن نشير إلى أنّ الآيات القرآنية تذكر هذه المنطقة وتخبرنا بأمور ستقع فيها، كما أن الصلاة كانت نحو بيت المقدس وأسري بالنبـــي ﷺ إليها، ولهذا كلّه أثرٌ على الأجندة التي سيجلبها الإسلام إلى المنطقة بأسرها، وكان لهذا أثر عظيم على مستقبلها، وتكلّل نهاية بفتح المسلمين لبيت المقدس بعد عدة سنوات. كل هذه الأحداث، وفي مقدمتها رحلة الإسراء والصلاة، كانت تجليات واقعية لهذه الخطة. وفي ضوء هذا كله يسعى الكاتب في الفصول القادمة إلى تفسير هذه المكانة الخاصة لبيت المقدس من خلال تحليل الخطوات العملية نحو فتح بيت المقدس، ابتداءً من النصوص والوثائق التي تربط المسلمين بهذا المكان، وما تبع ذلك من تحركات عسكرية قام بها النبـــي ﷺ ضمن خطته لتحقيق الفتح الإسلامي لبيت المقدس.

الفصل الثاني

الوثائق الأساسية

مقدمة

تلعب الوثائق التاريخية دورًا مهمًّا في إثبات أو نفي وجود خطة لفتح بيت المقدس لدى النبـــي محمّد ﷺ. ويتطرق هذا الفصل إلى العديد من الوثائق الأساسيّة التي تعود إلى عهد النبـــي ﷺ، والتي قد تساعد في دراسة الفرضية المتعلقة بخطة فتح بيت المقدس. وسنتناول هنا ثلاثة أصناف من الوثائق هي: الرسائل الدبلوماسية، والإقطاعات، والمعاهدات السياسية أو عهود الأمان، حيث يحللها الكاتب ويوظفها لفهم العلاقة بين النبـــي ﷺ وبيت المقدس. كما يمكن لهذه الوثائق أن توضّح لنا طبيعة هذه العلاقة وما إذا كان من الممكن النظر إليها كخطّة لفتح تلك المنطقة.

الوثائق المتعلقة بالبحث

سننظر في هذا الفصل في العديد من الوثائق التي تعود إلى عهد النبـــي ﷺ، وقد جمعها محمّد أحمد حميد الله (1987) وصنفها تصنيفًا زمنيًا وفق الآراء المختلفة لعلماء السيرة. إلا أنّ التركيز لدينا هنا ينصبّ بطبيعة الحال على الوثائق المتعلقة ببيت المقدس بشكل مباشر أو بالمناطق القريبة جدًا من بيت المقدس، وهنالك معايير خاصة لاختيار هذه الوثائق يمكن تلخيصها في النقاط التالية.

أولاً، سنتناول تلك الوثائق المتعلقة ببيت المقدس فقط، أو المنطقة التي تفصل بينها وبين المدينة المنورة، أي الطريق الشمالي الغربـــي بين المدينة المنورة وبيت المقدس[1]. وعليه تخرج المعاهدة بين النبـــي ﷺ وأهل دومة الجندل[2] مثلاً من إطار هذه الدراسة.

---

1 وهذه الطريق تضم العديد من المناطق فيها كالأجزاء الجنوبية من البلقاء ووادي القرى، كما تشتمل على مدن معان وأذرح وأيلة ومقنا وخيبر وغيرها من المدن والقرى.

2 تقع دومة الجندل في المنطقة التي تعرف الآن باسم الجوف في المملكة العربية السعودية. ويعمد بعض الباحثين كالأشقر (2006: 40) إلى جعل هذه المنطقة داخلة في دراسة تحركات النبـــي ﷺ باتجاه الشام. ولكنّ هذه المنطقة تقع في واقع الأمر على الطريق الواصل إلى العراق وبصرى الشام لا إلى بيت المقدس (انظر أبو خليل 2002: 28). إضافةً إلى ذلك، فقد تبين لي عند دراسة المعاهدة مع دومة الجندل والنظر فيها، بالإضافة إلى دراسة تحركات جيش المسلمين نحو بيت المقدس، أنها لم تلعب أي دور في حملات المسلمين لفتح بيت المقدس.

ثانياً، يجب أن تكون هذه الوثائق مما يمكن تحديد نصوصها أو مضمونها في المصادر التاريخية، فللنص أهمية كبرى في تحليل روح الوثيقة والتأكد من أهميتها في نطاق الدراسة. وبناءً على ذلك فقد استثنيت بعض الوثائق كرسالتَي النبـــي ﷺ إلى جبلّة بن الأيهم الغساني وإلى شرحبيل بن عمرو الغساني إذ لا وجود لنص هذه الرسائل في المصادر التاريخية.

ثالثاً، سنقتصر على دراسة الوثائق التي كتبت بمبادرة من النبـــي محمد ﷺ لأن ذلك ما يكشف عن حقيقة استراتيجيته في هذا الصدد، ولذلك لم تتم دراسة رسالة النبـــي ﷺ إلى فروة الجذاميّ رضي الله عنه لأنها لم تكن إلا ردًا على رسالة فروة.[1]

وأخيراً، وفيما يتعلق بالوثائق السياسية التي تعدّ اتفاقيات تعاون سياسية أو العُهدات تحديداً، فسنتناول وثائق تنطبق عليها شروط محددة تساعد في فهم استراتيجية النبـــي ﷺ. كتلك العهدات غير المشروطة على المستفيدين من الوثيقة، لذلك لم تتم دراسة وثيقة النبـــي السياسية إلى بني غَدِيًّا على سبيل المثال.

وهكذا يكون لدينا وفق هذه المعايير سبع وثائق توضح استراتيجية النبـــي ﷺ في هذا السياق، وهذه الوثائق هي إقطاع النبـــي ﷺ إلى أبـــي ثعلبة وإلى بني جفال وإلى تميم الداري، بالإضافة إلى كتابه إلى هرقل، ووثائق الصلح مع أهل أيلة ومقنا وأذرح وجرباء[2]. هذه هي الوثائق السبع التي تتماشى مع المعايير التي

---

1 أرسل فروة الجذامي رضي الله عنه كتابًا إلى النبـــي ﷺ يخبره فيه أنه دخل في الإسلام، فأجابه النبـــي ﷺ مباركًا ما قام به ومؤيدًا له. وفيما يلي نص الرسالة كما وردت عند ابن سعد (1997: (1) 215):
منْ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ إِلَى فَرْوَةَ بن عَمْرو أَمَّا بَعْدُ فَقَدْ قَدِمَ عَلَيْنَا رَسُولُكَ وَبَلَّغَ مَا أَرْسَلْتَ بِهِ وَخَبَّرَ عَمَّا قِبَلَكُمْ وَأَتَانَا بِإِسْلامِكَ، وَأَنَّ اللَّهَ هَدَاكَ بِهُدَاهُ إِنْ أَصْلَحْتَ وَأَطَعْتَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَأَقَمْتَ الصَّلاةَ وَآتَيْتَ الزَّكَاةَ"
وما كان من البيزنطيين حين علموا بإسلام فروة إلا أن قتلوه رضي الله عنه.

2 لقد قمت بدراسة طبيعة هذه الوثائق الثلاث بشكل خاص من أجل تحديد ما إذا كان يمكن النظر إليها باعتبارها معاهدات، كما كان في صلح الحديبية، ووجدت أنه لا يمكن أن تعدّ هذه الوثائق معاهدات سياسية لأنها لم تكن بين طرفين متعادلين في القوة، وإنما كانت عهدًا من النبـــي ﷺ أسبغه على أهل تلك المدن أو قادتها. فنرى أن هذه الكتب تبدأ باسم النبـــي ﷺ وتذكر أنّ عهدًا بالأمان قد منح لأهل المدينة المعنية، من دون ذكر لأحكام أو شروط مفروضة على المسلمين. وهذا يعني أنّ النبـــي ﷺ قد منحهم هذا العهود من دون ضغط ولا مفاوضات، بخلاف ما حدث في الحديبية. ولهذا نستخدم هنا مصطلح معاهدات الأمان أو وثائق الصلح للإشارة إلى هذه الوثائق.

حددناها والتي من شأنها أن ترسم صورة واضحة لخطة النبـــي ﷺ واستراتيجيته بشأن بيت المقدس.

أولاً: الإقطاعات

الإقطاع يعني في هذا السياق منح شخصٍ أو مجموعة من الأشخاص ملكيةً دائمة لشيء ما، كقطعة أرض مثلاً، وهكذا فإن الإقطاع يختلف عن الوقف لغة واصطلاحًا.[1] ويرى الناظر في سيرة النبـــي ﷺ أنّه قد قام ﷺ بمنح العديد من الأراضي للعديد من الأشخاص في مناسبات مختلفة، معظمها كانت في مناطق خاضعة لسيطرة المسلمين، باستثناء حالات ثلاثة كانت متعلقة ببيت المقدس والمنطقة المجاورة له. إحدى هذه الحالات كانت في أرض في بلاد الشام منحها النبـــي ﷺ لأبـــي ثعلبة، وأخرى إلى الجنوب من بيت المقدس منحها ﷺ لبني جفال، والثالثة كانت لتميم الداريّ رضي الله عنه في بيت المقدس.

إقطاع أبي ثعلبة

يروي الإمام أحمد بن حنبل في مسنده (1995: (13) 478) حديثًا عن قصة أبـــي ثعلبة الخُشَنِي رضي الله عنه جاء فيه:

> عن أبـــي ثعلبة الخشني قال: أتيت النبـــي ﷺ فقلت: "يا رسول الله، اكتب لي بأرض كذا وكذا بأرض الشام، لم يظهر عليه النبـــي ﷺ حينئذ". قال النبـــي ﷺ: "ألا تسمعون إلى ما يقول هذا؟" فقال أبو ثعلبة: "والذي نفسي بيده لتظهرن عليها" قال فكتب له بها.[2]

---

1 يختلف مصطلح الإقطاع عن مصطلح الوقف في أن الأول يعني منح قطعة من الأرض لمصلحة شخص ما وجعله مالكًا لها، أما الوقف فهو نـــزع مفهوم الملكية من الإنسان وجعله ملكًا لله تعالى (انظر قحف 2000: 62). لكن هذا لا يؤثر على الدراسة التي نحن بصددها، وذلك لأن الوقف المذكور، وهو وقف تميم الداري رضي الله عنه يعدّ وقفًا ذريًّا، أي أن منفعته تؤول إلى ذرية تميم من بعده، ولكنّه لا يحق له بيعه (انظر قحف 2000: 114-115).

2 حديث صحيح

وقد وردت هذه القصة برواية أخرى عن أبـــي عبيد[1] (ت. 224 للهجرة/838 ميلادية) في كتابه *الأموال* (1986: 287–288). حيث تشير هذه الرواية إلى أن قول النبـــي ﷺ للصحابة: "ألا تسمعون إلى ما يقول هذا؟" هو دلالة على تقبل طلب أبـــي ثعلبة وانشراح صدره له، وهذا يوضّح أن النبيّ ﷺ قد وافق على الإسهام له بتلك الأرض.

إلا أنه لم يرد ذكر لتاريخ هذا الإقطاع ولا لمكانه المحدد في هذه الرواية، ولكنه على العموم يقع في منطقة الشام، في بيت المقدس أو بجوار بيت المقدس، والتي تحتل مساحة كبيرة من الشام كما هو معلوم. لقد كان لهذا الإقطاع أهمية كبيرة رغم أنه لم يرد نصّ كتاب به، كما هو واضح في الرواية، وكما يؤكّد ذلك حميد الله نفسه في كتابه (1987: 134).[2]

إقطاع بني جفال

يذكر الأشقر (2006: 46–48) وحميد الله (1987: 281) أن النبـــي ﷺ قد قدم إقطاعًا آخر لبني جفال الجذاميين[3]، والذين كانوا يقطنون الشام، حيث أعطاهم النبـــي ﷺ "إِرَم"، وهو جبل من منطقة حِسمى[4] (الحموي 1990: (1) 185). وقد أورد الدَّيْبُلِي (ت. 322 للهجرة/934 ميلادية) نصًا مكتوبًا بهذا الإقطاع (انظر ابن طولون 1987: 148–149)[5]، كما ذكرها الحموي في كتابه (1990: (1) 185):

---

1 يعدّ أبو عبيد من القضاة لا من المؤرخين، وقد تناول العديد من مثل هذه القضايا في كتابه من ناحية قضائية شرعية.

2 لا يعرف الكثير عن هذا الصحابـــي ونسبه

3 كانت جذام قبيلة كبيرة ولكنّها انقسمت إلى أفخاذ عديدة، ويذكر أبو الرب (2002: 39) أن لجذام ثلاث عشرة فخذًا، أحدها كان بني جفال. وقد عاشت قبيلة جذام كما يشير أبو الرب في منطقة واسعة من طبرية إلى شمال حسمى في الجنوب، وكانت حسمى بالتحديد واحدة من أكبر مناطقهم.

4 حسمى منطقة كبيرة بين المناطق الواقعة شمال غربـــي تبوك وصولاً إلى سيناء عن طريق أيلة (انظر الحموي 1990: (2) 298).

5 لقد كتب الديبُلي كتابًا حول مراسلات النبـــي ﷺ، ويعدّ هذا الكتاب وفق ما يصف حميد الله (1987: 656) أحد أوائل الكتب المختصة بهذا الشأن. وقد تم إضافة جميع نصوص المراسلات التي جمعها الديبلي في ملحق كتاب لابن طولون (ت. 953 للهجرة/1546 ميلادية) بعنوان "إعلام السائلين"، وذكر ابن طولون في كتابه هذا سلسلة الرواة الذين نقل منهم هذه النصوص وصولاً إلى الديبُلي.

بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد النبــي لبني جفال بن ربيعة بن زيد الجذاميين: إن لهم إرم لا يحلها عليهم أحد أن يغلبهم عليها، ولا يحاقهم فيها.[1]

ومع أنّه لم يرد ذكر تاريخ هذا الإقطاع في كتب التاريخ، إلا أنّه يظهر أنها كانت في فترة متأخرة من نبوة النبــي ﷺ، ذلك أنها تذكر قبيلة بني جفال[2]. وبما أنّ نص هذا الإقطاع ليس محدّدًا بأجل، فلا بدّ إذن أنّ هذه القبيلة كانت تعيش أصلاً في تلك المنطقة، أو أنها كانت تقع تحت حكمها، وأنّ هذا الإقطاع إنما جاء ليؤكّد ملكيتهم للأرض. كما أنّ هذه الوثيقة مهمة في هذا السياق لأنّ هذه المنطقة تقع إلى الجنوب من بيت المقدس، وتأمينها على يد هذه القبيلة الموالية للرسول ﷺ كان يعني تأمين الطريق إلى بيت المقدس من الجنوب وعبر أيلة.

إقطاع تميم الداري

تعد الهبة التي قدمها النبــي ﷺ لتميم الداري من أهم الوثائق في التاريخ الإسلامي. فهذه العطية كما يقول العويسي (2006: 51) لم تكن الأولى في بيت المقدس وحسب، بل كانت الأولى في تاريخ المسلمين كله[3]. وأكثر ما يثير اهتمامنا

---

1 وهنالك جملةٌ أضيفت على نص الديبلي: "فمن حاقهم فلا حقّ له وحقهم حق". ولا تؤثر هذه الإضافة في دراسة نص هذا الإقطاع، فإنما هي تأكيد على الجملة التي قبلها.

2 إن لغة وأسلوب نص كتاب هذا الإقطاع يشيران إلى أنه قد يكون كتب بعد غزوة تبوك، وهو الوقت الذي أتت فيه معظم قبائل المنطقة إلى المدينة وأذعنوا للنبــي ﷺ. وهذه المنطقة بعيدة عن المدينة، ولذا يبدو أنهم قد أتوا النبــي ﷺ بعد أن ذاع صيته في الأرجاء، وقد تحقق ذلك يقينًا إما بعد غزوة تبوك أو أثناءها.

3 قد لا يكون رأي العويسي دقيقًا تمامًا هنا. فنحن نقرّ بأن هبة تميم الداري رضي الله عنه كانت الأولى في بيت المقدس وفي الأرض المقدسة، إذ ما من دليل على منح النبــي ﷺ أراضيَ لغيره داخل بيت المقدس. كما أنه لا يعرف بالتحديد موقع الإقطاع الذي منح لأبــي ثعلبة. أما فيما يتعلق بتوقيت هبة تميم الداري، فإن النبــي ﷺ كان قد قدم العديد من الإقطاعات والهبات من قبل ذلك في العديد من المناطق الواقعة تحت سيطرة المسلمين، وقد ذكر حميد الله الكثير من هذه الإقطاعات في كتابه (1987: 157–158–161–168–172). ويبدو أنّ العويسي قد توصل لهذا الرأي بناء على الرواية التي تذكر أنّ النبــي ﷺ قد منح هذه الهبة لتميم رضي الله عنه في مكة، وهي رواية ضعيفة غير مقبولة على ما سيأتي.

هو كون هذا الإقطاع داخل بيت المقدس[1]، وفرادة هذه الحادثة تتمثل كذلك في أنها تشتمل على أول وثيقة تفصيلية من نوعها في هذا السياق، على عكس الإقطاع الذي قدم إلى ثعلبة والتي لم يعرف له نصّ مكتوب. لذا تعدّ هذه الوثيقة معلمًا أساسيًا في دراسة العلاقة بين النبـــي ﷺ وبيت المقدس.

تقدم لنا المصادر التاريخية ثلاث نسخ من نص هذا الإقطاع وقد يكون عليها شيء من خلاف. وقد جمع شُرّاب (1990: 120–136) جميع الروايات المختلفة لنص هذا الإقطاع ورتبها ترتيبا زمنيا. أما حميد الله (1987: 129–132) فقد جمع هذه النسخ الثلاثة من نص الهبة وذهب إلى أنّها دوّنت مرتين لا مرةً واحدة، ويرى بناء على ذلك أن النسخة التي أوردها في كتابه هي هبة أخرى منفصلة، وأنّ النسختين الأخريين لإقطاع آخر.

لا شكّ أنّ وجود ثلاث نسخ أو أكثر لهذا الإقطاع قد يكون ناجمًا عن الاختلاف في تاريخ تدوينها. إذ يذكر بعض المؤرخين كابن عساكر (1995: (11) 64–66)، أن نص هذا الإقطاع قد كتب في مكة، قبل هجرة النبـــي ﷺ. إلا أن الروايات العديدة الأخرى تذكر أنّ هذا الإقطاع قد دُوّنَ لتميم الداري رضي الله عنه في المدينة خلال زيارة وفد من قومه بعد غزوة تبوك (انظر ابن سعد 1997: (1) 285–286). أما ما ذكر من أنّ هذا الإقطاع كان في مكة فيعتمد على رواية ضعيفة جدًا كما يقول شرّاب (1990: 126). ويقول أيضًا إن هذه الرواية تذكر آيةً من سورة آل عمران، وهي سورة مدنية. وهذا دليل على أن هذا الإقطاع كان في المدينة، وأن الرواية التي تدّعي أنّ قوم تميم الداري وفدوا على النبـــي ﷺ في مكة هي رواية ضعيفة، لكنّ هذا لا يغني من النظر في هذه الروايات الثلاثة وتحليلها.

---

1 يذكر ابن سعد (1997: (7) 286) وابن دريد (ت. 321 للهجرة/933 ميلادية) (1854: (1) 226) أنّ النبـــي ﷺ لم يمنح أيّ أحدٍ أرضًا في الشام سوى تميم الداري رضي الله عنه، ولكنّ هذا الرأي غير دقيق، فقد أشرنا فيما سبق إلى إقطاع أبـــي ثعلبة ومن الواضح أنها كانت في الشام، والأمر ذاته ينطبق على إقطاعه ﷺ لبني جفال.

إقطاع تميم الداري: النسخة (1)

وردت هذه الرواية في طبقات ابن سعد (1997: (1) 205)، كما أوردها أبو يوسف في كتاب الخراج (د.ت: 216)، وأوردها العديد من المؤرخين بعد ذلك بهذا النص:

> بسم الله الرحمن الرحيم، هذا كتاب من محمد رسول الله إلى تميم بن أوس الداري: إن له قرية حبرون، وبيت عينون، قريتهما كلهما، وسهلهما وجبلهما، وماءهما وحرثهما، وأنباطهما وبقرهما، ولِعَقِبِه من بعده، لا يحاقه فيهما أحد، ولا يلجهما عليهم أحد بظلم. فمن ظلم وأخذ منهم شيئاً فإن عليه لعنة الله.

إنّ هذا النص يؤكد على منح هذه المنطقة المحددة لتميم الداري رضي الله عنه، والتي تشتمل حسب النص على منطقة حبرون، والمعروفة اليوم باسم الخليل، وبيت عينون، وهي قرية صغيرة على مقربة منها. نلاحظ كذلك أنّ لغةَ هذا النص شبيهة باللغة التي يستخدمها النبـــي ﷺ في رسائله واتفاقياته، ولذا يبدو أنّه نصّ صحيح في ظاهره من جهة، إلا أنه يجدر الذكر أن هذه الرواية نقلها راويان لم يطّلعا على النص الأصلي، ولا يذكر أيٌّ منهما مرجعًا واضحًا للنص الذي قدّماه، باستثناء أبـــي يوسف، والذي يذكر أنه روى هذا النص عن الزُّهريّ. لذا يمكن أن توصف هذه الرواية بالضعف، إذ فيها انقطاعٌ في سلسلة الرواة بين أبـــي يوسف والزهري، وهذا يدعو لتضعيفها كحديث، ولكنّه لا يردّها كرواية تاريخية، فلا يمكن إذن أن نعدّها حديثًا بسبب الانقطاع الحاصل في سلسلة الرواة، فهي ليست مرفوعة إلى النبـــي ﷺ وإنما تقف عند الزهري، إلا أنه يمكن التعامل معها كرواية تاريخية وحسب، وهي قصّة مقنعة جدّا، ولا شيء يوجب تضعيفها كأثر تاريخي، خاصة عند النظر إلى لغتها التي تقترب من اللغة التي كان يستخدمها النبـــي ﷺ، إلا إن ظهرت أدلة أخرى بخلاف ذلك.

إقطاع تميم الداري: النسخة (2)

هذه الرواية الأكثر تداولاً وشهرة، إذ جاء ذكرها في العديد من المصادر التاريخية، إلا أن معظمها متأخر عن المصادر التي ذكرت النسخة الأولى من النص.

ومن أوائل المؤرخين الذين تناولوا هذه المصادر ابن عساكر (ت. 571 للهجرة/1176 ميلادية) (1995: (11) 66)، والذي يوردها إلى جانب رواية أخرى، سيرد ذكرها لاحقًا. كما جاءت هذه الرواية عند ابن فضل الله العمري (ت. 749 للهجرة/1392 ميلادية) (2003: (1) 226).

ما يميّز رواية ابن فضل الله العمري هو إشارته الواضحة إلى أنّه وقف على الوثيقة الأصلية ونسخها كما هي، وذلك حين وجدها مع خادم وقف تميم الداري، واسمه ناصر الدين محمد بن الخليل التميمي الداريّ، حتّى أنّ العمري قدّم وصفًا لقطعة القماش التي حفظت فيها الوثيقة. ويذكر كذلك أن الوثيقة كانت مكتوبة على قطعة من الجلد، وأنّ ما كتب فيها كان قد محيَ تقريبًا. كما يذكر أنه رأى وثيقة أخرى بالنص نفسه. هذه الوثيقة كان قد كتبها الخليفة العباسي المستضيء بالله (ت. 575 للهجرة/1179 ميلادية). ورغم قدم تلك القطعة وعدم وضوحها وما أشار إليه من أنّ الكتابة فيها قد محيت تقريبًا إلا أنّ العمري تمكن من قراءة ما كان مكتوبًا على الوثيقة الأصلية التي كتبت على الجلد، إذ إنه يؤكد في الوقت نفسه أنّ النص الأصلي كان قد كتب بخط كوفيّ واضح وجميل.

وقد توخّى العمري الدقة في نقل النص كما هو في الوثيقة الأصلية التي رآها، ولذلك نشير إلى رواية العمري لنص الوثيقة، مع الأخذ بعين الاعتبار أنّ العمريّ قد نقل النص من الوثيقة التي كتبها الخليفة المستضيء، لا من الوثيقة الأصل:

> بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما أنطى محمد رسول الله لتميم الداري وإخوته، حبرون والمرطوم وبيت عينون وبيت إبراهيم وما فيهن، نطيةَ بَتٍّ بذمتهم، ونفذت وسلمت ذلك لهم ولأعقابهم، فمن آذاهم آذاه الله، فمن آذاهم لعنه الله، شهد عتيق بن أبو قحافة، وعمر بن الخطاب، وعثمان بن عفان، وكتب علي بن بو طالب وشهد.

سنشير هنا إلى قضايا أخرى متعلقة بهذا النص، ولاسيما لغته. فالعمري يذكر أن النص الأصلي كان مكتوبًا بالخط الكوفي، ويصف الخط بأنه جميل وواضح، وهذا يطرح إشكالاً هنا، فالخط الكوفي لم يكن معروفًا بالشكل الذي يصفه العمري في تلك المرحلة المبكرة من تطور الكتابة العربية، إذ لم يعرف الخط الكوفي

إلا بعد فتح العراق[1]، بعد وفاة النبـــي ﷺ. أما الإشكال الآخر في النص فيتمثل بشكل واضح في لغته. إذ إن استخدام الفعل "نفّذت" و"سلّمت" يضعفان النص، خاصة عند مقارنته بالوثائق التاريخية الأخرى التي كتب فيها النبيّ ﷺ شيئًا لأشخاص آخرين. لقد قارنت بين هذا النص والنصوص العديدة الأخرى للهبات التي ذكرها ابن سعد مثلاً (1997: (1) 205–206) وغيره من المؤرخين[2]، ويمكن القول إنّ تلك النصوص تتفق في أسلوبها، إلا أنّ النص السابق يشذّ عنها.[3]

إن النصّ في هذه النسخة الثانية، وليس فكرة الإقطاع نفسه، قد بدأ في الظهور (وهذا ما يشير إليه ابن عساكر ومن بعده العمري) بعد الهجمات الصليبية، ولكنّه لم يرد عند أيٍّ من المؤرخين من قبل أنّه قد تم نسخ النص مباشرة من الوثيقة الأصلية قبل العمري. وهذا يثير العديد من الشكوك حول هذه الوثيقة التي رآها العمري، كما أنّ أبا يوسف (د. ت: 216) يذكر أنّ أبا بكر رضي الله عنه قد أعطى تميمًا الداريّ وثيقة أخرى لتجديد الإقطاع، غير أنّها تذكر حبرون (الخليل) وبيت عينون فقط، ولا تذكر المرطوم التي ورد ذكرها في هذه النسخة من النص فقط[4].

إقطاع تميم الداري: النسخة (3)

وردت هذه النسخة أولاً في تاريخ ابن عساكر (1995: (11) 65–66)، وأشار إليها المؤرخون من بعده وبنفس العبارة تقريبًا. إلا أن هذه الرواية تشتمل على بعض الاختلافات عن سواها، إذ تذكر أن تميمًا الداري رضي الله عنه قد أتى

---

1 والأمر ذاته يسري عند دراسة الوثائق الأخرى التي تعود لتلك الفترة.

2 وقد ذكر حميد الله نصوص إقطاعات أخرى مشابهة.

3 لقد كان الشهود على هذا الإقطاع وذكرهم بذلك الترتيب محلّ إشكال كذلك، فهذه أول وثيقة يشهد عليها عثمان بن عفان رضي الله عنه، وإن ذكر الخلفاء الأربعة كشهود، وترتيبهم على نحو مماثل لترتيبهم في توليهم لخلافة المسلمين أمرٌ يثير تساؤلات عديدة كذلك، وإن كانت الإشكالات الناجمة عنها أقل جدّية من القضايا الأخرى المتعلقة بهذه الوثيقة.

4 مع أنّ المرطوم تعدّ جزءًا من ضمن تلك المنطقة بأكملها، ويمكن لذلك أن تكون جزءًا من الهبة رغم عدم ذكرها، إلا أننا نحيل إلى النص نفسه بهدف مقارنته مع نص النسخة الأولى لهذه الهبة.

النبـــي ﷺ مع قومه مرتين وليس مرةً واحدة، كانت الأولى إلى مكة والثانية إلى المدينة، حيث جدد لهم النبـــي الهبة. وتشير هذه الرواية إلى نصين اثنين، وفيما يلي نص قصة هذه الأرض:

> عن أبـــي هند الداري قال:... فدعا رسول الله ﷺ بقطعة جلد فكتب لنا فيها كتاباً نسخته: "بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ذكر ما وهب محمد رسول الله للداريين إذا أعطاه الله الأرض، وهب لهم بين عين حبرون وبيت إبراهيم بمن فيهن، لهم أبداً، شهد عباس بن عبد المطلب، وجهم بن قيس، وشرحبيل بن حسنة وكتب"، قال: ثم دخل بالكتاب إلى منـــزله، فعالج في زاوية من الرقعة وغشاه بشيء لا يُعرَف، وعقد من خارج الرقعة بشيء عقدين وخرج إلينا مطوياً وهو يقول: (إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه وهذا النبـــي والذين آمنوا، والله ولي المؤمنين). ثم قال: انصرفوا حتى تسمعوا بـــي أني قد هاجرت. قال أبو هند: فانصرفنا، فلما هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة قدمنا عليه فسألناه أن يجدد لنا كتاباً فكتب لنا كتاباً نسخته...

أمّا التتمّة فهي النص الآخر الذي كتب في المدينة، وهي النسخة الثانية من كتاب الإقطاع، والتي سبق أن نظرنا فيها في البند السابق. ومن الواضح أنّ هذه القصة، بالاعتماد على هذا النص، قد وقعت في مكة قبل الهجرة، ذلك أنها تذكر هجرة النبـــي ﷺ إلى المدينة بعد ذكر قصة الهبة الأولى.

أحد أهم الإشكالات في هذه الرواية هو الآية التي ترد فيها، وهي آية من سورة آل عمران، وهنالك إجماع على أنّ هذه السورة مدنيّة. ويشير شرّاب (1990: 126) إلى أن ذكر هذه الآية يثبت أن القصة قد وقعت في المدينة، وأن الرواية التي تتحدث عن وفود قبيلة الداري إلى مكة ضعيفة من أساسها. أما الباحث هنا فيرى أنّه لا يمكن لهذه القصة نفسها أن تكون قد جرت في المدينة، ذلك أنها تذكر بوضوح أن هؤلاء القوم زاروا النبـــي ﷺ مرة أخرى بعد هجرته إلى المدينة، وطلبوا منهم أن يجدد لهم كتاب الإقطاع. وهذا ما يثير الشك بشأن

الرواية بأسرها. إن عملية التحقق هذه تقودنا ليس إلى الحكم بضعف هذه الرواية وحسب كما يذهب شرّاب، وإنما إلى رفضها وردّ النص الذي تورده بالكليّة، لأنها رواية تثير إشكالات وتناقضات داخلية واضحة، عدا عن أنها قد ذكرت أصلاً في مصادر متأخرة، ولا تقوّيها أي مصادر تاريخية مبكرة.

واعتمادًا على هذا التحليل، نجدُ أن النسخة الأقرب إلى الصحة لكتاب هذا الإقطاع هي النسخة الأولى، وذلك لأسباب منها أنها الأقرب تاريخيًا لعهد النبـــي ﷺ، ولأنها لغتها أوضح وأكثر اتساقًا مع وثائق ولغة النبـــي ﷺ عند مقارنتها مع النسخة الثانية، كما أنها تخلو من التناقضات في محتواها أو في الأسماء التي تذكرها. وفيما يلي نص هذا الإقطاع:

> بسم الله الرحمن الرحيم، هذا كتاب من محمد رسول الله إلى تميم بن أوس الداري: إن له قرية حبرون، وبيت عينون، قريتهما كلهما، وسهلهما وجبلهما، وماءهما وحرثهما، وأنباطهما وبقرهما، ولِعَقِبِه من بعده، لا يحاقه فيهما أحد، ولا يلجهما عليهم أحد بظلم. فمن ظلم وأخذ منهم شيئاً فإن عليه لعنة الله.

يظهر في هذا النص أن النبـــي ﷺ يهب تميمًا الداريّ رضي الله عنه المنطقة المجاورة للخليل كلها، ولكنّه يذكر أنّ الإقطاع خاصّ بحبرون (الخليل) وبيت عينون، وهي قرية صغيرة قربها. وهكذا يكون هذا النص واحدًا من أهمّ النصوص في تاريخ المسلمين فيما يتعلق ببيت المقدس، لأنه يعدّ أول صكّ ملكية قانونيّ لأرض داخل الأرض المقدسة، وهو بمثابة إعلان النبـــي ﷺ ولايته على ذلك الجزء من بيت المقدس، رغم أنها لم تكن خاضعة لحكم المسلمين في وقت تقديم تلك الهبة.

إن تقديم هذا الإقطاع له ارتباط بالمستقبل المنظور لبيت المقدس من وجهة نظر النبـــي ﷺ وإرهاصٌ بالفتح القادم، فلم يسبق للنبـــي ﷺ أن منح الآخرين أرضًا لا سلطة له عليها. ولقد كان لهذه الفكرة انعكاسات وتطبيقات عديدة من قبل فقهاء المسلمين وقادتهم. فالعُلَيمِي على سبيل المثال (ت. 927 للهجرة/1521 ميلادية) (1999: (2) 146–147) يشير إلى حادثة جرت مع ذرية تميم الداري

رضي الله عنه في العام 485 للهجرة/1092 ميلادية تقريبًا، أي قبل الحملة الصليبية الأولى، فيذكر أن أحد الولاة في ذلك الوقت حاول مصادرة تلك الأراضي من ذرية تميم الداري بحكمٍ من القاضي أبـــي حامد الهروي، الذي رأى أنّ الإقطاع لتميم الداري ليس ملزمًا، وذلك لأنّ النبـــي ﷺ قد منح أرضًا لا يملكها ﷺ لتميم الداري. وحين وصلت القضية الإمامَ أبا حامد الغزالي (ت. 505 للهجرة/1111 ميلادية) حكم بكفرِ القاضي، وقال كما يروي العليمي:

> هذا القاضي كافر، فإن النبـــي ﷺ قال: "زويت لي الأرض كلها"، وكان يقطع في الجنة، فيقول: "قصر كذا لفلان"، فوعده حق، وعطاؤه صدق.

فأسقط في يدي الوالي والقاضي معًا لدى سماع رأي الإمام الغزالي رحمه الله، وبقيت الأرض ملكًا لعقب تميم الداري رضي الله عنه. وفي هذه القصة إذن دلالة على أهمية هذا الإقطاع في تاريخ المسلمين، وما قاله الغزالي رحمه الله إنما يعكس فهمًا عميقًا لقصد النبـــي ﷺ من هذا الإقطاع، فهو إنما كان يقدم وعدًا للمسلمين من خلاله، وبشارةً بأن منطقة بيت المقدس ستؤول للمسلمين فيما هو قادم من أيام. كما يمثّل هذا الإقطاع صورة للسلطة السياسية التي يتمتع بها النبـــي ﷺ على بيت المقدس.

بقي أن نشير إلى أن التوقيت الذي اختاره النبـــي ﷺ لتقديم هذا الإقطاع لتميم الداري رضي الله عنه، بعد غزوة تبوك، ذو دلالة خاصة. فالنبـــي ﷺ حين أسهم لتميم بتلك الأرض كان فعليًا قريبًا كلّ القرب من بيت المقدس، ويمكن النظر إلى هذا على أنه ممارسة عملية للنبـــي ﷺ لدوره التبشيري فيما يتعلق بفتح بيت المقدس. ويرى أمين الرشيد ياتيبان (2006: 135) أن قيام النبـــي ﷺ بهذا الأمر "يظهر عزمه الواضح بطريقة ملائمة وحصيفة تدلّ على حرصه وبعد نظره في التخطيط لهذا المشروع العظيم" لفتح بيت المقدس. ويقارن ياتيبان بين هذا الإقطاع والوعد الذي قدمه ﷺ لسراقة بن مالك رضي الله عنه، "حين وعده بسواري كسرى" (ياتيبان 2006: 135). وقد تحقق كلا الوعدان بعد وفاته ﷺ كما هو معروف، وحصل تميم رضي الله عنه على أرضه بعد فتح بيت المقدس (انظر ابن عساكر 1995: (11) 66).

ولا بدّ من التأكيد على الأهمية الكبيرة لهذه الإقطاعات التي وهبها النبـــي ﷺ لكل من تميم الداري رضي الله عنه، ولقبيلة بني جفال الجذاميين وأبـــي ثعلبة. فهي هبات ترسم طبيعة العلاقة بين النبـــي ﷺ وبيت المقدس، والتي تبلورت فيما بعد على شكل خطة لفتح المنطقة. ولا شكّ أن ما يميز الإقطاع الذي قدِّمَ لتميم الداري رضي الله عنه هو كونه في داخل منطقة بيت المقدس، وقد يعدّ ذلك كما أسلفنا خطوة سياسية تشكّل نوعًا من سلطةٍ مفترضة على تلك المنطقة. ويرى الخطيب (2001: 30) أن هذا الإقطاع "يشير بوضوح إلى المكانة التي اكتسبتها مدينة الخليل في وقت مبكر من تاريخ الإسلام، وهي مكانة موازية وتابعة لمكانة القدس في الإسلام". ولا اختلاف في هذا السياق بين تينك المدينتين أثناء دراسته لمنطقة الأرض المقدسة بشكل عام، ويبدو أن هذه المكانة العظيمة لبيت المقدس هي التي دفعت النبـــي ﷺ لمنح تلك الأرض لتميم الداريّ رضي الله عنه.

بيد أنّه من الضروري النظر إلى هذه الإقطاعات الثلاثة في آنٍ معًا، فهي هبات لثلاث أراضٍ، إحداها في منطقة من الشام على الطريق الجنوبـــي الواصل إلى بيت المقدس، وأخرى في منطقة النقب، وهي جزء من الشام لا من الأرض المقدسة أرضِ بيت المقدس، والثالثة داخل منطقة الأرض المقدسة، على بعد 30 كم فقط عن المسجد الأقصى، وهي منطقة الخليل وما يجاورها. ولا دليل يشيرُ إلى أنّ النبـــي ﷺ منح أرضًا لأحد في الأجزاء الشمالية من بيت المقدس، وهذا يؤكد القول بأن الأرض التي منحت لأبـــي ثعلبة ستكون في الجنوب أو الجنوب الشرقي من بيت المقدس أو الشام، وفي هذه دلالة على أن هذه الإقطاعات جزءٌ من عملية تقصد فتح الطريق نحو بيت المقدس من جهة الجزيرة العربية، فبنو جفال كانوا يقطنون المنطقة، كما كان تميم الداريّ من هناك، لذا فإن الظاهر أن النبـــي ﷺ كان يسعى لتشكيل حلف له يساعده في المستقبل على فتح بيت المقدس من جهة الجنوب الشرقي.

ثانيًا: المراسلات الدبلوماسية

كتاب النبي ﷺ إلى هرقل

تعدّ رسالة النبـــي ﷺ إلى هرقل إمبراطور بيزنطة من أهم الوثائق التي تعود إلى عهد النبـــي محمد ﷺ، فهي ترد في العديد من المصادر التاريخية الإسلامية وغير الإسلامية، وقد درسها وتناولها كثير من المؤرخين والعلماء. كما أنّ نص هذه الوثيقة موثق بشكل جيد، سواءً فيما يتعلق بروايتها شفاهةً من قبل الرواة أو نقل نصّها بدقّة في كتب الحديث والتاريخ.

ويجمع العديد من المؤرخين، على أن هذا الكتاب يعود إلى العام السادس للهجرة/627 ميلادية[1]، وقد أرسل مباشرة عقب عقد صلح الحديبية بين النبـــي ﷺ وسادة قريش في مكّة، وهو معاهدة اشتملت على اتفاق وقف القتال بين الطرفين لعشر سنوات. ويقول ابن هشام (2005: (4) 148) إن جميع الكتب التي بعثها النبـــي ﷺ إلى الحكّام كانت بعد صلح الحديبية.

ومما يدل صراحة على أن هذه الرسالة بعثت بعد صلح الحديبية الحديثُ الذي ورد في صحيح البخاري (2000: (1) 4–6) وصحيح مسلم (2000: (2) 772–773). إذ يرد في الحديث ذكر هذه الرسالة بنصّها، وقد روى الحديث أبو سفيان بن حرب، قائد قريش قبل إسلامه. ويقول أبو سفيان في هذا الحديث إنه كان في الشام في وقت الهدنة بين قريش والنبـــي محمد ﷺ، في تجارة له على الأغلب، وهي الرحلة السنوية المألوفة لتجار قريش إلى الشام واليمن كما يذكر القرآن الكريم. وبينا هو في الشام، كما يذكر الحديث، وصل كتاب النبـــي ﷺ إلى هرقل بيد دحيّة الكلبـــي. وقد دعيَ أبو سفيان ومن معه للحضور بين يدي هرقل، في إيلياء، وكان حوله عظماء الروم، ودار بينهما حديث بشأن أمر النبـــي ﷺ. وفي نهاية هذا اللقاء، توجّه هرقل لوفد قريش قائلاً عن

---

1 تذكر العديد من الروايات أن النبـــي ﷺ قد أرسل كتابًا إلى هرقل أثناء غزوة تبوك (انظر حميد الله 1987: 111–115)، إلا أنّه لا يمكن الاعتماد على هذه الروايات، لأنها تتعارض مع حديث أبـــي سفيان رضي الله عنه وما جاء فيه من ذكر للرسالة إلى هرقل، حيث يشير الحديث صراحة إلى أن الرسالة قد بعثت خلال صلح الحديبية.

النبـــي ﷺ:.. "إنه سيملك موضع قدميّ هاتين"، ثم دعا بكتاب رسول الله ﷺ وجاء فيه:

> بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم[1]، سلام على من اتبع الهدى أما بعد، فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين، فإن أبيت فعليك إثم الأريسيين[2]، و(يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضًا أربابًا من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون).

وتذكر رواية البخاري (2000: (1) 4-6) أن الكتاب قد وصل هرقل وهو في إيلياء، كما أن الرواية التي وردت في صحيح مسلم (2000: (2) 773) تشير كذلك إلى أنّ هرقل كان في إيلياء ليشكر الله على نصره على الفرس. ومع أنّ *يوميّات الفصح* لا تذكر هذه الرسالة، إلا أنها تذكر أنّ هرقل قد ذهب إلى "الأراضي الشرقية" في ذلك الوقت مع ابنه وابنته. وتستخدم كلمة "الأراضي الشرقية" في *يوميات الفصح* عادة للإشارة إلى بلاد الشام، مثلما كانت تستخدم عند وصف احتلال الفرس لبيت المقدس (1989: 156).

إن الأهمية في هذه الرسالة لا تكمن في الواقع في نصّها، لأنّ النص لا يختلف عن نصوص الكتب الأخرى التي أرسلها النبـــي ﷺ إلى الحكام الآخرين في العالم في ذلك الوقت (انظر حميد الله 1987: 135-145)، وإنما تكمن أهمية هذه الرسالة في توقيتها. فقد أرسلها النبـــي ﷺ مباشرة في عقب صلح الحديبية، وقبيل معركة

1 الروم هنا تعني الرومان، وهكذا كانت العرب تشير إلى البيزنطيين في ذلك الزمان.

2 مع أنّ هذا الحديث من الصحيح، حيث يكون المنهج أكثر دقّة مقارنة بالروايات التاريخية، إلا أننا نجد أكثر من نسخة للوثيقة نفسها في المصادر التاريخية المتعددة، وبالأخص عندما يتعلق الأمر بمصطلح "الأريسيين" والذي يعني "الفلاحين" أو "القادة" كما يذكر ابن منظور (1999: (1) 116). ويترجم العويسي (2006: 53) هذه الكلمة باللغة الإنجليزية كما يلي: "القوم الذين يتبعون العقيدة الخلقيدونية"، ولعل العويسي يكون قد أخطأ في هذه الترجمة، إذ لم يرد ذكر الأريسيين في هذا السياق في أي قاموس عربـــي. ويذكر الطبري (1998: (3) 139) كلمة أخرى هي "الأكارين" والتي تعني "الحارثين" أي "الفلاحين" وفق العديد من القواميس العربية كلسان العرب لابن منظور (1999: (1) 169).

مؤتة، والتي تعدّ واحدة من أهم الأحداث في تلك الفترة.

هذا يعني أنّ رسالة النبـــي ﷺ إلى هرقل تتميّز قليلاً عن بقية الرسائل، إذ يمكن النظر إليها كخطوة دبلوماسية تحذّر من حملةٍ عسكرية داخل المناطق البيزنطية في بلاد الشام. ولعل ما يدل على ذلك أنّ النبـــي ﷺ قال في رسالته: "أسلم تسلم"، ولهذه العبارة دلالة سياسية بالغة الأهمية، فهي رسالة تشتمل على عبارات التلطّف والدعوة الحسنة والوعد بالخير، كما تقتبس آية من القرآن الكريم، ولكنها في الوقت ذاته تنضوي على تحذير من ردّة الفعل المترتبة على رفض هذه الدعوة.

كما أنّ الرسالة قد وصلت إلى هرقل نفسه وهو في إيلياء، وهي نفسها مدينة القدس التي تقع في قلب الأرض المقدسة، وهذا أمر له دلالاته كذلك، خاصة في سياق سورة الروم، والتي تذكر هزيمة البيزنطيين أمام الفرس، وتخبر في الوقت نفسه بالنصر الذي سيظفر به البيزنطيون في بضع سنين[1]. وهكذا تكون استعادة البيزنطيين لبيت المقدس معلمًا من معالم انتصارهم على الفرس. وهكذا اختار النبيّ ﷺ أن يرسل كتابه إلى هرقل وهو في بيت المقدس ليشير إلى بدء عهد جديد في المنطقة، وهذا ما أدركه هرقل نفسه حين قال" سيملك (محمد) موضع قدميّ هاتين"، وهي عبارة تدلّ على فهم هرقل لمقصد النبـــي ﷺ من كتابه، وربما هذا ما دفعه لدعوة شعبه إلى الإسلام كما يرد في حديث البخاري (2000: (1) 4–6).

إن كتاب النبـــي ﷺ إلى هرقل كان بمثابة تحذير لا بدّ منه قبل التحرك العسكري ضد البيزنطيين، وضدّ الأريسيين بشكل خاص، وهم أتباع الدولة البيزنطية في المنطقة، وهذه إشارة أخرى تدعم هذا الرأي. فذكر الأريسيين في الرسالة يستلزم مسؤولية كبيرة سوف يتحملها هرقل في حال تقدم الحملات العسكرية للمسلمين في المستقبل. ولهذا يمكن أن تعدّ هذه الرسالةُ خطوة دبلوماسية وسياسية مهمة تمهيدًا لفتح بيت المقدس وقبل الإقدام على المرحلة العسكرية من الخطة، والتي بدأت فعلاً بعد عام واحد تقريبًا.

1 والمقصود هنا ذروة انتصار البيزنطيين على الفرس، وليس النصر الأول لهم والمذكور في أوائل سورة الروم.

ثالثًا: المعاهدات السياسية

لقد أبرم النبـــي ﷺ العديد من المعاهدات السياسية واتفاقيات الصلح، وقد عقدت العديد من هذه الاتفاقيات والمعاهدات من أجل تأمين حدود الدولة الإسلامية أو طرق القوافل التجارية والعسكرية. وكان العهد لبني ضمرة[1] أول معاهدة سياسية للنبـــي ﷺ خارج دولته في المدينة المنورة وكان ذلك بُعَيد الهجرة مباشرة.

إلا أن معظم العهود التي قدمها النبـــي ﷺ والمتعلقة بموضوع هذا الكتاب قد أبرمت في المرحلة الأخيرة من حياته ﷺ في وقت غزوة تبوك. وبما أنّ هذه العهود قد كتبت خلال فترة زمنية محدودة فإنها قد أتت متشابهة بلبّها وأسلوبها، وهذا يساعد في فهم العلاقة التي تجمع بينها.

العهد إلى أهل أيلة

أيلة هي إحدى الموانئ المهمة في بلاد الشام، وكانت الميناء الجنوبـــي الأساسي للمنطقة، كما كانت المدينة الساحلية الأخيرة على الطريق الساحلي باتجاه المشارف الجنوبية لبيت المقدس قبل دخول صحراء النقب. وقد كان موقع أيلة وفق العديد من علماء الحفريات التاريخية، ضمن المدينة المعروفة الآن بالعقبة في الأردن، إذ كشفت العديد من الحفريات عن الهوية الأصلية للمدينة. وبفضل موقعها المهم تمتعت أيلة بمكانة استراتيجية بين المدن والحواضر الأخرى على الطريق الساحلي بين شبه الجزيرة العربية وبلاد الشام، ولا عجبَ إذن من توجّه أنظار النبـــي ﷺ نحوها.

وقد ورد العهد الذي أعطاه النبـــي ﷺ لأهل أيلة في كتب الحديث، وعلى رأسها البخاري (2000: (2) 617)، وفيما يلي نص الحديث:

---

1 أبرمت هذه المعاهدة مع بني ضمرة أثناء أول تحرك عسكري للنبـــي ﷺ في العام الثاني للهجرة، أي في غزوة الأبواء، والتي تعرف كذلك بغزوة ودان (انظر المباركفوري 1996: 203)، وذلك قبل بدر. وقد كتب النبـــي ﷺ في هذه المعاهدة كما يذكر القسطلاني (ت. 923 للهجرة/1571 ميلادية) (1996: (1) 174):

هذا كتاب رسول الله لبني ضمرة بأنهم آمنون على أنفسهم وأن النصر على من رامهم.. على ألا يحاربوا في دين الله ما بل بحر صوفة.. وأن النبـــي إذا دعاهم لنصر أجابوه...

عن أبـــي حميد الساعدي قال: غزونا مع النبـــي ﷺ غزوة تبوك، وأهدى ملك أيلة للنبـــي ﷺ بغلة بيضاء، وكساه بردًا وكتب له ببحرهم[1]

هذا عهد مكتوب من النبـــي ﷺ إلى ملك أيلة في ذلك الزمان، لكنّ نصّه لم يرد في كتب الحديث، وإنما ورد في كتب السيرة والتاريخ. وعلى خلاف الوثائق النبوية الأخرى التي ورد لها أكثر من نصّ في أكثر من مرجع، فإن لهذا العهد الذي قدمه ﷺ لملك أيلة نصًّا واحدًا أتى بصيغة واحدة تقريبًا في العديد من المصادر التاريخية. كما أورد ابن سعد كتابًا آخر مرتبطًا بهذه القصة، وهي رسالة من النبـــي ﷺ إلى أيلة، ولكنّها ليست موضوع كتابنا هذا[2].

---

1 ذكر العسقلاني (1997: (6) 321 أن المقصود بقوله "بحرهم" في هذا الحديث هو مدينتهم، أي أيلة. كما يذكر العسقلاني أن من يقدّم البردَ في هذه الرواية هو النبـــي ﷺ نفسه، وهذا بيّن حين نربط هذه الرواية برواية أخرى تذكر عبارة: "فكتبَ له" وليس "وكتب له" (العسقلاني 1997: (6) 321)، وهذا يؤكد أنّ النبـــي ﷺ هو من أعطى هذا العهد لأهل أيلة. كما ننبه هنا إلى أن قولهم "كتب له" لا تعني أن النبـــي ﷺ خطّ الكتاب بيده، فقد كان ﷺ أمّيًا، وإنما المقصود بها أنه منحهم تلك العهدة المكتوبة لهم.

2 وهي رسالة ذكرها ابن سعد (1997: (1) 212-213)، ويقول إن النبـــي ﷺ قد أرسلها إلى أهل أيلة قبل العهدة إليهم كما يظهر فيها. ولم يذكر أحدٌ من المؤرخين هذه الرسالة إلى أيلة باستثناء ابن سعد. أما الواقدي والبلاذري فلا يشيران إليها. وفيما يلي نص هذه الرسالة كما أوردها ابن سعد:
قالوا: وكتب رسول الله ﷺ إلى يحنة بن رؤبة وسروات أهل أيلة: "سلم أنتم، فإني أحمد إليكم الله الذي لا إله إلا هو، فإني لم أكن لأقاتلكم حتى أكتب إليكم فأسلم أو أعط الجزية وأطع الله ورسوله ورسل رسوله، وأكرمهم واكسهم كسوةً حسنة غير كسوة الغزاء. واكس زيداً كسوة حسنة فمهما رضيت رسلي فإني قد رضيت، وقد علم الجزية، فإن أردتم أن يأمن البر والبحر فأطع الله ورسوله ويمنع عنكم كل حق كان للعرب والعجم إلا حق الله وحق رسوله، وإنك إن رددتهم ولم ترضهم لا آخذ منكم شيئاً حتى أقاتلكم فأسبـــي الصغير وأقتل الكبير، فإني رسول الله بالحق، أومن بالله وكتبه ورسله وبالمسيح ابن مريم أنه كلمة الله وإني أومن به أنه رسول الله، وأت قبل أن يمسكم الشر فإني قد أوصيت رسلي بكم، وأعط حرملة ثلاثة أوسق شعيراً، وإن حرملة شفع لكم وإني لولا الله وذلك لم أراسلكم شيئاً حتى ترى الجيش، وإنكم إن أطعتم رسلي فإن الله لكم جار ومحمد ومن يكون منه، وإن رسلي شرحبيل وأبـــي وحرملة وحريث بن زيد الطائي فإنهم مهما قاضوك عليه فقد رضيته وإن لكم ذمة الله وذمة محمد رسول الله، والسلام عليكم إن أطعتم، وجهزوا أهل مقنا إلى أرضهم. =

إن نص العهد لأهل أيلة معروف ومتداول بين المؤرخين والعلماء في تلك الفترة، وربما كان نص الوثيقة موثقًا ومعروفًا بين المؤرخين، وهو ما يثير تساؤلاً حول ما إذا قد تمّ بالفعل حفظ النسخة الأصلية من هذه العهدة.[1]

وقد ورد نص العهد في سيرة ابن اسحاق (2004: 604)، وعند الواقدي كذلك (ت. 207 للهجرة/823 ميلادية) (2004: (2) 409–410)، وابن سعد (1997: (1) 221)، والكثير غيرهم من المؤرخين. ويبدو أن المؤرخين يتفقون على هذا النص، ولهذا سنعمد إلى تحليله مباشرة، وفيما يلي نص هذا العهد:

بسم الله الرحمن الرحيم، هذه أَمَنة من الله ومحمد النبـــي رسول الله ليحنة بن رؤبة وأهل أيلة، لسفنهم وسيارتهم في البر والبحر: لهم ذمة

= وهناك العديد من الإشكالات الواضحة في هذه الرسالة من حيث لغتها والتعابير المستخدمة فيها. فهي تختلف عن النصوص الصحيحة الأخرى التي تعود لتلك الفترة من حياة النبـــي ﷺ. فتبدأ الرسالة مثلاً بعبارة "أحمد إليكم الله الذي لا له إلا هو"، وهي عبارة لم ترد قطّ في أي من رسائل النبـــي ﷺ لغير المسلمين، وإنما وردت في كتاب تعزية أرسله ﷺ إلى رسوله إلى اليمن وهو معاذ بن جبل رضي الله عنه، وذلك حين توفي ابن معاذ (انظر الحاكم 1990: (3) 306–307). ويبعد أن يكون النبـــي ﷺ قد استخدم هذه العبارة في هذه الرسالة مخالفًا أسلوبه في جميع رسائله الأخرى التي يدعو فيها الناس للإسلام. كما أن الرسالة تبدأ بمنح الناس الأمان ثم تهددهم بالحرب. كما فيها عبارة أخرى غريبة هي "لولا الله وذلك"، وهذا تعبير لم يرد في أي من رسائل النبـــي ﷺ أو أحاديثه. وبالنظر إلى اللغة والتعبيرات غير المألوفة فإننا لا نميل إلى اعتماد هذه الرسالة ونشك في صحتها، بالإضافة إلى أن ابن سعد انفرد بذكرها من بين المؤرخين، كما أنه لم يشر إلى مصدرها. أما الواقدي (2004: (2) 409) فيرى أن أهل أيلة هم من بادروا ووفدوا إلى النبـــي ﷺ بعد أن وصلتهم أنباء هجوم المسلمين على دومة الجندل. ولا ارتباط لهذه الرسالة بسياق هذا الكتاب فهي ليست بمعاهدة كما أنها ليست بعهد أمان. ولا يمكن كذلك تناولها في هذا الفصل على أنها من المراسلات الدبلوماسية التي تعنينا هنا، إذ لا علاقة تربطها ببيت المقدس. والواضح لدينا كما أسلفنا أن صحة الرسالة ونصها محلّ شك كبير فلا يمكن التعامل معها كرواية مقبولة. والأهم لدينا في هذا الصدد أنها لا تؤثر بأي شكل واضح على الفتح المقبل لبيت المقدس، إذ لا يرد فيها ذكر لأي ترتيبات خاصة بالطريق الواصل إلى بيت المقدس، بخلاف ما ورد مثلاً في عهدة الأمان إلى أهل أيلة. ولهذا طرحنا هذه الرسالة جانبًا في هذا الكتاب ولم ندرسها.

1 لقد أخفقت بعد بحثٍ مضنٍ في التحقق من احتمال وجود أصل هذه الوثيقة أو نسخة مبكرة منها.

الله وذمة محمد رسول الله، ولمن كان معهم من أهل الشام وأهل اليمن وأهل البحر، فمن أحدث حدثاً فإنه لا يحول مالُه دون نفسه، وإنه طيب لمن أخذه من الناس، وإنه لا يحل أن يُمنَعوا ماءً يَرِدونه ولا طريقاً يريدونه من بر أو بحر.[1]

ويذكر البلاذري (1992: 69) هذه الوثيقة دون الإشارة إلى نصها، ويكتفي بالإشارة إلى عهدة قدمها النبي ﷺ لثلاثمائة من أهل أيلة، ويضيف أن النبي ﷺ اتفق معهم على أن يدفعوا جزيةً مقدارها ثلاثمائة دينار سنويًا، أي بواقع دينار عن كل شخص، كما يذكر البلاذري أنّ النبي ﷺ اتفق مع أهل أيلة على أن يقدموا الطعام لأي مسلم يمرّ من أرضهم.

ولقد أشار نصّ العهدة في نهايته إلى الالتزامات المترتبة على أهل أيلة؛ "وإنه طيب لمن أخذه من الناس، وإنه لا يحل أن يُمنَعوا ماءً يَرِدونه ولا طريقاً يريدونه من بر أو بحر". وقد وقع اختلاف بين العلماء في تفسير وفهم هذه الجملة، ولكنّها تتحدث غالبًا عن الالتزام المترتّب على أهل أيلة لفتح موانئهم للمسلمين وفتح الطريق لهم.[2]

---

1 هنالك اختلافات قليلة جدًا بين المصادر التي تروي هذا النص بشكل لا يؤثر على معناه، كاستخدام "هذا" بدل "هذه"، وكلاهما اسما إشارة، وإن كان الأول للمذكر والآخر للمؤنث، إلا أنّ هذا لا يؤثر في معنى النص.

2 هذا الجزء من النص يثير إشكالاً حقيقيًا ومن شأنه أن يخلق تناقضات إن لم يقرأ بشكل صحيح. فالضمير في الجملة التي تقول: "وإنه طيب لمن أخذه من الناس" مبهمٌ ولا يعرف عائده. ويرى الباحث اللغوي الخطاب الماي أن يصعب أن نفهم المقصود بالضمير في هذه الجملة، إذ قد يعود إلى المال المذكور في الجملة قبلها، فيصبح معنى الجملة أن المال الذي يعود لأي شخص يخرق العهدة طيب ومباح لأي شخص ليأخذه. وقد ذكر الماي هذا الرأي في معرض نقاش حول القضية في معهد آل مكتوم في دندي في 30 آذار 2007. أما أسامة الأشقر فيرى أنّ الضمير هنا هو ضمير الشأن، وهو لا يعود على شيء قبله، وإنما يؤكد على طريقة جمع الجزية، فيصير معنى الجملة: "يجب تقديم الجزية بطريقة حسنة وفق هذا العهد لمن يأتي من جانب المسلمين لتحصيلها"، وقد بعث د. أسامة الأشقر هذا الرأي إليّ بالبريد في تاريخ 4 كانون الأول 2007.

وأرى أن رأي الماي غير مقبول هنا، لأن الجملة تصبح بهذا المعنى متناقضة مع التعليمات الأخرى التي ذكرها النبي ﷺ في الغزوة نفسها، أي غزوة تبوك، إذ يذكر الواقدي (2004: (2) 411) قصة صحابي يدعى رافع بن مكيث الجهني ذبح بعيراً وأخذ منه حاجته ثم تركه للناس ينتفعون به، فأمر النبي ﷺ رافعًا بأن يعيد ما أخذه وما أخذه

كما أن هذا العهد من أهم الوثائق في تاريخ هذه المنطقة. فعند النظر إلى بنوده نرى أن النبـــي ﷺ قد قام بتأمين موقع مهم على الطريق الجنوبـــي نحو بيت المقدس. إذ يتضح عند دراسة موقع هذه المدينة أنها الميناء الأساسي في بلاد الشام على البحر الأحمر، أي أنها الرابط البحري الأساسي بينها وبين بقية أجزاء شبه الجزيرة. كما كانت أيلة المحطة الأخيرة على الطريق قبل صحراء سيناء والنقب، ولعل هذا هو سبب ذكر الماء في نص العهدة.

ويمضي مايرسون (1964: 198) في تحليل نص هذه العهدة، ويقول إن المسلمين تمكنوا بفضلها "من تأمين طرق لهم في تلك المدينة التي كان بإمكان أي

الناس قائلاً "هذه نهبة لا تحل"، فقالوا للنبـــي ﷺ إن صاحبه أذن في ذلك، فأخبرهم أن ذلك لا يحل حتى وإن أذن. وتظهر هذه القصة أنّ النبـــي قد حرّم هذا الفعل في الوقت الذي منح فيه العهدة لهؤلاء الناس. فلا يعقل إذن أن يضع النبـــي ﷺ شرطاً حرّمه هو بنفسه. وننبه هنا إلى أن الماي قد أشار إلى أنه ما من سبيل إلى معرفة ما يشير إليه الضمير في الجملة، ولكنّ النظر اللغوي يكون متوجهًا في العادة إلى الاسم الأقرب للضمير، وهو في هذه الحالة المال. ولكنّ المال في رأينا ليس مقصودًا بنفسه هنا، وإنما هو إشارة إلى أنّ كل من يخالف بنود هذه العهدة سيلقى عقابه بغض النظر عن حالته من فقر أو غنى.

وعليه فإن الضمير هنا لا يعود غالبًا على المال، ولذا فإنه قد يكون كما ذكر الأشقر مجردَ ضمير شأن، أو قد يكون عائدًا إلى البحر لو سلمنا بأن جملة "وإنه طيب لمن أخذه من الناس" هي جملة معترضة. فقد تكرر ذكر كلمة البحر في الكتاب قبل ذكر الجملة المتعلقة بعقوبة من يخالف بنود العهد، بدءا من ذكر السفن والبر والبحر ومن ثم ذكر من يركب البحر من الناس. وفي هذه الحالة تكون الجملة هذه إشارةً إلى أن على أهل أيلة أن يتيحوا البحر لمن أراد استخدامه. غير أن الماي يرى أنّ هذا العهد لا يشتمل على أي التزام على أهل أيلة، لأن ضمير الجمع في الجملة الأخيرة يشير كذلك إلى أهل أيلة، أي أن لأهل أيلة الحق في استخدام طريق البر وطريق البحر وأنه لا يحل منعهم من ذلك، وبناء على هذا الرأي فإن العهدة لا تفرض على أهل أيلة أية التزامات البتة، وهذا الأمر مستبعد في وثائق النبـــي ﷺ خاصة عند النظر في المعاهدات والوثائق الأخرى المشابهة لهذا النص.

وهذا يساعدنا كذلك في فهم إشكال آخر في العبارة الأخيرة من النص، وهو أن ضمير الجمع فيها يعود إلى "الناس"، أي بعبارة أخرى "من بين الناس". ولذا يكون تفسير الجملة الأخيرة في هذا العهد أن لا يمكن للناس (من سكان أيلة) أن يمنعوا الناس (عموم الناس) من ماء الشرب أو استخدام طريق البر أو البحر. أي أنه يجب على أهل أيلة أن لا يمنعوا أحدًا من صيد السمك أو ماء الشرب أو العبور برًا أو بحرهم من قبل أيلة. ويؤكد هذا ما قاله البلاذري (1992: 69) حين أشار إلى أنّ النبـــي قد اتفق مع أهل أيلة على تزويد المسلمين المارين بأيلة بما يحتاجون من طعام.

جيش ولو صغر حجمه أن يمنع من عبور المسلمين منها إلى فلسطين". ويضيف أنّ أيلة "أمدت المسلمين بالماء والطعام ووفرت لهم مكانًا للاستراحة قبل الانطلاق في عملياتهم العسكرية عبر الصحراء". وقد نجح النبـــي ﷺ من خلال إبرام هذه العهدة في توفير محطة للتزود بالماء والطعام، وهذا أمرٌ أساسي في نجاح أو فشل أي حملة عسكرية تسلك هذه الطريق في المستقبل. وبتأمين هذا الجانب من أيلة صار الطريق الجنوبـــي إلى بيت المقدس ممهدًا. ويشير أسامة جمعة الأشقر (2006: 38) إلى أن هذه العهدة كانت بمثابة خضوع سياسي للقوة الصاعدة لدولة المسلمين.

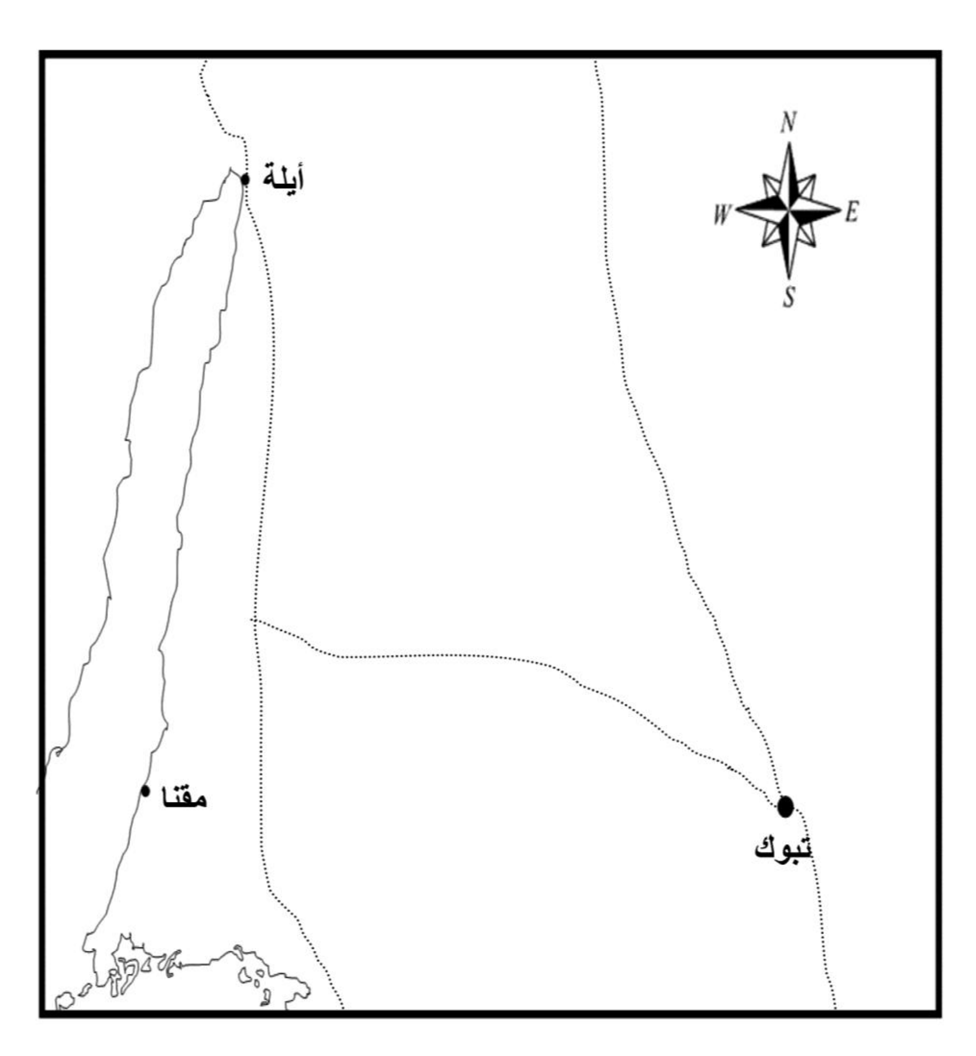
وقد أصاب مايرسون والأشقر حين أشارا إلى أن هذه العهدة لم تنجح في فتح طريق واحد من تلك الجهة وحسب، وإنما في تأمين المناطق الجنوبية لبيت المقدس بأكملها، وهي صحراء النقب، أمام الحملات العسكرية للمسلمين. إذ تمكن المسلمون ابتداءً من تلك الفترة من إطلاق حملات واسعة النطاق مزوّدة بما يكفي من الطعام والماء على طرق مفتوحة ومؤمّنة. فهذه العهدة أمّنت طريق جيوش المسلمين على طول الطريق الساحلي المؤدي إلى بيت المقدس. إن هذا الأمر يدعم في الوقت نفسه فرضية أنّ بيت المقدس هو الهدف الأساسي وراء هذه الخطوة بشكل خاص. فطريق التجارة على طول الساحل عبر أيلة يصل مباشرة إلى غزة بمحاذاة بيت المقدس. لقد كان النبـــي ﷺ مدركًا على الأغلب لاحتياجات جيوش المسلمين في المستقبل والتي ستمر عبر هذه المنطقة[1]، ولذا ارتأى أن يقدم على هذه الخطوة كي يؤمّن لهم الماء والدعم في نقطة يمكن استخدامها كنقطة تجمّع لجيوش المسلمين. ويتفق عثامنة (2000: 95) مع هذا الرأي، ويذكر أنّ الجزية التي ذُكرت في هذه العهدة، مع ما يجبيه المسلمون من المدن الأخرى المجاورة، كان كافيًا لتزويد جيوش المسلمين بالموارد المالية اللازمة لشراء ما يلزمهم. ويقتبس عثامنة روايةً وردت في تاريخ ابن عساكر (1995: (2) 82)، يذكر فيها أنه عندما سيّر أبو بكر الصديق رضي الله عنه حملةً لفتح الشام، فإن المسلمين "ساروا معهم

1 لقد سلك جيش عمرو بن العاص هذا الطريق خلال حملة المسلمين لفتح بيت المقدس، وقد خاض هذا الجيش معركة عظيمة مع البيزنطيين في منطقة داثن على الحدود الجنوبية الغربية لبيت المقدس. (انظر الواقدي (د. ت) 18، والبلاذري 1992: 127)

النساء والذرية بالخيل والسلاح ليس معهم حمار ولا شاة، فأخذوا على طريق فلسطين حتى نـــزلوا بقرية يقال لها داثن من قرى غزة"، ويرى عثامنة أنّ العهدة هي السبب وراء تحرك المسلمين على هذه الحال، فهم ليسوا بحاجة لأخذ طعام معهم لأنهم سيجدونه في طريقهم. وهذا رأيٌ وجيه، لأنّ فيه تأكيدًا على أن أيلة على الخصوص قد كانت أكبر وأهم نقطة على ذلك الطريق، وإبرام العهد مع أهلها سيضمن الدعم اللوجستي لجيوش المسلمين ويؤمّن طريقهم باتجاه بيت المقدس.

العهد إلى أهل مقنا

ورد ذكر مقنا في العديد من المصادر التاريخية، ويظهر أنّ هذه القرية كانت مشهورة في القرن السابع، ربما بسبب موقعها على الطريق بين الساحلي بين الشام وشبه الجزيرة العربية. ويمكن معرفة ذلك من خلال النظر في النصوص التي ذكرت القرية، فياقوت الحموي (1990: (5) 206) يقول إن مقنا قرية على مقربة من أيلة، ويروي وصفَ الواقدي للعهد التي منحه النبـــي ﷺ لأهل مقنا. هذه القرية التي تكرر ذكرها في المصادر التاريخية هي نفسها المقنا، إحدى مدن المملكة العربية السعودية الآن، والتي تبعد حوالي 129 كم جنوب مدينة العقبة على البحر الأحمر. إن الموقع الذي تحتله مقنا، كما يظهر في الخريطة رقم 2، يفسّر أهميتها الكبيرة في السيطرة على الطريق الساحلي بين شبه الجزيرة وبلاد الشام.



الخريطة (2): موقع مقنا على ساحل البحر الأحمر
وارتباطها بالطريق التجاري الساحلي.

ويروي الحموي (1990: (5) 206) أنّ أهل مقنا، كما يذكر الواقدي، كانوا يهودًا، ولكنّ الواقدي في واقع الأمر (2004: (2) 410–411) لم يذكر أن جميع أهل مقنا كانوا يهودًا، وإنما أشار فقط إلى أنّ امرأة يهودية كانت تعيش فيها. بيد أنّ البلاذري أيضًا (ت. 279 للهجرة/829 ميلادية) يذكر كذلك أنّ أهل مقنا من اليهود (انظر البلاذري 1992: 69)، ولذا يمكن القول إن أهل مقنا كانوا يدينون باليهودية على الأغلب، إذ لم ترد روايات أخرى تذكر غير ذلك.

ورد ذكر عهد النبي ﷺ إلى أهل مقنا في العديد من المصادر التاريخية، باستثناء ابن إسحاق وابن هشام. إلا أنّ ذكر الواقدي والبلاذري لها يعطيها شيئًا من الموثوقية، فالبلاذري (1992: 70) لا يكتفي بذكر قصة العهدة وإنما يشير إلى نصها كما ينقله عن رجل من مصر يدّعي أنّه رأى نص العهدة. كما ورد ذكر هذه العهدة لأهل مقنا عند ابن سعد (1997: (1) 221)، وهذا يزيد من ثقتنا بوجود هذه الوثيقة.

إحدى النسخ التاريخية الأولى لهذه العهدة هي النص المختصر الذي أورده الواقدي (2004: (2) 410). أما النسخة الثانية فأوردها البلاذري (1992: 70)، وجاءت الثالثة عند ابن سعد في طبقاته (1997: (1) 212). أما النسخة الرابعة فقد عثر عليها ضمن محتويات وثائق جينيزا القاهرة، وقد ترجمت ونشرت عام 1903 على يد هارتفيج هيرشفيلد (1903: 167–181).

العهدة إلى أهل مقنا: النسخة (1)

ذكر الواقدي هذا النصّ لأول مرةٍ، ورواه مختصرًا، ثم تناقله العديد من المؤرخين من بعده، ومنهم ابن سعد (1997: (1) 221) والمقريزي (ت. 845 للهجرة/1442 ميلادية) (د. ت: (1) 469):

> قالوا: وكتب لأهل مقنا إنهم آمنون بأمان الله وأمان محمد وإن عليهم ربع غزولهم وربع ثمارهم

قد يقول قائل إن الواقدي يضعّف هذا النصّ تلقائيًا عند نقله بكلمة "قالوا"، بيد أنّه أسلوب ليس بغريب على الواقدي في كتاب المغازي، فهو يقتبس عن كثيرٍ من الناس في آنٍ معًا، ويجمع ما قالوه في اقتباس واحد، تمامًا كما فعل حين تكلم

عن سريّة خالد بن الوليد رضي الله عنه إلى دومة الجندل (انظر الواقدي 2004: (2) 405)، وليس هذا بسببٍ لتضعيف الرواية. ولكنّ الواقدي في الوقت نفسه لا ينقل نصّ العهدة بحذافيره، وإنما يكتفي بالإشارة إلى محتواها العام، فلا يذكر مقدمتها ولا خاتمتها من ذكرٍ لله وتمجيده أو التحية والسلام كما درجت العادة. ويدلّ هذا على أنّ الواقدي لم يحصل على النصَّ الأصلي للعهدة و لم يرَه، ولذا لجأ إلى اقتباس ما سمعه من الرواة الثقات لديه. كما أنّ نقلَ الواقديّ الحرفيّ، ولو لجزء بسيط من نص العهدة لأهل مقنا، يدعم صحة هذه الرواية، ذلك أنها تدلّ على أنّ الواقدي، حتى لو لم يتمكن من الحصول على النص الصريح للعهدة، فإنه كان قادرًا على نقل ما اشتملت عليه وبيان تفاصيل الجزية المفروضة على أهل مقنا.[1]

العهدة إلى أهل مقنا: النسخة (2)

وردت النسخة الثانية من هذه العهدة في طبقات ابن سعد (1997: (1) 212)، وعند البلاذري (1992: 70). ويذكر البلاذري رجلاً مصريًا يدّعي أنه رأى الكتاب الأصلي من عهدة النبيّ لأهل مقنا، والذي كانت مكتوبًا على "جلدٍ أحمر دارس الخطّ"، وأن هذا الرجل قام بنسخه، ومن ثم أملى نسخته على البلاذري. ويوضح هذه النصّ تفاصيل هذه العهدة ويكشف بعض الجزئيات التي لم ترد في نسخة الواقدي:

بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى بني حبيبة، وأهل مقنا. سِلمٌ أنتم، فإنه أنـــزل علي أنكم راجعون إلى قريتكم، فإذا

---

1 جدير بالذكر هنا أن الواقدي غير معتمد عند عدد من المؤرخين وأهل الحديث ويتهم بالضعف في رواياته جميعها، ولكنّي حين درست ترجمة الواقدي وجدت أنه من أكثر المؤرخين موثوقية فيما يتعلق بمغازي النبـــي ﷺ. وقد جمع ابن سيد الناس (1974: (1) 17–21) العديد من الآراء والأقوال للعلماء والمؤرخين بخصوص الواقدي في معرض الدفاع عنه والثناء عليه. كما قام د. رزوي فايزر بدراسة مغازي الواقدي في سعي منه للتحقق من صحة الكتاب ومدى موثوقيته ووجد أن الواقدي مصدر معتمد فيما يتعلق بمغازي النبـــي ﷺ (انظر فايزر 1999: 106). ولهذا نميل نحن كذلك إلى الاعتماد على الواقدي في سيرة النبـــي ﷺ والمغازي ونشير إلى أنّه لا يمكن نقد مرويات الواقدي باستخدام منهجية الحديث الصارمة وذلك لأنها قصص تاريخية في سيرة النبـــي ﷺ وليست أحاديث تتعلق بصلب تعاليم النبـــي ﷺ كما هو الحال في الأحاديث.

جاءكم كتابي هذا فإنكم آمنون ولكم ذمة الله وذمة رسوله، وإن رسول الله قد غفر لكم ذنوبكم، وكل دم أتبعتم به، لا شريك لكم في قريتكم إلا رسول الله، أو رسول رسول الله، وإنه لا ظلم عليكم ولا عدوان، وإن رسول الله ﷺ يجيركم مما يجير منه نفسه، فإن لرسول الله بَزُّكم ورقيقكم والكراع والحلقة، إلا ما عفا عنه رسول الله، أو رسول رسول الله، وإن عليكم بعد ذلك ربع ما أخرجت نخيلكم وربع ما صادت عروككم، وربع ما اغتزلت نساؤكم، وإنكم قد ثريتم بعد ذلك ورفعكم رسول الله ﷺ عن كل جزية وسخرة، فإن سمعتم وأطعتم فعلى رسول الله أن يكرم كريمكم ويعفو عن مسيئكم، ومن ائتمر في بني حبيبة، وأهل مقنا من المسلمين خيراً فهو خير له، ومن أطلعهم بشر فهو شر له، وليس عليكم أمير إلا من أنفسكم أو من أهل بيت رسول الله ﷺ وكتب علي بن أبي طالب في سنة تسع.

هنالك إشكال في هذا النص الذي يورده البلاذري يقع تحديدًا في العبارة الأخيرة التي تشير إلى أنّ عليًا رضي الله عنه هو من كتب العهدة، إذ يقول محمّد بن أحمد بن عساكر في حاشيته على كتاب البلاذري (1992: 70–71):

وفي هذا نظر لذي فهم بتأمله يبين له أن هذا الكتاب مفتعل والدليل على ذلك من وجهين أحدهما: أن علياً كرم الله وجهه هو الذي اخترع الكلام في علم النحو خشية من اختلاط كلام العرب بكلام النبط، فما كان عليه السلام ليخشى من شيء ويعتمد ما يؤدي إلى الالتباس، والثاني أن صلح رسول الله ﷺ لأهل مقنا إنما كان في غزوة تبوك على ما هو مذكور في هذا الكتاب ولا خلاف في أن علياً لم يكن مع النبي ﷺ في غزوة تبوك فكيف ينسب هذا الكتاب إليه؟[1]

1 وقد ذكر هذا التعليق في حاشية كتاب البلاذري، والذي كتبه هو محمد بن أحمد بن عساكر، وليس عليًا بن الحسن بن عساكر صاحب تاريخ دمشق.

وقد أصاب ابن عساكر في هذه النقطة التي لفت الانتباه إليها، ونـــزيد عليها أنّ استخدام التقويم الهجري قد بدأ على الأرجح في العام السابع عشر للهجرة (انظر العويسي 2005: 38)، فلا يمكن أن يتمّ ذكر العام التاسع للهجرة قبل سبع سنوات من العمل بهذا التقويم. وقد أضيفت تلك النسخة التي يذكرها ذلك التاريخ في نهاية النسخة التي يوردها البلاذري على الأغلب على نسخة الرجل المصري، أو قد تكون أضيفت على النسخة التي نقل منها الرجل المصري نسخته.

كما أنّ ذكر إبطال الجزية في هذا النص يثير إشكالاً آخر، لأنّ ذلك يسبب تناقضًا داخليًا بين ما يرد في الكتاب من استحقاق النبيّ ﷺ لجميع نسيج أهل مقنا وعبيدهم وأسلحتهم وماشيتهم وكل ما في بيوتهم، ومن ثم إلزامهم بتقديم الربع من كلّ منتوجاتهم، وبعد كل هذا يذكر النص إلغاء الجزية من أساسها.

العهدة إلى أهل مقنا: النسخة (3)

وردت النسخة الثالثة من نص هذه العهدة عند ابن سعد (1997: (1) 212)، وهي لا تختلف كثيرًا عن نسخة البلاذري:

> أما بعد، فقد نـــزل علي أيتكم راجعين إلى قريتكم فإذا جاءكم كتابـــي هذا فإنكم آمنون لكم ذمة الله وذمة رسوله لا ظلم عليكم ولا عدى، وإن رسول الله جاركم مما منع منه نفسه، فإن لرسول الله بزكم وكل رقيق فيكم والكراع والحلقة إلا ما عفا عنه رسول الله أو رسول رسول الله، وإن عليكم بعد ذلك ربع ما أخرجت نخلكم وربع ما صادت عروككم وربع ما اغتزل نساؤكم وإنكم برئتم بعد من كل جزية أو سخرة، فإن سمعتم وأطعم فإن على رسول الله أن يكرم كريمكم ويعفو عن مسيئكم. أما بعد فإلى المؤمنين والمسلمين، من أطلع أهل مقنا بخير فهو خير له، ومن أطلعهم بشر فهو شر له، وأن ليس عليكم أمير إلا من أنفسكم أو من أهل رسول الله والسلام.

من الاختلافات الطفيفة بين هذه النسخة ونسخة البلاذري أنّ هذا النسخة تنتهي بلفظة "والسلام"، بينما تخلو نسخة البلاذري منها. ومن نقاط الاختلاف المهمة بين النسختين أن هذه النسخة لا تذكر اسم الكاتب ولا تاريخ تدوين

الكتاب، بخلاف البلاذري حين ذكرَ أن الكاتب هو عليّ كرم الله وجهه، وأن الكتاب قد دوّن في السنة التاسعة للهجرة.

كما أنّ ابن سعد لا يذكر مصدرًا محدّدا للنص الذي أورده في كتابه، وإنما يذكر عددًا من الرواة الذين يقتبس منهم الكثير من نصوصه، بخلاف ما فعل البلاذري حين قال إنه نسخ النص من كتاب نقلَ مباشرة عن كتاب العهدة الأصلي. بقي أن نشير هنا إلى أنّ ابن سعد توفي عام 230 للهجرة/845 ميلادية، بينما توفي البلاذري عام 279 للهجرة/892 ميلادية، أي أن ابن سعدٍ كان سابقًا للبلاذري. ثمّ إن ابن سعد التقى الواقدي وصحبه فترةً طويلة كما ورد في ترجمته، لذا ليس مستبعدًا أن يكون قد نقل هذه الرواية عن الواقدي نفسه، خاصّة إذا علمنا أنّه ينقل عن الواقدي كثيرًا في غير موضع من كتبه، عدا عن أنه يحاكي الأسلوب الذي يتبعه الواقدي في رواياته في النقل عن عدد من الرواة وجمع كلامهم في رواية واحدة. نجد في الوقت نفسه أن نقطة الاختلاف الكبرى في نص ابن سعد تتمثل في قضية الجزية، ففي حين يذكر البلاذري أن الجزية قد أسقطت عن أهل مقنا، فإن ابن سعد يذكر أنّ الجزية مثبتة وأنّ مقدارها ربع نتاج أهل مقنا، وهي كلّ ما يطلبه النبـــي ﷺ منهم.

العهدة إلى أهل مقنا: النسخة (4)

تم العثور على نسخة أخرى من هذه العهدة في وثائق جينيزا القاهرة، حيث ترجمت ونشرت أول مرة عام 1903، وقام بهذا الجهد الباحث الألماني هارتفيج هيرشفيلد (1903: 167–181). ما يميز هذه النسخة أنها أكثر تفصيلاً من النسخ الأخرى، ويرى هيرشفيلد (1903: 172) أنّ هذه المخطوطة نسخة عن الكتاب الأصلي للعهدة.

وقد كتب نص هذه المخطوطة باللغة العربية ولكن بحروف عبرية، وقد كتب على الورق (هيرشفيلد 1903: 169). وتنقسم هذه المخطوطة إلى قسمين: تقديمٍ كتبه شخص غير معروف يدّعي أنّه أسلم بعد أن كان يهوديًا، ويبدو أنه هو من كتب القسم الثاني من المخطوطة والذي يشتمل على نص الكتاب الذي أملاه النبيّ

على عليّ كرم الله وجهه، حسبما يقول هذا الرجل، ومن ثم يورد النص الطويل للعهدة، والذي ترجمه هيرشفيلد إلى الإنجليزية (1903: 170-172)، ونقل حميد الله الأصل العربـــي كما يلي:

بسم الله الرحمن الرحيم، هذا كتاب من محمد رسول الله لحنينا[1]، ولأهل خيبر[2] والمقنا ولذراريهم، ما دامت السماوات على الأرض. سلام أنتم، إني أحمد إليكم الله الذي لا إله إلا هو. أما بعد: فإنه أنـــزل علي الوحي أنكم راجعون إلى قراكم وسكنى دياركم، فارجعوا أمني بأمان الله وأمان رسوله، ولكم ذمة الله وذمة رسوله على أنفسكم ودينكم وأموالكم ورقيقكم وكل ما ملكت أيمانكم. وليس عليكم أداء جزية، ولا تجز لكم ناصية، ولا يطأ أرضكم جيش، ولا تحشدون ولا تحشرون ولا تعشرون ولا تظلمون، ولا يجعل أحد عليكم رسماً، ولا تمنعون من لباس المشققات والملونات، ولا من ركوب الخيل ولباس أصناف السلاح. ومن قاتلكم فقاتلوه، ومن قتل في حربكم فلا يقاد به أحد منكم ولا له دية. ومن قتل منكم أحدَ المسلمين تعمداً فحكمه حكم المسلمين. ولا يفترى عليكم بالفحشاء، ولا تنـــزلون منـــزلة أهل الذمة، وإن استعنتم تعانون، وإن استرفدتكم ترفدون. ولا تطالبون بيضاء ولا صفراء ولا سمراء ولا كراع ولا حلقة ولا (شد الكشتيز ولا لباس المشهرات)[3]، ولا يقطع لكم شسع نعل، ولا تمنعون دخول المساجد، ولا تحجبون عن ولاة المسلمين، ولا يولى عليكم وال إلا منكم أو من أهل بيت رسول الله. ويوسع لجنائزكم إلا أن تصير إلى موضوع الحق اليقين.

---

1 وهكذا ورد عند هيرشفيلد في النص الأصلي، وكتابتها العبرية هي "**חנינא**" ويلفظها حميد الله (1987: 121) حُنانا بضم الحاء.

2 خيبر هي أهم مدينة كان يقطنها اليهود في شبه الجزيرة العربية، وبقيت ذات أهمية عظيمة لليهود حتى العام السابع للهجرة حيث قاد النبـــي ﷺ بنفسه جيشًا للهجوم عليها، فسقطت أمامه وفتحها، ولكنّه أبقى على سكانها فيها (انظر ابن إسحاق 2004: 470-493)

3 الكلمات بين القوسين ليست عند هيرشفيلد في النص الإنجليزي الأصلي لدراسته.

وتكرموا لكرامتكم وكرامة صفية[1] ابنة عمكم. وعلى أهل بيت رسول الله وعلى المسلمين أن تكرم كريمكم ويعفوا عن مسيئكم. ومن سافر منكم فهو في أمان الله وأمان رسوله. ولا إكراه في الدين. ومن منكم اتبع ملة رسول الله ووصيته، كان له ربع ما أمر به رسول الله لأهل بيته، تعطون عند عطاء قريش وهو خمسون ديناراً، ذلك بفضل الله عليكم. وعلى أهل بيت رسول الله وعلى المسلمين الوفاء بجمع ما في هذا الكتاب. فمن أطلع لحنينا وأهل خيبر والمقنا بخير فهو أخير له ومن أطلع لهم بـــ (شر) فهو شر له. ومن قرأ كتابـــي هذا، أو قرئ عليه وغير أو خالف شيئاً مما فيه، فعليه لعنة الله ولعنة اللاعنين من (الملائكة) والناس أجمعين، وهو بريء من ذمتي وشفاعتي يوم القيامة وأنا خصمه، ومن خصمني فقد خصم الله، ومن خصم الله فهو في النار، والـــ (......) ـــة وبئس المصير. شهد (الـــ) ـــله الذي لا إله إلا هو كفـــ (ـــى) به شهيداً وملائكته (حملة عـــ) ـــرشه ومن حضر من المسلمين، وكتب علي بن أبو (!) طالب بخطه، ورسول الله يملي عليه حرفاً حرفاً، يوم الجمعة لثالث (!) ليال خلت من رمضان سنة خمس مضت من الهجرة. شهد (عمار) بن ياسر وسلمان الفرارسي (!) مولى رسول الله وأبو ذر الغفاري.[2]

في هذا النص إشكالات عديدة؛ فهو يشتمل على مفردات يستبعد أن النبـــي ﷺ كان يستخدمها، مثل كلمة "كاشتيز"، وهي كلمة ليست عربية، كما أنّ نظرة متأنية إلى هذا النص ستكشف لنا العديد من القضايا ومنها:

1. لقد جاء هذا النص ضمن وثائق جينيزا القاهرة، وهذا يعني أن تدوينه جاء متأخرًا، إذ تعود معظم وثائق جنيزة القاهرة إلى القرن الحادي عشر للميلاد (بِن ساسون 2007: (7) 462).

---

1 صفية بنت حيي بن أخطب، زوجةِ النبـــي ﷺ، تزوجها في العام السابع للهجرة بعد خيبر (انظر ابن إسحاق 2004: 480)

2 أخذنا النص العربـــي الأصلي كما هو من كتاب الأستاذ حميد الله.

2. هذا النص يتحدث عن أهل خيبر كما يتحدث عن أهل مقنا.
3. يستثني هذا النص أهل مقنا والخيبر من الجزية ويخبر بأنهم ليسوا من أهل الذمّة ولا يعاملون معاملتهم، وهذا أمر لم يكن له أن يحدث في عهد النبـــي ﷺ، فمعروف في السيرة وكتب التاريخ أنّه ألزم أهل خيبر بأداء نصف محاصيلهم مقابل بقائهم في خيبر (انظر ابن إسحاق 2004: 492).
4. هذه النسخة تعكس القضية المتعلقة بأداء الربع مما ينتج أهل مقنا، كما ورد في النسختين الأولى والثانية، إذ يشير النص هنا إلى أنّ النبيّ ﷺ هو الذي سيدفع لأي شخص يدخل في الإسلام من خيبر أو مقنا، ولا يذكر ما يجب عليهم أداؤه للنبـــي ﷺ.
5. إن التاريخ الوارد في النص هو العام الخامس للهجرة، أي قبل غزوة خيبر.
6. يرد في النص ذكر صفية رضي الله عنها، والتي تزوجها النبـــي ﷺ بعد غزوة خيبر.

هذه النقاط تجعل النص يبدو مختلقًا، ونحن نختلف مع هيرشفيلد الذي يدافع بدوره عنه ويدّعي صحته، ولا يستوقفه (1903: 172) سوى إشكالٍ واحدٍ يتعلق بالتاريخ المذكور في هذه النسخة وأنه يجب أن يكون في العام التاسع للهجرة على الأغلب. ولكنَّ عليًا كرم الله وجهه لم يكن في تبوك مع النبـــي ﷺ، كما أسلفنا عند الحديث عن النسخة الثانية من العهدة. ويزعم هيرشفيلد أنه يصعب أن يقدم هذا الرجل الذي يصف نفسه بأنه انتقل عن اليهودية معتنقًا الإسلام على تلفيق النص، كما يقول هيرشفيلد إنه كتاب شهد عليه ثلاثة من الصحابة الثقات، وهذا يزيد من مصداقيته في رأيه. بيد أنّه يمكن الردّ على هذه الحجج التي يوردها هيرشفيلد، فكون الكاتب مسلمًا لا يكفي بذاته للقول بصحة النص، وذلك لسببين اثنين، الأول أنّه رغم ادعاء هذا الرجل أنّه قد أسلم، إلا أنه يذكر في مقدمته بعض الأمور غير المعروفة لدى المسلمين، كقوله "ستّة أيام في الجمعة الزهراء"، وغيرها من غريب الألفاظ، والسبب الثاني أن الكاتب نفسه غير معروف، ولم يفصح عن اسمه ولم يعرّف عن ذاته. ثم إنّ

ذكر ثلاثة من أصحاب النبـــي ﷺ ليس دليلاً كافيًا في ذاته على صحة النص، فهم وإن ورد ذكرهم إلا أنهم لم يوقعوا عليه فعلاً، كما أن هيرشفيلد نفسه يذكر أنّ هذا النص نسخةٌ عن أصل، وهكذا يكون أي توقيع عليه غير أصلي كذلك.[1] وكل هذا يقودنا إلى الحكم بأنّ هذه النسخة غير صحيحة على الأغلب.

وبعد هذا التحليل لأربع نسخ من نص العهدة، نرى أنّ النسخة التي ذكرها ابن سعد (1997: (1) 212) هي الأكثر صحةً ويعزّز ذلك اللغة الواردة فيها وسياقها بشكل عام:

> أما بعد، فقد نـــزل علي أيتكم راجعين إلى قريتكم فإذا جاءكم كتابـــي هذا فإنكم آمنون لكم ذمة الله وذمة رسوله لا ظلم عليكم ولا عدى، وإن رسول الله جاركم مما منع منه نفسه، فإن لرسول الله بزكم وكل رقيق فيكم والكراع والحلقة إلا ما عفا عنه رسول الله أو رسول رسول الله، وإن عليكم بعد ذلك ربع ما أخرجت نخلكم وربع ما صادت عروككم وربع ما اغتزل نساؤكم وإنكم برئتم بعد من كل جزية أو سخرة، فإن سمعتم وأطعم فإن على رسول الله أن يكرم كريمكم ويعفو عن مسيئكم. أما بعد فإلى المؤمنين والمسلمين، من أطلع أهل مقنا بخير فهو خير له، ومن أطلهم بشر فهو شر له، وأن ليس عليكم أمير إلا من أنفسكم أو من أهل رسول الله والسلام.

---

1 يذكر حميد الله (1987: 124-125) قصة يدّعي فيها مجموعة من اليهود أن في حوزتهم وثيقة من النبـــي ﷺ كتبها علي بن أبـــي طالب ورد فيها إسقاط الجزية عن أهل خيبر، وحين عرض هذا الكتاب على الخطيب البغدادي (ت. 462 للهجرة/1069 ميلادية) حكم بعدم صحة الكتاب، إذ ورد فيه ذكر سعد بن معاذ، والذي توفي قبل سنتين من فتح خيبر، كما ذكر فيه معاوية، وهو قد أسلم بعد عام من فتح خيبر. ثم ينقل حميد الله عن ابن القيم قوله بأنه ما من جزية فرضت على اليهود في خيبر، لأن آية الجزية قد تنـــزلت بعد سنتين من خيبر، أي في العام التاسع للهجرة. ويخلص حميد الله إلى أنّ هذا النص إنما كان "نسخة محسنة" عن ذلك الكتاب المزيف في قصة أولئك اليهود، فحلت أسماء عمّار وسلمان وأبـــي ذر مكان سعد ومعاوية.

تشكّل هذه العهدة رابطًا مهمًا بين هذه القصة وما تبعها من حوادث. فالمقنا تحتل موقعًا استراتيجيا مهمًا ومركزيًا في نقطة ينقسم فيها البحر الأحمر إلى خليجين. ولقد كانت سيطرة المسلمين على هذه المدينة تعني سيطرتهم على الطريق الساحلي المؤدي إلى الشام وإلى مصر وجنوب سيناء، وهي المدخل الجنوبـــي لبيت المقدس.

إلا أنّ الموقع الذي تتمتع به مقنا ليس هو السبب الوحيد الذي دعا النبيّ ﷺ لمنح أهل مقنا هذه العهدة. فهنالك شرطٌ ورد في نص العهدة يتعلق بملكية "الحلقة"، وهي كل ما اشتمل عليه البيت من سلاح ومال (انظر ابن سعد: 1997: (1) 212). ولكن العهدة في الوقت نفسه لا تمنع أهل مقنا من امتلاك السلاح أو المال. وهنالك شرط آخر يلزمهم بدفع ربع خراجهم، واجتماع هذين الأمرين في عهدة واحدة أمرٌ مستبعد. ولهذا فإن هذا الشرط يشير على الأغلب لأي احتياجات قد تطلب في المستقبل من أهل مقنا، وهذا يجعل من مقنا محطةً مالية وعسكرية لجيوش المسلمين في المستقبل، خاصة أن مقنا تقع على الطريق الساحلي بين شبه الجزيرة العربية وبلاد الشام، وهي طريق أطول من الطريق البري. وهذا شرط في غاية الأهمية، لأنّ النبـــي ﷺ تمكّن من خلاله من تأمين محطة تسلّح لجيش المسلمين على الطريق الساحلي باتجاه بيت المقدس.

كما يمكن أن تعدّ مقنا وفق هذه الشروط الواردة في العهدة محطة أساسية لتزويد جيش المسلمين بالطعام، فقد كان على أهل مقنا تقديم الربع من مختلف ما ينتجون، وليس الربع من كل ما ينتجون. وكان هذا يعني توفير الطعام واللباس لأي جيش من جيوش المسلمين يمر بهذه المدينة في المستقبل.[1] وكل هذا يعزّز من فكرة أنّ النبيّ ﷺ كان يطبق استراتيجية من شأنها أن تساعد المسلمين في المستقبل على فتح الأجزاء الشمالية الغربية الواقعة على هذه الطريق، وبالأخص منطقة بيت المقدس.

1 إن القضية المتعلقة بقيادة مقنا وما إذا كانت لأهل مقنا أنفسهم أو لشخص من آل بيت النبـــي ﷺ هي قضية خارج نطاق بحثنا هذا.

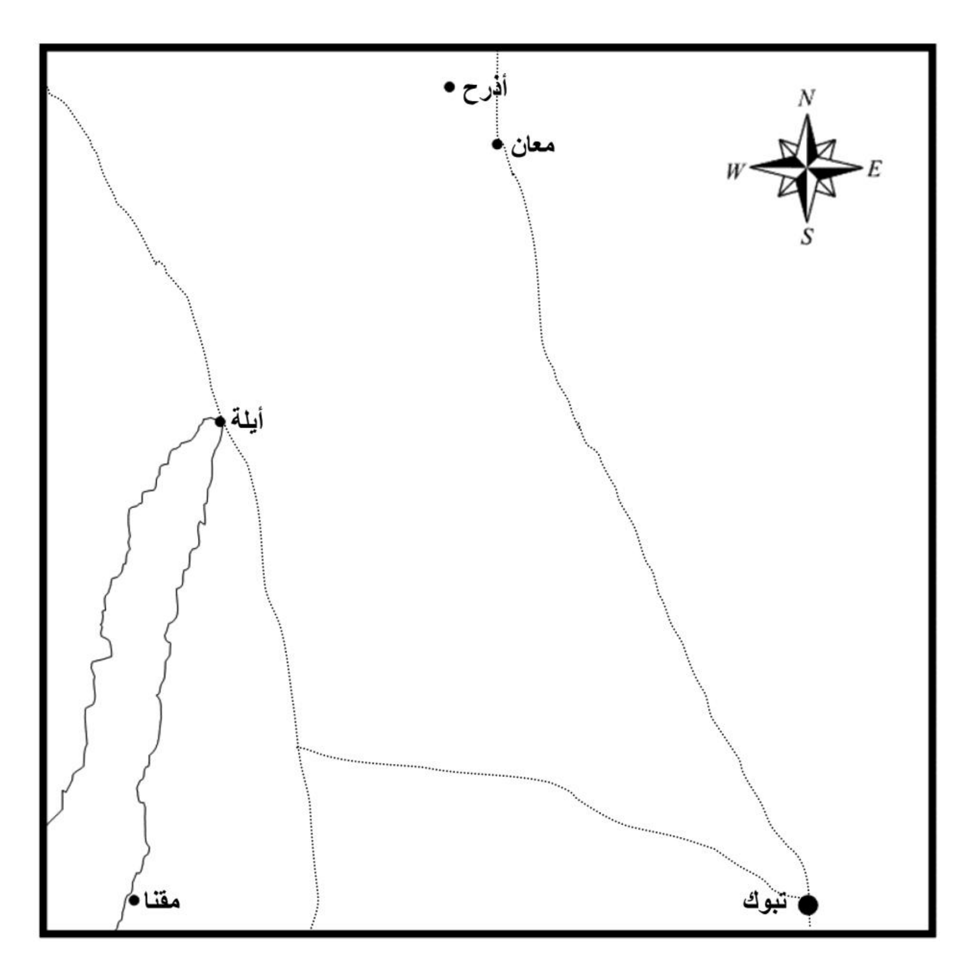
معاهدة النبي ﷺ لأهل أذرح

لأذرح دور مهم في تاريخ المسلمين، فقد شهدت أرضها حادثة التحكيم بين علي بن أبـــي طالب كرم الله وجهه ومعاوية بن أبـــي سفيان رضي الله عنه (ابن سعد 1997: (2) 23). كما يظهر أنّ هذه المدينة قد كانت تحتل مكانة مهمة في وقت مبكر من تاريخ المسلمين، ولعل هذا ما دعا النبيّ ﷺ للاهتمام بها بشكل خاص.[1]

ويذكر ياقوت الحموي (1990: (1) 157–158) مدينة أذرح، ويذكر أنها تقع قرب جبال الشراه، وهي اليوم ضمن حدود المملكة الأردنية الهاشمية[2]، وما تزال تدعى أذرح حتى الآن، وهي على بعد 21 كم شمال غرب مدينة معان، كما يظهر في الخريطة رقم 3:

1 هنالك مدينة أخرى ذكرت في السياق نفسه، وهي مدينة جربا، والتي قلّما يرد لها ذكر في تاريخ المسلمين إلا من حيث ارتباطها بأذرح. وقد جاء ذكر كلا المدينتين في حديث النبـــي ﷺ، وهو حديث ورد عند مسلم (2000: (2) 991)، ويقول النبـــي ﷺ فيه: إن أمامكم حوضاً ما بين ناحيتيه كما بين جربا وأذرح. فقال أحد رواة الحديث، وهو عبيد الله "فسألته (أي سأل الراوي، وهو نافع، عن المدينتين)، فقال: قريتين بالشام بينهما مسيرة ثلاثة أيام.

2 يذكر الحموي مدينة جربا (1990: (2) 137) ويصفها بأنها قربة صغيرة تابعة لأذرح، فيبدو أن بين هاتين المدينتين ارتباطًا تاريخيًا مع أنّ المدينة الأساسية هي أذرح. ويبدو كذلك أن اسم جربا قد تغير، فما من قرية ولا مدينة قريبة من أذرح اليوم تعرف باسم جربا.



الخريطة (3): موقع أذرح وارتباطها بالطرق التجارية.

يظهر لنا أهمية موقع أذرح، وذلك بسبب محاذاتها للطريق الصحراوي والذي يربط بين الشام وشبه جزيرة العرب، وكأنها خط فاصل بينهما، فتسيطر على الطريق الذي يقع على الحدود بين الشام والجزيرة، ولعل هذا ما يفسر أهمية هذه المعاهدة مع هذه المدينة.

هنالك خلط كبير في المصادر التاريخية بخصوص معاهدة أذرح. فبعضها يذكر معاهدة واحدة، وغيرها من المصادر يذكر معاهدة ثنائية لأذرح ولمدينة مجاورة لها تدعى جرباء، بينما تذكر مصادر أخرى وجود معاهدتين منفصلتين، واحدة لأذرح وأخرى لجرباء. وبعد الاطلاع على المصادر المتعددة توصلنا إلى النتائج التالية:

المصدر	الرأي
الواقدي (ت. 207 للهجرة/823 ميلادية)	يذكر معاهدتين، واحدة لأهل أذرح فقط وأخرى لأهل أذرح وجرباء، ولكنّه يذكر نص المعاهدة لأهل أذرح فقط
ابن سعد (ت. 230 للهجرة/844 ميلادية)	يذكر معاهدة مشتركة لأهل أذرح وجرباء
البلاذري (ت. 279 للهجرة/892 ميلادية)	يذكر معاهدتين منفصلتين، واحدة لأهل أذرح والأخرى لأهل جرباء، ولكنّه لا يورد ذكر نصّ أي منهما.
ابن هشام (ت. 218 للهجرة/833 ميلادية)	يذكر معاهدة مشتركة لأهل أذرح وجرباء، من دون ذكر النص.
ابن كثير (ت. 774 للهجرة/1372 ميلادية)	يذكر معاهدة مشتركة لأهل أذرح وجرباء.
المقريزي (ت. 845 للهجرة/1442 للميلاد)	يذكر معاهدتين منفصلتين: واحدة لأهل أذرح وأخرى جرباء، ويذكر نصّ كل من المعاهدتين

الجدول (1): الآراء المختلفة للعلماء في قضية معاهدة أذرح

الاختلاف هنا يتعلق بما يذكره الواقدي (2004: (2) 410) من أنه عاين وثيقة العهدة لأهل أذرح وأنه قام على نسخها بيده، ولم يدّع أحدٌ سواه رؤية النسخة الأصلية من الكتاب، ولذا فإن رواية الواقدي لنص معاهدة أذرح قد تكون الأكثر صحّة بما أنّه المؤرخ الوحيد الذي وقع على الأصل. يبقى الإشكال هنا أنّ الواقديّ

رغمَ أنّه رأى الكتاب الأصليّ إلا أنّه يروي نصًّا مقتضبًا عن معاهدة أذرح، ويقول إنّ هذا ما كتبه النبـــي ﷺ لكلٍّ من أهل جرباء وأذرح[1]. وفيما يلي هذه النسخة الأولى المختصرة مما يرويه الواقديّ لكتاب المعاهدة (2004: (2) 410):

وكتب رسول الله ﷺ لأهل جرباء وأذرح: (هذا الكتاب من محمد النبـــي رسول الله لأهلِ أذرح، أنهم آمنون بأمان الله وأمان محمد، وأن عليهم مائة دينار في كل رجب وافيةً طيبة والله كفيل عليهم)

ثم يذكر الواقدي (2004: (2) 410) النسخة الكاملة من العهدة ذاكرًا أنّه قد عاين الكتاب الأصلي:

> قال الواقدي: نسخت كتاب أذرح وإذا فيه: (بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد النبـــي لأهل أذرح، أنهم آمنون بأمان الله وأمان محمد، وأن عليهم مائة دينار في كل رجب وافيةً طيبة، والله كفيل عليهم بالنصح والإحسان للمسلمين ولمن لجأ إليهم من المسلمين من المخافة والتعزير إذا خشوا على المسلمين، وهم آمنون حتى يحدث إليهم محمد قبل خروجه).

كلتا النسختين تتشابه في الأجزاء المشتركة بينهما، إلا أنّ الواقديّ في الأولى يذكر أنّ العهدة كانت لأهل أذرح وجرباء، بينما يذكر الكتاب بوضوح أنها كانت حصرًا لأهل أذرح، وهذا إشكال يطرح احتمالات ثلاثة:

1. أن الواقدي سمعَ الرواية الأولى للنسخة المختصرة من العهدة والتي تذكر أنها كانت لكل من أذرج وجرباء، وينقل هذه النسخة في كتابه أولاً، ومن ثمّ رأى الواقدي الكتاب الأصلي ووجد أنّه يذكر أهل أذرح وحسب، فقام بإضافة نص الكتاب كما رأه. ويمكن استنتاج ذلك من تقديم نص الكتاب الأصل بقوله "قال الواقدي: نسخت..."، وهذا يظهر احتمال أنّ هذه الإضافة ليست من الواقدي نفسه، وإنما من طالبه الذي دوّن كتابه.

---

1 يقول الواقدي (2004: (2) 410) "وكتب رسول الله ﷺ لأهل جرباء وأذرح: (هذا الكتاب من محمد النبـــي رسول الله لأهل أذرح....)" ثم يذكر الكتاب المختصر، ويقول بعد ذلك: "نسخت كتاب أذرح وإذا فيه: "بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد النبـــي ﷺ لأهل أذرح.....)"

2. أنّ الواقدي لم يكن على علمٍ بوجود عهدة أخرى لأهل جرباء، فظنّ أنّ العهدة لأهل أذرح هي لأهل جرباء كذلك، أيّ أنّه لم يفرّق بين المدينتين، خاصّة أنهما كانتا تذكران معًا في العادة.
3. أنّ القول بأنّ الواقدي قد نسخ النص مباشرة من الكتاب الأصلي أمر مكذوب عليه.

ونحن هنا نستثني الاحتمال الثالث، إذ إن كتاب المغازي للواقدي الذي بين أيدينا اليوم هو الكتاب الأصلي الذي تركه لنا الواقدي[1]، وليس واردًا أن تكون هذه الإشارة مكذوبة أو أنها أضيفت في وقت لاحق، وقد درس كثير من المؤرخين هذا الأمر وأكدوه ونقلته شفاهةً عن شيخ المؤرخين العرب عبدالعزيز الدوري. كما ينطبق هذا على الاحتمال الثاني، إذ لا يعقل أن يكون الواقدي غير مدرك لوجود عهدة منفصلة لأهل جرباء أو غير قادر على التفريق بين المدينتين، فالواقدي معروف باهتمامه الدقيق في تحديد الأماكن التي ورد ذكرها في السيرة النبوية الشريفة. ويذكر ابن سيد الناس (1974 (1) 18) أنّ الواقدي قال: "ما أدركت رجلا من أبناء الصحابة وأبناء الشهداء ولا مولى لهم إلا سألته هَلْ سمعت أحدا من أهلك يخبرك عن مشهده؟ وأين قتل؟ فإذا أعلمني مضيت إلى الموضع حتى أعاينه، ولقد مضيت إلى المريسيع، فنظرت إليها وما علمت غزاة إلا مضيت إلى الموضع أعاينه"، وهذا يؤكّد أنّ الواقدي كان حريصًا على تأكيد رواياته من خلال التحقق من المواقع وزيارتها بنفسه.

وهذا يتركنا مع الاحتمال الأول، وهو احتمال ليس ببعيد، إذ يظهر أنّ الواقدي حين دوّن هذه الحادثة ابتداءً، لم يكن لديه علمٌ بوجود كتاب أصليّ، فاكتفى بنقله للرواية كما عثر عليها في مصادره، ولعل هذا يفسّر سبب الاقتضاب فيها. ويبدو أنه تحصّل له بعد ذلك رؤية الكتاب الأصلي للعهدة، فنسخها إلى كتابه عن طريق طلابه أو من يملي عليهم كتابه. وهذا يعني في المحصّلة أنّ نصّ العهدة الذي يورده الواقدي هو الأكثر صحّة. ولكن، لِمَ لَم يقم الواقدي بحذف النص المختصر من كتابه ما دام قد وقف بنفسه على النص الأصلي للكتاب؟ قد

1 أقتبس هذه العبارة عن الأستاذ الدكتور عبدالعزيز الدوري أثناء لقاء معه في مكتبه في الجامعة الأردنية في شهر أيار 2005.

يكون هذا بسبب ذكر جرباء في النص المختصر، والذي نقل عن رواة مختلفين كما يفعل الواقدي في كتابه، وهكذا قرر الواقدي ترك هذا النص المختصر في كتابه كما هو، لأنه رأى الكتاب الأصلي الذي يذكر أذرح وحدها، ولأنه لم يقع في الوقت نفسه على كتاب أصلي فيه ذكرٌ لمدينة جرباء. وربما ارتأى الواقدي بداية أنّه يجدر به الإبقاء على الرواية التي تذكر كلاً من أذرح وجرباء، خاصّة أنّها رواية وصلته عبر سلسلة من الرواة، بيد أنّه لم يتمكن من التحقق منها. وكما ذكر الواقدي نفسه، فإنه عثر على النص الأصلي لكتاب العهدة، والذي يذكر أذرح فقط، ونسخه في كتابه.

وربما كان قد غلب الظنُّ على الواقدي بوجود عهدة أخرى من النبـــي ﷺ لأهل جرباء. وللبحث في هذه القضية لا بد من المقارنة بين النصوص التي ذكرت العهدة لأهل جرباء مع النص العهدة الأصلي الذي أورده الواقدي، أي لا بد من المقارنة بين نص عهدة أهل جرباء التي ذكرها المقريزي مع نص الواقدي لعهدة أذرح، ذلك لأنّ المقريزي هو المؤرخ الوحيد الذي أشار لوجود نصٍّ منفصل يذكر عهدة جرباء، وقد ورد في كتابه كما يلي (د. ت: (1) 468):

> هذا الكتاب من محمد النبـــي رسول الله لأهل جرباء، إنهم آمنون بأمان الله وأمان محمد، وإن عليهم مائة دينار في كل رجب وافيةً طيبة، والله كفيل.

هذا النص مماثل تمامًا للنسخة المختصرة من العهدة عند الواقدي باستثناء ما يتعلق باسم المدينة؛ فهذا النص يذكر جرباء وذلك أذرح. وعند الأخذ بعين الاعتبار أنّ المقريزي عاش في القرن الخامس عشر الميلادي، وهو بهذا ليس من المصادر المبكرة، فإنه قد قام على الأغلب بنقل النصّ من مصادر سبقته، وخاصة الواقديّ، لأنّ المقريزي ينقل رواية الواقديّ مباشرة بعد ذكر هذا النصّ، كما فعل الواقدي في كتابه. ويظهر هنا أن المقريزي قد كتب جرباء بدل أذرح ساهيًا، أو لعله يكون قد فعل ذلك متعمّدًا ظنًّا منه أن المصدر الذي نقل منه النص، وهو الواقدي على الأغلب، قد أخطأ في ذكره أذرح.

وفي ظل هذا التشابه الذي يكاد أن يكون متطابقًا بين هذه النصوص المختلفة يظهر لنا أن النبـــي ﷺ قد كتب كتابًا واحدًا فقط وقد كان على الأغلب لأهل

أذرح وليس لأهل جرباء. والمصادر التاريخية تدعم هذا الرأي، حيث كان ينظر إلى هاتين المدينتين على أنهما مدينة واحدة، ربما لأنّ قاطني المنطقتين كانوا من أصل مشترك أو قبيلة واحدة. وبما أنّ النص المفصل الذي أورده الواقدي يعدّ نسخة عن الكتاب الأصل، واللغة التي وردت فيه قريبة من أسلوب ولغة النبـــي ﷺ وكلام العرب في تلك الفترة، فيظهر أنها النسخة الأكثر صحة وموثوقية لهذه العهدة، وفيما يلي نصها كما رواه الواقدي (2004: (2) 410):

> قال الواقدي: نسخت كتاب أذرح وإذا فيه: بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد النبـــي لأهل أذرح، أنهم آمنون بأمان الله وأمان محمد، وأن عليهم مائة دينار في كل رجب وافيةً طيبة، والله كفيل عليهم بالنصح والإحسان للمسلمين ولمن لجأ إليهم من المسلمين من المخافة والتعزير إذ خشوا على المسلمين، وهم آمنون حتى يحدث إليهم محمد قبل خروجه.

تنبع أهمية موقع هذا النص في التاريخ الإسلامي من أهمية الموقع الجغرافي لمدينة أذرح، فهي على مرمى حجر من الطريق التجاري الرئيسي القادم من شبه الجزيرة العربية إلى بلاد الشام كما أوضحنا سابقًا في الخريطة رقم (4). ويذكر ابن سعد أن أهل أذرح وجرباء كانوا كذلك من اليهود (1997: (1) 220) مثل أهل مقنا، وهذه نقطة تضيف بعدًا مهماً لكلا العهدتين؛ فقد طلب الرسول ﷺ في العهدة لأهل مقنا أن يقدموا ما يلزم المسلمين من سلاح، أما في هذه العهدة فقد طلب الرسول ﷺ تزويد جيش المسلمين بمدد من الرجال المحاربين إذا لزم الأمر.

هذا الكتاب يلزم أهل أذرح بمساعدة المسلمين في أي حرب في المستقبل، وهذا ما نستخلصه من قوله ﷺ "وهم آمنون حتى يحدث إليهم محمد قبل خروجه". وهذه نقطة مثيرة للاهتمام، لأنها تضمن للمسلمين محطة آمنة يلجأون إليها عندما تحتدم الأمور، ويعود هذا للموقع الاستراتيجي لأذرح قرب الطريق التجاري لا عليه. كما أن أذرح أقرب المدن إلى حدود بيت المقدس والتي أمّنها النبـــي ﷺ بذلك، ويمكن أن تعدّ البوابة الجنوبية الشرقية لبيت المقدس.

كما يذكر هذا الكتاب بشكل خاص حق المسلم في اللجوء إليها إن لزم الأمر، وهذا الشرط لم يرد في أي عهدة لمدينة أخرى في هذه المنطقة، وهذا يدعونا

للسؤال عن السبب الذي يدعو النبـــي ﷺ لوضع هكذا شرط في هذه العهدة بالذات. وقد كانت أذرح بمثابة مأوى للمسلمين في حالات الحروب في المنطقة، ولهذا أهميةٌ كبيرة لهم لأنّ بلاد الشام بعيدةٌ عن المدينة المنورة. فقد كان من الصعب في أي حرب إرسال جيش كبير في هذه الصحراء القاحلة إلا في حال توفر منطقة آمنة وقريبة يمكن لهذا الجيش الرجوع إليها والاستفادة منها، وهذه شروط وترتيبات احتياطية من قِبَل النبـــي ﷺ، إذ لم يكن في وقت كتابة العهدة أي تحركات عسكرية لتلك المنطقة.

كما تجدر الإشارة هنا إلى عبارة بالغة الأهمية في النص وهي قوله ﷺ: "حتى يحدث إليهم محمد قبل خروجه"، إذ إنها تدلّ على وجود عزمٍ من قبل النبـــي ﷺ على الرجوع إلى هذه المنطقة حين يتقدم نحو الشمال، فهي تؤكد على أن يبقى أهل أذرح مسالمين إلى أن يخبرهم الرسول ﷺ قبل مغادرته. وما من سبب يدعو النبـــي ﷺ إلى ذكر هذه النقطة إلا أهداف ومنافع قد تتحقق في المستقبل. فهي عبارة كاشفةٌ عن خطة النبـــي ﷺ لمستقبل هذه المنطقة وتعكس أهمية هذه المدينة من الناحية الاستراتيجية والعسكرية، وهي تعني كذلك أن النبـــي ﷺ كان يهيئ الظروف لقيادة حملة أخرى في المنطقة.

الخلاصة

تظهر النصوص التي درسناها في هذا الفصل التحركات التي قام بها النبـــي ﷺ وما يميزها من أهمية وما رافقها من عزم وقصد واضحين من أجل تحقيق السيطرة على المناطق الواقعة شمال شبه الجزيرة العربية. وقد جاءت هذه المعاهدات والوثائق في مرحلة متأخرة من حياة النبـــي ﷺ، خلال غزوة تبوك أو بعدها، مما يظهر هدفًا استراتيجيا مهمًا تحققت من أجله العديد من المعاهدات والمنح. ففي حالة المنح، عمدَ النبـــي ﷺ إلى إقطاع ثلاث أراضٍ في تلك المنطقة، وهذه الأراضي الثلاثة هي الوحيدة التي كانت خارج السيطرة السياسية الفعلية للمسلمين في الوقت الذي منحت فيه. وفي هذا بيان لأهمية بيت المقدس لأنه كان السبب الضمني لمنح هذه المناطق لأشخاص بعينهم قبل أن تكون أصلاً ضمن السيادة الفعلية للمسلمين.

وقد تناولنا في هذا الفصل ثلاثة إقطاعات أسهم فيها النبيّ ﷺ لبني جفال ولتميم الداري رضي الله عنه. وذلك الإقطاع الأول لا يمثل سلطة النبـــي ﷺ على المناطق الجنوبية لبيت المقدس وحسب، بل إنها كذلك تفتح أمامه طريق صحراء النقب والمؤدية إلى بيت المقدس، مما يمهد الطريق لأي تحركات لجيش المسلمين في المستقبل نحو بيت المقدس، بل يمكن القول كذلك إن هذا الإقطاع تعدّ فتحًا فعليًا من قبل المسلمين لصحراء النقب، وقد تم ذلك بيسر عن طريق كسب ولاء أهل تلك المنطقة. أما الإقطاع الثاني لتميم الداري رضي الله عنه فقد كان بلا شك أحد أهم المؤشرات على سلطة النبـــي ﷺ على جزء من بيت المقدس. وبما أنّه ليس من حقّ أيّ قائد منح أرضٍ لأيٍّ كان إن لم تكن هذه الأرض خاضعة لسلطته، فإن منحه ﷺ تلك الأرض لتميم الداري تعدّ إرهاصًا وإخبارًا للمسلمين عن عزمه على فتح هذه المنطقة. كما كانت هذا الإقطاع عنصرًا أساسيًا في كسب ولاء أهل تلك المنطقة إلى جانب المسلمين، وفي هذا كذلك إشارة إلى أنّ بعض سكان بيت المقدس يقبلون سلطة النبـــي ﷺ عليهم وعلى أرضهم التي يسكنونها. كما أنّ أرض تميم هذه هي أرض إبراهيم عليه الصلاة والسلام، أي موقع التقاء الديانات السماوية الثلاثة، وهذا يساعد في فهم إقدام النبـــي ﷺ بلا تردد على قبول طلب تميم الداري رضي الله عنه.

يمكن في السياق ذاته النظر إلى كتاب النبـــي ﷺ إلى هرقل على أنه الخطوة الدبلوماسية الأولى لفتح بيت المقدس، فهي رسالة بالغة الأهمية باعتبار مكانها وزمانها معًا. فقد تسلم هرقل كتاب النبـــي ﷺ وهو في قلب بيت المقدس، قبل المضي قدمًا إلى المناطق البيزنطية. ولا بدّ أن النبـــي ﷺ كان يوجه رسالة تحذير واضحة إلى هرقل قبل أن تبدأ العمليات العسكرية للمسلمين على مشارف بيت المقدس. إن انتهاز فرصة وجود هرقل في بيت المقدس وإرسال كتاب النبـــي ﷺ أمرٌ ذو دلالة واضحةٍ على أن بيت المقدس هو المقصد الأساسي لتوجيه الرسالة في الأساس. وقد وصلت هذه الرسالة إلى هرقل في ذروة مجده وانتصاره، فقد كانت المنطقة بأسرها تحت حكمه، وقد أدرك هرقل كنه رسالة النبـــي ﷺ، وظهر هذا جليًا في العبارة التي قالها بعد قراءتها.

كما يجب التأكيد على أهمية هذه الرسالة للمسلمين أنفسهم كذلك، فقد كانت بمثابة تحذير قبل بدء الحملة العسكرية الفعلية باتجاه بيت المقدس، ولعل هذا

ما دفع النبـــي ﷺ إلى إرسالها في ذلك الوقت بالتحديد، أي قبل توجه جيوش المسلمين إلى مشارف بيت المقدس، وهكذا تساعد الرسالة على فهم المسلمين للعديد من القضايا المتعلقة بدوافع الحملة نحو بيت المقدس ومسوغاتها.

لقد كاتب النبـــي ﷺ العديد من القبائل على الصلح، خاصة أثناء غزوة تبوك. ولتلك المناطق والمدن التي عاهدها النبـــي ﷺ أهمية كبيرة من حيث موقعها، ولهذه القضية تفسيرات عديدة. لقد كان الهدف الأساسي من هذه المعاهدات تأمين الطريق بين شبه الجزيرة العربية وبيت المقدس بشكل خاص. ولو ربطنا بين هذه المعاهدات من جهة وبين الإقطاعات التي سبق ذكرها سيتضح لنا أن بيت المقدس هو الغاية والمقصود من وراء هذه التحركات. فعند دراسة المعاهدات التي أبرمها النبـــي ﷺ في تبوك سنجد أن معظم المدن المعنية بهذه المعاهدات واقعة إما على الطريقين الرئيسيين اللذين يربطان الجزيرة ببيت المقدس وإما قريبة منهما، وهذان الطريقان هما الطريق الصحراوي من الجنوب الشرقي، قريبًا من أذرح، والطريق الساحلي من الجنوب الغربـــي، قرب مقنا وعبر أيلة. وقد منحت عهدتان لكلٍّ من أهل مقنا وأذرح وهم من اليهود، أما العهد لأهل أيلة فقد كان لأهلها من النصارى. وهذا يعني أن نظرة النبـــي ﷺ إلى بيت المقدس لم تستثنِ اليهود والنصارى، بل كانت تعتمد على دعمهم، ولعل هذا ما جعلهم يتقبلون ما أقدم عليه النبـــي ﷺ في تلك المنطقة.

إن عقد هذه المعاهدات يؤكد على أن النبـــي ﷺ قد ضمن تزويد جيش المسلمين بالعتاد والمأوى إن لزم الأمر، بالإضافة إلى الطعام والماء وغيرها من المستلزمات التي قد يحتاج إليها جيش المسلمين في المستقبل. فقد ورد ذكر الأسلحة في عهده لأهل أذرح ومقنا، بينما ذكر الطعام في العهدة لأهل مقنا، وذكر الماء في العهدة لأهل أيلة، ولا شكّ أنّ ذكر التزود بالطعام والماء، خاصة في العهدة لأهل مقنا وأيلة كان أمرًا مركزيًا، ويعود هذا إلى موقع هاتين المدينتين على الطريق الساحلي قبل صحراء النقب، وهو طريق أطول من الطريق الآخر.

ويمكن أنّ نخلص مما سبق أيضًا أنّ النبـــي ﷺ ومن خلال تأمين هذه المناطق كان يجهّز لإرسال جيشين على الأقل للإحاطة ببيت المقدس من الجهة الشرقية ومن الجهة الجنوبية، أما الجهة الغربية فقد كانت مفتوحة على البحر الأبيض المتوسط.

وهذا ما حققه فعليًا خليفة المسلمين الأول، أبو بكر الصديق رضي الله عنه، فقد سلك هذين الطريقين، وأفاد من شروط المعاهدات مع أهل المدن سالفة الذكر، خاصة في جيش عمروٍ بن العاص رضي الله عنه. وبهذا يكون لهذه الوثائق أهمية مركزية في دراسة وتحديد شكل العلاقة بين النبـــي محمد ﷺ وبيت المقدس.

لقد كان النبـــي ﷺ مدركًا تمامًا لخريطة التحالفات الاستراتيجية والولاءات الموجودة في المنطقة، وقد كانت هذه المعرفة النبوية لهذه الجوانب دافعًا له ﷺ لإبرام هذه المعاهدات والحرص عليها وما تبع ذلك بالضرورة من حملات عسكرية لعبت دورًا مفصليًا في معرفة الوضع في المنطقة وتحديد الاحتياجات المحتملة لجيوش المسلمين في المستقبل. وسندرس في الفصل التالي هذه الحملات العسكرية ودورها في الفتح المزمع لبيت المقدس.

الفصل الثالث

التحركات العسكرية

مقدمة

تمثل التحركات العسكرية مرحلة التقدم الفعلي للنبـــي محمد ﷺ نحو فتح بيت المقدس، وهي المرحلة التي يمكن أن تثبت أو تدحض النظرية التي تفترض وجود خطة وضعها النبـــي ﷺ لفتح المنطقة، وهكذا تكون لهذه الحملات العسكرية أهمية كبيرة في هذا السياق. ويرى ويليام مونتغمري واط (1962: 105) أنّه عند "النظر إلى الأعداد التي اشتركت في الحملات العسكرية المختلفة باتجاه الشام يظهر أن الطريق إلى الشمال كان يستحوذ على حيّز كبير في الفكر الإستراتيجي للنبـــي محمد". ويضيف مونتغمري أنّ تلك المصادر المتعددة التي تتحدث عن هذه الحملات والتحركات العسكرية نحو الشام "تحرمنا الكثيرَ من التفاصيل وتتركنا نستنبط من معرفتنا الإجمالية الأسبابَ التي دعت إلى التركيز في إستراتيجية المسلمين على التوجه نحو الشام" (واط 1962: 105). ويرى الباحث أن ما ذهب إليه مونتغمري صحيح إلى حد ما، إذ إن فهم التحركات العسكرية التي قام بها النبـــي ﷺ سيساعد حتمًا في فهم إستراتيجيته بخصوص بلاد الشام عمومًا وبيت المقدس خصوصًا، ولذا يتوجّب دراستها والتمعّن فيها بشكل يتجاوز مجرد النظر إلى الروايات التاريخية والتفاصيل الواردة في المصادر التاريخية المتعددة.

يهدف هذا الفصل إلى مناقشة التحركات العسكرية التي حدثت في حياة رسول الله ﷺ، وهي تلك التي كانت متجهةً إلى الشمال، وذلك لتحديد ما كان يربط بين هذه التحركات ومعرفة ما إذا كان من الممكن النظر إليها على أنها تحركاتٌ فعليّة للنبـــي ﷺ كانت تهدف لفتح بيت المقدس. وعند تحديد هذه القضية وفهمها سيكون من الأيسر أن نقف على بُعدٍ جديد في فهم التحركات العسكرية الفعلية للنبـــي ﷺ خلال حياته، بالإضافة إلى معرفة كُنهِ تلك العلاقة التي تربطه ببيت المقدس.

لا بدّ من الإشارة في الآن نفسه إلى أنّ الغزوات والمعارك في زمن النبـــي ﷺ لم تكن منصبّة في اتجاهٍ واحد وحسب، بل توجهت إلى أجزاء مختلفة من جزيرة العرب كما هو معروف وانطلقت نحو الشمال أيضًا، وكان ذلك يعتمد على تطور علاقات النبـــي ﷺ وأهدافه. ويمكن أن نقسم التحركات العسكرية للنبـــي ﷺ إلى مرحلتين أساسيتين: المرحلة الأولى هي المرحلة الدفاعية، وامتدت هذه المرحلة من وقت

هجرته ﷺ والمسلمين إلى المدينة المنورة وانتهت بصلح الحديبية، أما المرحلة الثانية فهي مرحلة التوسّع، وقد بدأت من صلح الحديبية وانتهت بوفاته ﷺ. وسنجلّي هذه القضية بوضوح أكبر حين نقف على الدوافع الداعية لهذا التقسيم في ثنايا هذا الفصل.

السرايا والغزوات في حياة النبي ﷺ

يلزمنا كي نكوّن صورةً أكثر وضوحًا بخصوص الإستراتيجية العسكرية للنبـــي ﷺ أن نجمع، بترتيب زمنيّ، السرايا[1] والغزوات[2] التي وقعت في حياة النبـــي ﷺ. وقد جمع العديد من المؤرخين هذه السرايا والغزوات، والتي ابتدأت بعد هجرته ﷺ إلى المدينة، ومن بينهم الواقديّ، وهو عَلَمٌ في هذا الميدان، وبالأخصّ في كتابه الذي يحمل اسم *المغازي*، وهو الذي سنعتمد عليه كثيرًا في هذا الفصل، كما سنرجع إلى سيرة ابن إسحاق وغيرها من كتب السّير، إذ قلّما نقف على اختلاف بينها في أمر غزوات النبـــي ﷺ وسراياه. ويجدر بنا في هذا المقام التنويه والإشادة بالجهود التي بذلها العلامة المباركفوري رحمه الله، وهو من العلماء المعاصرين الذين سعوا إلى تحديد التاريخ الدقيق لهذه الوقائع، كما سنرجع إلى ما كتبه د. شوقي أبو خليل رحمه الله، والذي حاول في كتابه *أطلس السيرة النبوية* أن يحدد مواقع تلك الغزوات والسرايا.

وقد قمنا في الجدول التالي بتلخيص جميع هذه الغزوات والسرايا التي حدثت في حياة النبـــي ﷺ ومواقعها، باستثناء تلك التي كانت موجّهة لقتل شخصٍ بعينه[3]. وقد أشرنا في هذا الجدول إلى الغزوات والسرايا التي انطلقت من المدينة المنورة باتجاه الشمال الغربـــي حيث بيت المقدس. ويتبع هذا الجدول خريطةٌ تظهر مواقع هذه السرايا والغزوات ووجهاها[4]:

---

1 السرايا جمع سرية، وهي الحملات العسكرية التي أرسلها النبـــي ﷺ دون المشاركة فيها، كما يطلق عليها كذلك اسم البعث

2 الغزوات جمع غزوة، وهي الحملات العسكرية التي جهزها النبـــي ﷺ وقادها بنفسه

3 كقتل كعب بن الأشرف وسلام ابن أبـــي الحقيق، وسنتعرض إلى ذلك بشكل سريع في ثنايا الفصل

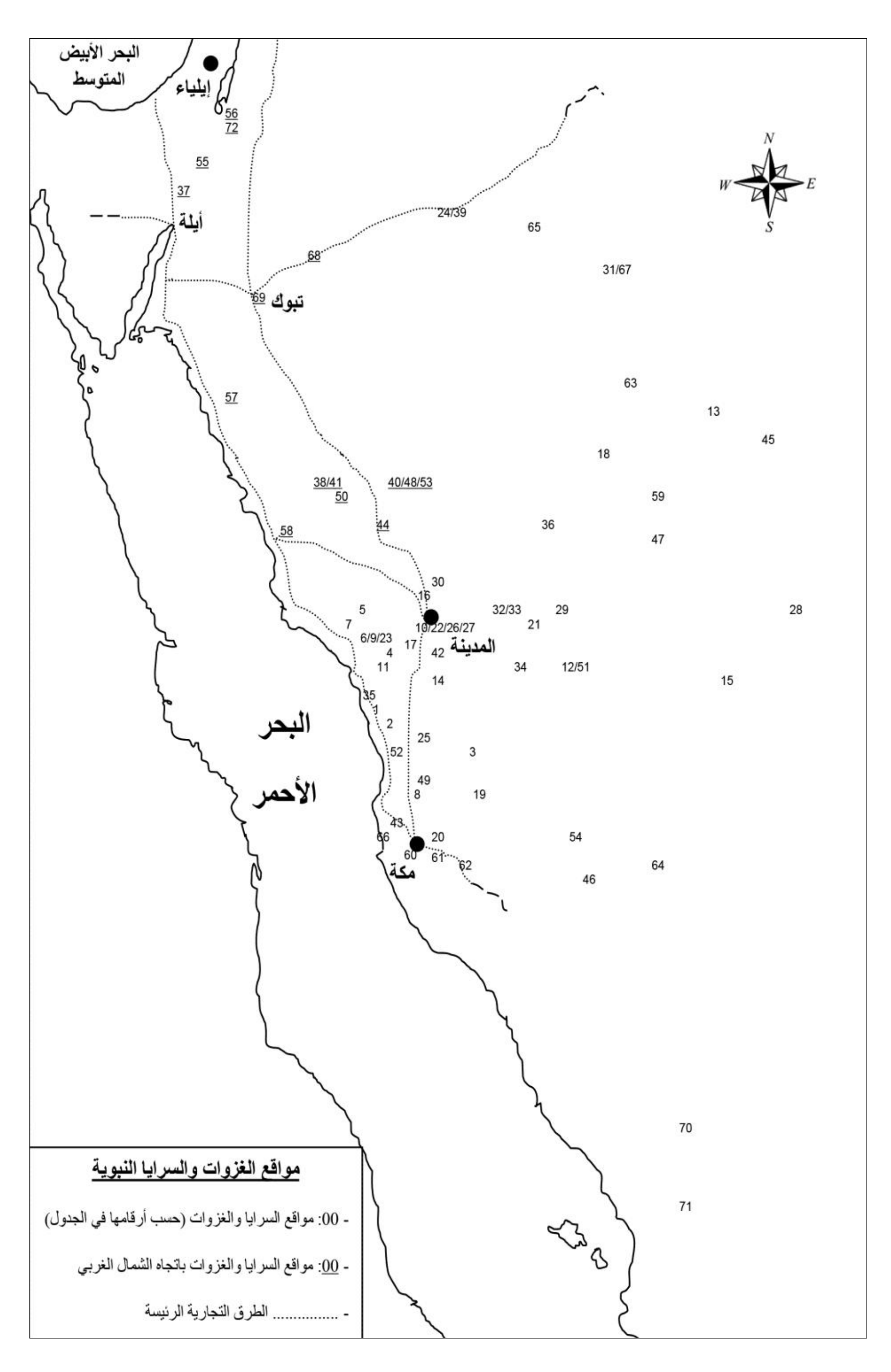
4 لقد اعتمدنا في أعداد الرجال المشاركين في السرايا والغزوات على ما فصله المباركفوري وأبو الرب، أما مواقع السرايا والغزوات فقد اعتمدنا بشأنها على أطلس السيرة لشوقي أبو خليل.

الرقم	الاسم/الموقع	عدد الرجال	السنة (هجرية)	الاتجاه من المدينة
1	سريّة حمزة/ سيف البحر والعيص	30	1 للهجرة	الجنوب الغربي
2	سرية عبيدة بن الحارث/ثنية المرة	60	1 للهجرة	الجنوب الغربي
3	سرية سعد بن أبي وقاص/الخرار	20	1 للهجرة	الجنوب
4	غزوة ودّان أو الأبواء	70	1 للهجرة	الجنوب الغربي
5	غزوة بواط	200	2 للهجرة	الغرب
6	غزوة بدر الأولى/سفوان وبدر	70	2 للهجرة	الجنوب الغربي
7	غزوة العشيرة	150	2 للهجرة	الغرب
8	سرية عبد الله بن جحش/بطن نخلة	12	2 للهجرة	الجنوب
9	غزوة بدر الكبرى	319	2 للهجرة	الجنوب الغربي
10	غزوة بني قينقاع	غير معروف	2 للهجرة	داخل المدينة
11	غزوة السويق	غير معروف	2 للهجرة	الجنوب الغربي
12	غزوة سُليم/الكدر	200	3 للهجرة	الجنوب الشرقي
13	غزوة ذي عمار	450	3 للهجرة	الجنوب الشرقي
14	غزوة بحران	300	3 للهجرة	الجنوب
15	سرية زيد بن حارثة/القردة	100	3 للهجرة	الجنوب الشرقي
16	غزوة أحد	700	3 للهجرة	إلى الشمال ضمن حدود المدينة
17	غزوة حمراء الأسد	700	3 للهجرة	الجنوب الغربي
18	سرية أبي سلمة/قطن	150	4 للهجرة	الشمال الشرقي
19	سرية عبد الله بن أنيس/عرنة	1	4 للهجرة	الجنوب
20	سرية الرجيع	10	4 للهجرة	الجنوب الغربي
21	سرية المنذر بن عمر/بئر معونة	70	4 للهجرة	الشرق
22	غزوة بني النضير	غير معروف	4 للهجرة	داخل المدينة
23	غزوة بدر الآخرة	1500	4 للهجرة	الجنوب الغربي
24	غزوة دومة الجندل	1000	5 للهجرة	الشمال الشرقي
25	غزوة بني المصطلق/المريسيع	غير معروف	5 للهجرة	الجنوب الشرقي
26	غزوة الخندق	غير معروف	5 للهجرة	داخل المدينة

الرقم	الاسم/الموقع	عدد الرجال	السنة (هجرية)	الاتجاه من المدينة
27	غزوة بني قريظة	3000	5 للهجرة	داخل المدينة
28	سرية محمد بن مسلمة/القرطاء	30	6 للهجرة	الشرق
29	غزوة بني لحيان	200	6 للهجرة	الشرق
30	غزوة الغابة/ذي قرد	غير معروف	6 للهجرة	الشمال الشرقي
31	سرية عكاشة/الغمر	40	6 للهجرة	الشمال الشرقي
32	سرية محمّد بن مسلمة/ذي القصّة	10	6 للهجرة	الشرق
33	سريّة أبو عبيدة بن الجرّاح/ذي القصة	40	6 للهجرة	الشرق
34	سرية زيد بن الحارثة/الجموم	غير معروف	6 للهجرة	الجنوب الشرقي
35	سرية زيد بن حارثة/العيص	170	6 للهجرة	الجنوب الغربي
36	سرية زيد بن حارثة/الطرف	15	6 للهجرة	الشمال الشرقي
37	سرية زيد بن حارثة/حسمى	500	6 للهجرة	**الشمال الغربي**
38	سرية زيد بن حارثة/وادي القرى	12	6 للهجرة	**الشمال الغربي**
39	سرية عبد الرحمن بن عوف/دومة الجندل	غير معروف	6 للهجرة	الشمال الشرقي
40	سرية علي بن أبي طالب/فدك	200	6 للهجرة	**الشمال الغربي**
41	سرية زيد بن حارثة/وادي القرى	غير معروف	6 للهجرة	**الشمال الغربي**
42	سرية كرز بن جابر/عرينة	20	6 للهجرة	الجنوب
43	غزوة الحديبية	1400	6 للهجرة	الجنوب
44	غزوة خيبر	1400	7 للهجرة	**الشمال الغربي**
45	غزوة ذات الرقاع/نجد	700	7 للهجرة	الشمال الشرقي
46	سرية عمر بن الخطاب/تربة	30	7 للهجرة	الجنوب الشرقي
47	سرية أبي بكر/نجد	غير معروف	7 للهجرة	الشرق
48	سرية بشير بن سعد/فدك	30	7 للهجرة	**الشمال الغربي**
49	سرية غالب الليثي/الميفعة	130	7 للهجرة	الجنوب الغربي
50	سرية بشير بن سعد/الجناب	300	7 للهجرة	**الشمال الغربي**
51	سرية ابن أبي العوجاء/بني سليم	50	7 للهجرة	الجنوب الشرقي
52	سرية غالب الليثي/الكديد	غير معروف	8 للهجرة	الجنوب الغربي
53	سرية غالب الليثي/فدك	200	8 للهجرة	**الشمال الغربي**

الرقم	الاسم/الموقع	عدد الرجال	السنة (هجرية)	الاتجاه من المدينة
54	سرية شجاع بن وهب/السي	غير معروف	8 للهجرة	الجنوب الشرقي
55	سرية كعب بن عمير/ذات أطلاح	15	8 للهجرة	**الشمال الغربي**
56	سرية مؤتة	3000	8 للهجرة	**الشمال الغربي**
57	سرية عمرو بن العاص/ذات السلاسل	300	8 للهجرة	**الشمال الغربي**
58	سرية أبي عبيدة بن الجراح (سرية الخبط)/القبلية	300	8 للهجرة	**الشمال الغربي**
59	سرية أبي قتادة/خضرة	15	8 للهجرة	الشرق
60	فتح مكة (والسرايا التي رافقت الفتح)	10000	8 للهجرة	الجنوب الغربي
61	غزوة حنين (انطلقت من مكة)	12000	8 للهجرة	الجنوب الغربي
62	غزوة الطائف (انطلقت من مكة)	12000	8 للهجرة	الجنوب الغربي
63	سرية عيينة بن حصن/بنو تميم	50	9 للهجرة	الشمال الشرقي
64	سرية قتبة بن عامر/تبالة	20	9 للهجرة	الجنوب الشرقي
65	سرية الضحاك الكلابي/زج لاوة	غير معروف	9 للهجرة	الشمال الشرقي
66	سرية علقمة المدلجي/جدة	300	9 للهجرة	الجنوب الشرقي
67	سرية علي بن أبي طالب/طيء	150	9 للهجرة	الشمال الشرقي
68	سرية عكاشة/أذرح وبلي	غير معروف	9 للهجرة	**الشمال الغربي**
69	غزوة تبوك	30000	9 للهجرة	**الشمال الغربي**
70	سرية خالد بن الوليد/نجران	غير معروف	10 للهجرة	الجنوب
71	سرية علي بن أبي طالب/اليمن	غير معروف	10 للهجرة	الجنوب
	حجة الوداع في السنة العاشرة للهجرة			
72	بعث أسامة بن زيد/أبنى	3000	11 للهجرة	**الشمال الغربي**

الجدول 2: سرايا وغزوات النبي ﷺ



الخريطة (4): مواقع سرايا وغزوات النبي ﷺ

<table>
<tr><th rowspan="2">المرحلة المدنية</th><th rowspan="2" colspan="3">الاتجاه من المدينة المنورة</th><th colspan="3">الرقم</th></tr>
<tr><th>السرايا</th><th>الغزوات</th><th>المجموع</th></tr>
<tr><td rowspan="5">حتى نهاية السنة الخامسة للهجرة</td><td rowspan="2">شمالاً</td><td rowspan="2">3</td><td>الشمال الشرقي</td><td>1</td><td>2</td><td>3</td></tr>
<tr><td>الشمال الغربي</td><td>0</td><td>0</td><td>0</td></tr>
<tr><td rowspan="2">جنوبًا</td><td rowspan="2">16</td><td>الجنوب الشرقي+ الجنوب</td><td>4</td><td>3</td><td>7</td></tr>
<tr><td>الجنوب الغربي</td><td>3</td><td>6</td><td>9</td></tr>
<tr><td colspan="3">شرقًا أو غربًا أو داخل المدينة المنورة</td><td>1</td><td>7</td><td>8</td></tr>
<tr><td colspan="6">المجموع حتى نهاية السنة الخامسة للهجرة</td><td>27</td></tr>
<tr><td rowspan="5">من السنة السادسة للهجرة</td><td rowspan="2">شمالاً</td><td rowspan="2">23</td><td>الشمال الشرقي</td><td>6</td><td>2</td><td>8</td></tr>
<tr><td>الشمال الغربي</td><td>13</td><td>2</td><td>15</td></tr>
<tr><td rowspan="2">جنوبًا</td><td rowspan="2">16</td><td>الجنوب الشرقي+ الجنوب</td><td>9</td><td>1</td><td>10</td></tr>
<tr><td>الجنوب الغربي</td><td>3</td><td>3</td><td>6</td></tr>
<tr><td colspan="3">الشرق أو الغرب أو داخل منطقة المدينة المنورة</td><td>5</td><td>1</td><td>6</td></tr>
<tr><td colspan="6">المجموعة من السنة السادسة للهجرة حتى وفاة النبي ﷺ</td><td>45</td></tr>
<tr><td colspan="6">المجموع الكلي للسرايا والغزوات</td><td>72</td></tr>
</table>

الجدول (3): مقارنة بين وجهات سرايا النبي ﷺ وغزواته

يظهر الجدول الثاني تباينًا كبيرًا بين عدد السرايا والغزوات باتجاه الشمال قبل السنة السادسة للهجرة/627 ميلادية وبعده. فهذا العام يمثل نقطة المنتصف في الفترة المدنية (أي بين هجرة النبـــي ﷺ إلى المدينة حتى وفاته)[1]، وهي نقطة تحول كبرى. ففي نصف هذه المرحلة المدنية، أي في بداية السنة السادسة للهجرة، كان هنالك ثلاثة تحركات عسكرية باتجاه الشمال، بينما كان هنالك ست عشرة غزوة وسرية باتجاه الجنوب وثمانيةٌ باتجاهات أخرى. ومن المثير للاهتمام هنا أنّ أيًا من تلك التحركات العسكرية باتجاه الشمال لم يكن باتجاه الشمال الغربـــي، أي جهة الشام وبيت المقدس، أي أنّه لم يكن هنالك أي غزوة أو سرية على الطريق الرابط بين المدينة والشام.

أما عدد الغزوات والسرايا باتجاه الشمال ابتداءً من العام السادس للهجرة فقد ارتفع إلى ثلاثة وعشرين، بينما كان هنالك ست عشرة غزوة وسرية باتجاه الجنوب وستة فقط في اتجاهات أخرى. وهذا دليل على تحوّل اهتمام النبـــي ﷺ نحوَ جهة الشمال، بل سنجد أن معظم هذه السرايا والغزوات الشمالية كانت باتجاه الشمال الغربـــي، اثنتان منهما كان على رأسهما النبـــي ﷺ بنفسه، وواحدة كانت أكبر غزوة في حياته ﷺ وأبعدَ ما وصل إليه كقائد ونبيّ. ولم يكن في ذلك الوقت سوى ثماني تحركات عسكرية باتجاه الشمال الشرقي نحو العراق. وقد كانت معظم التحركات العسكرية من العام السادس للهجرة باتجاه الشمال الغربـــي، وليس لهذا إلا دلالة واحدة، وهي أنّ النبـــي لم يوجّه اهتمامًا إلى الشمال منذ العام السادس للهجرة وحسب، بل توجّه هذا الاهتمام كذلك إلى الشمال الغربـــي بشكل خاص وواضح، وهذه هي الوجهة إلى بيت المقدس.

ويرى عثمان الطل (التاريخ غير مذكور)[2] أنّ اهتمام النبـــي ﷺ قد توجّه نحو بلاد الشام منذ سراياه الثلاثة الأولى، وهي سرية حمزة إلى سيف البحر، وسرية عبيدة إلى ثنية المرة، وسرية سعد إلى الخرار. أي أن التحرك العسكري نحو الشام

---

1 وقد أشار إلى هذه النقطة خالد العويسي في لقاء أكاديمي معه في السادس من تموز 2007، فله الفضل في لفت انتباهي إليها.

2 لقد ذكر هذا الرأي في فصل غير منشور من الملاحظات على أطروحة الدكتوراه للدكتور عثمان الطل، وقد اطلعت عليه من ضمن مجموعة من الأوراق في مركز دراسات بيت المقدس في معهد آل مكتوم في دندي.

بدأ بُعيد هجرته ﷺ إلى المدينة. كما يذهب عثمان الطل إلى أن الهدف الأساسي من تلك السرايا هو فتح الطريق نحو بلاد الشام، وليس من أجل اعتراض طريق تجارة قريش إلى الشام قرب المدينة، ودليله على ذلك أنّ تلك السرايا الثلاثة توجهت إلى مكان واحد و لم تعترض قوافل قريش في أي قتال. غير أنّ هذا ليس بدليل كافٍ يتيح لنا أن نجزم بأن الهدف الأساسي في تلك السرايا هو فتح الطريق نحو الشام، بل إن الروايات التاريخية التي تحدثت عن هذه السرايا تشير إلى عكس ذلك، وينطبق هذا على سواها كذلك من السرايا والغزوات التي تلتها حتى غزوة بدر. فتسلسل الأحداث يظهر أن الهدف الأساسي للنبـــي ﷺ في ذلك الوقت بالذات لم يكن فتحَ الطريق نحو الشام، بل كان الضغطَ الاقتصادي على قريش من خلال قطع طريق يمثل شريانًا تجاريًا لمكةَ نحو الشام، كما كان الهدف كذلك فتح الطريق نحو مكة، خاصّةً أن غالبية السرايا والغزوات قبل السنة السادسة للهجرة كانت نحو الجنوب الغربـــي، أي على الطريق الواصل بين المدينة ومكة.

ثم إنّ تحويل القبلة نحو مكة كان قد حدث في فترة مبكرة من المرحلة المدنية، في السنة الثانية للهجرة (الطبري 19998: (3) 17)، وهذا ما جعل المباركفوري (1996: 209) يرى في هذا الأمر مصلحة عظيمة للمسلمين، إذ إنه يشير بشكل غير مباشر إلى الدور الجديد الذي سيضطلع به المسلمون، والذي سيبدأ بعد عودتهم إلى مدينتهم المقدسة، مكة المكرمة، إذ لا يعقل للمسلمين أن يتركوا قبلتهم تحت تصرف غير المسلمين. وهكذا مثّل تحوّل القبلة في تلك الفترة المهمة أولويةً مهمة ووجهةً جديدة للمسلمين نحو مكة، غير أنّ هذا لا يعني بحال إهمال بيت المقدس، وهو القبلة الأولى، وإنما كان الأمر مجرد إعادة ترتيب للأولويات، فلا بدّ من تحقيق الاستقرار أولاً في منطقتهم ومن ثم التحرك نحو القبلة الأولى.

والأهم من هذا كلّه أنّه لا يمكن قبول الادّعاء القائل بأن السرايا الأولى للنبـــي ﷺ كانت تهدف إلى فتح الطريق نحو بلاد الشام، وذلك لأن الطريق من المدينة المنورة إلى بلاد الشام هو بعكس طريق تلك السرايا، والتي وإن كانت قد توجهت إلى أماكن تقع على الطريق المؤدي إلى الشام، إلا أنها كانت على الطريق إلى الشام من مكة وليس من المدينة. ولو كان النبـــي ﷺ يهدف إلى فتح الطريق نحو الشام في تلك المرحلة لما أمرَ جيش المسلمين بالتوجه نحو الجنوب الغربـــي،

لأنّ الشام تقع في عكس هذا الاتجاه، أي إلى الشمال الغربـــي من المدينة. ويبدو أن الطل لم يفرق بين الطريق المؤدي إلى الشام من شبه الجزيرة العربية بشكل عام وموقع مكة والمدينة على هذا الطريق. وواقع الحال أن توجّه تلك السرايا والغزوات نحو الجنوب الغربـــي يعزز الفكرة التي قررناها، ذلك أن مكةَ نفسها تقع جنوب غربيّ المدينة المنورة.

وفي العام السادس للهجرة، اعتمدَ النبـــي ﷺ إستراتيجية جديدة في سراياه وغزواته، فقد أرسل النبـــي ﷺ للمرة الأولى سريةً من أصحابه رضوان الله عليهم، ليس جهةَ الشمال الغربـــي من المدينة وحسب، بل باتجاه بلاد الشام من المدينة المنورة. وهذا يدفعنا إلى السؤال عن دوافعه ﷺ والجوانب التي استدعت أن يتوجه باهتمامه نحو تلك المناطق خاصةً في تلك الفترة. وكما يظهر من الجداول السابقة، فإن التحركات العسكرية نحو الشمال الغربـــي قد بدأت بالتزايد التدريجي بعد غزوة الخندق في العام الخامس للهجرة وقبل صلح الحديبية في العام السادس للهجرة.

وقد مثلت تلك الفترة نقطة تحول في تحركات النبـــي ﷺ العسكرية بالإضافة إلى شكل العلاقة التي تربطه مع قريش. وقد أعلن النبـــي ﷺ لأصحابه عقب غزوة الخندق أنّ هذه الغزوة تمثّل نقطة تحول مهمة، فقال ﷺ: "الآن نغزوهم ولا يغزوننا" (البخاري 2000: (2) 818)، مما يعني أن المسلمين من تلك اللحظة فصاعدًا هم الذين سيبادرون في حربهم مع قريش، كما يعني أنّ قريشًا قد صارت الآن مهمّشةً مكسورة الشوكة، وأن فتح مكة باتَ قضية وقت لا أكثر، فالنبـــي ﷺ إنما ينتظر أن تحين الفرصة المناسبة. ولعل هذا ما يفسر ذهاب النبـــي ﷺ إلى مكةَ معتمرًا أثناء صلح الحديبية دون سلاح، وهذا الفعل النبويّ يعني ضمنًا أن سيطرة قريش على مكة قد آلت إلى زوال، وتلك هي اللحظة الأفضل لتحويل الانتباه مجددًا نحو بيت المقدس وبدء التحركات العسكرية في ذلك الاتجاه.

سرية حِسمى

كانت أول سرية تنطلق من المدينة المنورة إلى الطريق الواصل إلى بيت المقدس هي سرية زيد بن حارثة رضي الله عنه إلى حسمى (في جمادى الآخرة للعام

السادس للهجرة/627 ميلادية). وهذه المنطقة على ما يذكر الواقدي (2004: (1) 14) تقع شمال غربـــي المدينة المنورة، بين وادي القرى وأيلة، وهي قريبة جدًا من حدود الشام، بينما يذكر الحموي (1990: (2) 298) أن حسمى أرض واسعة ببادية الشام بين أيلة وسيناء. ويبدو أن حسمى اسم كان يطلق على المنطقة الممتدة بين وادي القرى وصولاً إلى حدود سيناء قرب أيلة، ولذا قد يصعب أن نحدد تمامًا أين توجهت تلك السرية في هذه المساحة الشاسعة من حسمى.

ويشير الواقدي (2004: (2) 53) أن النبـــي ﷺ قد أرسل هذه السرية عقب إرسال كتابه إلى هرقل عظيم الروم، ويُذكر أن هرقل قد أحسن استقبال رسولَ رسولِ الله ﷺ، وهو دحية الكلبـــي رضي الله عنه وقدّم إليه هديّة. إلا أن دحية تعرض لهجوم وهو في حسمى في طريق عودته إلى المدينة المنورة من قبل قوم من قبيلة جذام. فما كان من النبـــي ﷺ إلا أن أرسل زيدًا بن حارثة رضي الله عنه على رأس سريّة من 500 صحابـــي للردّ على ما حصل لدحية كما يقول ابن كثير (1966: (3) 339). إلا أنّ هذا السبب الذي يذكره ابن كثير ليس مقنعًا تمامًا، إذ ليس هنالك من دليل على أي رسائل بين النبـــي ﷺ وهرقل قبل صلح الحديبية كما يذكر أبو مايلة (2004: 80)، فهذه السرية كما يرى أبو مايلة ستكون قد وقعت بعد صلح الحديبية إن أخذنا قصة كتاب النبـــي ﷺ إلى هرقل بعين الاعتبار. بقي أن نشير إلى أن إحدى الروايات المتعلقة بالهجوم على دحية الكلبـــي رضي الله عنه تذكر أنه قد كان في تجارة له (أبو مايلة 2004: 86). ولعل هذا هو سبب الاعتداء عليه في حسمى، إذ ليس من الضرورة أن يكون عائدًا من عند هرقل.

وحتى لو نظرنا إلى قصة كتاب هرقل، فلا بدّ من التنبيه إلى أنّ الواقدي يذكر أنّ شخصين فقط هاجما دحية الكلبـــي رضي الله عنه، وهما الهنيد بن عارض وابنه عارض، أما قبيلة جذام فقد كانت كما يذكر الواقدي قد دخلت في عهد مع النبـــي ﷺ وقد قاموا بالفعل بمساعدة دحيّة (الواقدي 2004: (2) 53). وبغض النظر عن سبب مهاجمة دحية، فإنه لا يعقل إرسال جيش لمعاقبة أفراد أقدموا على هذه الفعلة، كما أن إرسال 500 شخص في سرية كهذه يجعلنا نستبعد أن يكون الهدف من ورائها مجرد تأديب مجموعة من الأشخاص، كما نستبعد أساسًا أن يقوم

النبيّ ﷺ بإرسال 500 من رجاله للهجوم على شخصين وحسب، خاصّة أنّ البقية من قومهما احترموا النبـــي ﷺ وساعدوا دحيّة ومن معه.

ولا يتبقى أمامنا سوى تفسير وحيد لإرسال 500 رجل في سرية إلى تلك المنطقة، فهذه السرية هي أول حملة عسكرية جهة الشمال الغربـــي في حياة النبـــي ﷺ، وحسمى هذه تقع على الطريق المباشر إلى الشام وعلى مشارفها، وقد تبع هذه السرية إنهاء لدور قريش بعد غزوة الخندق، وهذا عنصر أساسي في إدراك دور هذه السرية، والتي لا يمكن النظر إليها بعدد رجالها وموقعها والظروف التي أحاطت بها إلا كنقطة البدء للتحرك العسكري الفعلي الهادف إلى معرفة الطريق المؤدي إلى بيت المقدس واكتشافه، ولعل هذا هو التفسير الوحيد لمشاركة ذلك العدد الكبير في هذه السرية والتي كانت الأبعد عن المدينة المنورة حتى ذلك الوقت. ويؤكد ما ذهبنا إليه آنفًا أن سرية زيدٍ بن حارثة إلى الطائف، وهي السرية التي سبقت سرية حسمى، قد شارك فيها 15 رجلاً بمن فيهم قائدهم[1]، وهو زيد رضي الله عنه، والذي شارك في ست سرايا في العام نفسه، أي في العام السادس للهجرة.

لقد كانت سرية حسمى الأكبر والأبعد في وقتها، وقد تبعتها سرايا أخرى أصغر حجما في نفس الاتجاه كما سيأتي، بيد أنها لم تصل إلا لنصف المسافة التي وصلت إليها سرية حسمى.

سريّة أمّ القرى والوقائع التي تلتها

هذه الوجهة الجديدة للحملات العسكرية قد استمرت كذلك في السرية الثانية التي توجهت شمال غربيّ المدينة المنورة إلى منطقة تعرف بأم القرى (رجب 6 للهجرة/627 ميلادية). وقد كانت هذه السرية كذلك تحت إمرة زيد بن حارثة رضي الله عنه. كما انطلقت بعدها سرية أخرى بقيادة عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه جهة الشمال الشرقي إلى دومة الجندل. ومع أنّ دومة الجندل تقع على طريق العراق وليس الشام، ولكن القصد منها هو التخلص من أيِّ أمر قد يعيق

1 زيد بن حارثة رضي الله عنه (ت. 8 للهجرة/629 ميلادية) صحابـــي جليل، تبناه النبـــي ﷺ في مكة قبل تحريم التبني في الإسلام، ولقّب بالحبّ لحب النبـــي ﷺ له. استشهد رضي الله عنه في معركة مؤتة (ابن سعد 1997: (3) 29–34).

الوصول إلى بيت المقدس والتأكد من أنّ الطريق إلى هنالك سالكة تمامًا. ولعل هذا ما دفع النبـــي ﷺ ليوجّه أوامره إلى عبد الرحمن بن عوف بأن لا يكتفي بدعوة أهل دومة الجندل إلى الإسلام وحسب، بل أن يتقدم بالزواج من ابنة ملكهم أيضًا (انظر الواقدي: 2004: (2) 58). وهذا يؤكد على أنّ عهدًا جديدًا قد بدأ من العلاقة بين المسلمين ودومة الجندل. ومن خلال تأمين الجانب الشرقي من الطريق إلى بيت المقدس فإن هذه الطريق ستصبح آمنة من جميع الجهات.[1]

سريّة فدك

قام النبـــي ﷺ بعد ذلك بإرسال سرية إلى مدينة فدك وأمّر عليها عليًا بن أبـــي طالب كرم الله وجهه، وكان ذلك في شهر شعبان للعام السادس للهجرة/627 ميلادية، وهي مدينة قرب خيبر ويسكنها اليهود. ويذكر الواقدي (2004: (2) 60) أن هذه الغزوة أتت بعد أن وصلت معلومات للنبـــي ﷺ تفيد بأن اليهود يعتزمون مهاجمة المدينة مع أهل خيبر، فأرسل النبـــي ﷺ سرية للهجوم على فدك. ونستنتج مما ذكره الواقدي أن العلاقة بين المسلمين واليهود في خيبر وفي فدك كان يشوبها التوتر، وهذا أمر صحيح، فقد كان يهود خيبر طرفًا أساسيًا ومهمًا في التجهز لغزو المدينة في غزوة الخندق (ابن إسحاق 2004: 392–393). ولذا فإنه ليس مستبعدًا أن النبـــي ﷺ كان ينتظر الفرصة المناسبة للتخلص من تهديدهم. وقد كان النبـــي ﷺ بحاجة لفتح الطريق نحو الشام وبيت المقدس، وهذا يتطلب تجاوز عائق أساسي، والمتمثل بيهود خيبر ووادي القرى وفدك وغيرها من المدن، وبما أنّ خيبر هي العائق الأكبر، فقد كان لا بدّ من البداية من إضعاف المناطق الأصغر المحيطة بها.

---

1 لقد قام النبـــي ﷺ بقيادة جيش إلى دومة الجندل في العام الخامس للهجرة/626 ميلادية، ولكن موقع دومة الجندل بعيد عن الطريق الواصل إلى بيت المقدس كما ذكرنا، فدومة الجندل تقع في الواقع على الطريق الواصل إلى العراق والجزيرة الفراتية. كما أن الحرب بين المسلمين وقريش كانت على أشدها في ذلك الوقت، وهذا ما يقلل من أهمية غزوة دومة الجندل حينها بالمقارنة مع سرية عبد الرحمن بن عوف. ويعود هذا إلى التوقيت والظروف لكل من الحملتين. ولم يذهب النبـــي إلى نقطة بعد دومة الجندل على طريق العراق، بعكس ما كان عليه الأمر بالنسبة للطريق المؤدي إلى بيت المقدس، حيث ذهب النبـــي في حملاته العسكرية خارج شبه الجزيرة العربية ودخلت جيوشه بلاد الشام، وهذا يدل على أن النبـــي ﷺ لم يكن مهتمًا بالعراق في ذلك الوقت قدر اهتمامه ببلاد الشام.

سريّة أم قرفة

لقد كانت السريّة التي أعقبت سرية فدك، والتي قادها زيد بن حارثة كذلك نحو أم قرفة قرب وادي القرى في رمضان للعام السادس للهجرة/628 للميلاد) (انظر الواقدي 2004: (1) 14) عملية مكملة لسرية عليّ كرم الله وجهه إلى فدك.[1] إنّ إرسال النبـــي ﷺ لهاتين السريتين اللتين توجهتا نحو وادي القرى وفدك، وهما مدينتان معظم سكانهما من اليهود، يظهر أن النبـــي ﷺ كان مهتمًا بأمر المدن اليهودية الواقعة شمال غربـــي المدينة المنورة، أي المدن الواقعة على الطريق إلى بيت المقدس، ويمكن أن نعزو هذا إلى أهمية إزالة جميع العقبات التي قد تعترض طريق المسلمين نحو بيت المقدس.

يمكن القول في الوقت نفسه إن مشاركة يهود المنطقة في الحرب ضد المسلمين ودولتهم في المدينة المنورة، خاصة في غزوة الخندق، دفع النبـــي ﷺ إلى استباق الأحداث والتصرف بسرعة، ولعل هذا هو السبب في إقدامه ﷺ بعيد صلح الحديبية في نهاية العام السادس للهجرة/628 ميلادية (الواقدي 2004: (1) 14)، بقيادة جيش إلى خيبر كان هو بنفسه على رأسه. ولا ريب أن صلح الحديبية من

---

1 لقد ورد ذكر سريتين أخريين بعد أم قرفة. أما الأولى فكان على رأسها عبد الله بن عتيك، وقد توجهت نحو خيبر لقتل أحد قادتها، وهو سلام بن أبـــي الحقيق، والذي كان أحد أكبر أعداء المسلمين في خيبر. بينما كانت الثانية بقيادة عبد الله بن رواحة وكان الهدف منها قتل أسير بن رازم، والذي جاء بعد سلام بن الحقيق، وكان ذلك في رمضان من السنة السادسة للهجرة/628 ميلادية (انظر ابن إسحاق 2004: 430–432). وهنالك خلاف في وقت هذه السرية، فابن إسحاق يذكر (2004: 430) أنها قد وقعت مباشرة بعد الخندق، أي في نهاية العام الخامس للهجرة أو بداية العام السادس للهجرة (627 ميلادية). أما ابن سعد (1997: (2) 70)، وأبو خليل (2003: 148) فيذكران أنها قد وقعت في رمضان من العام السادس للهجرة (628 ميلادية)، بينما يرى الواقدي (2004: (1) 330) أن هذه السرية قد وقعت في شهر ذي الحجة من العام الرابع للهجرة (626 ميلادية)، والطبري (1998: (3) 57) يرى أنها كانت في منتصف العام الثالث للهجرة (624 ميلادية)، والمباركفوري (1996: 325) يذهب إلى أنها كانت في نهاية العام الخامس للهجرة (627 ميلادية). وأرى أن هاتين السريتين إضافةً إلى سرية محمد بن مسلمة لقتل كعب بن الأشرف تقع خارجٍ مضمون دراسة السرايا والبعوث العسكرية في هذا الكتاب كونها تتعلق بمهمة خاصة جداً في الأهداف والأسلوب والتطبيق لا كباقي السرايا والبعوث.

المعالم الأساسية في سيرة النبـــي ﷺ، فهي المعاهدة التي دحرت خطر قريش وضمنت أن لا يتعرض المسلمون للهجوم من الجنوب من قبلهم. كما سهّلت هذه المعاهدة مهمة إرسال الرسائل للزعماء في تلك الفترة من أمثال هرقل عظيم الروم، بالإضافة إلى فتح المجال أمام دعوة العرب في شبه الجزيرة للإسلام. ونضيف إلى ذلك أن صلح الحديبية كان خطوةً مهمة لتمهيد الطريق نحو الشام وبيت المقدس وتأمينه، وهو الطريق الواقع شمال غربـــي المدينة المنورة. ويمكن فهم كل هذه العناصر مجتمعةً حين ندرس التحرك العسكري الذي أقدم عليه النبـــي ﷺ مباشرة عقب صلح الحديبية والمتمثل بغزوة خيبر.

غزوة خيبر

وقعت غزوة خيبر في بداية العام السابع للهجرة/628 ميلادية (ابن إسحاق 2004: 470)، ولهذه الغزوة شؤون متشعبة لا بد من تناولها وتحليلها نظرًا لأهميتها ودقتها.

لعلّ أهمّ ما يميّز هذه الغزوة هو أنّ النبـــي ﷺ قادها بنفسه وتوجه بجيش المسلمين شمال غربـــي المدينة المنورة، إلى الطريق الواصل إلى بيت المقدس، وهكذا تكون غزوة خيبر إحدى الخطوات الأساسية التي كان الهدف منها فتح الطريق نحو الشام.

ويذكر معظم مؤرخي الإسلام كابن إسحاق (2004: 470) والطبري (1998: (3) 144) والواقدي (2004: (2) 113) وابن سعد (1997: (3) 81) وقوع تلك الغزوة من دون ذكر أسباب محددة لها، غير أنّه يجدر بنا أن لا نستثني هذه الغزوة من سياق الغزوات والسرايا الأخرى في تلك الفترة، خاصة تلك التي سبقتها. فالمباركفوري يرى على سبيل المثال (1996: 366) أنّ القصد وراء هذه الغزوة هو معاقبة يهود خيبر لدورهم في الاعتداء على المسلمين، خاصةً في غزوة الخندق، إذ كانوا محرّكًا أساسيًا لتشكيل تحالف من الجيوش لمهاجمة المدينة المنورة. كما يذكر المباركفوري أن اليهود في ذلك الوقت كانوا طرفًا في الحلف الثلاثي المعادي للمسلمين، وأنّ النبـــي ﷺ حين دخل في صلح الحديبية مع قريش تحرك ليتعامل مع الطرفين المتبقيين، وهم اليهود من جهة وقبائل نجد من جهة أخرى.

ولهذا لم يمكث النبـــي ﷺ حتى مضى إلى غزوة ذات الرقاع مباشرة بعد غزوة خيبر.[1] وهذا يؤكّد رأي المباركفوري بخصوص أسباب غزوة خيبر.

تجدر الإشارة في الوقت نفسه إلى أن النبـــي ﷺ لو كان يهدف إلى الانتقام من يهود خيبر لدورهم في غزوة الخندق، لما قام بإرسال جيوشه لغزو مدن اليهود في أم القرى وتيماء وفدك قبل هذه الغزوة (انظر الواقدي 2004: (2) 165–168). وقد سبق أن ذكرنا أن يهود فدك هم الذين انفردوا بمساعدة يهود خيبر. ولو كان النبـــي ﷺ يسعى للانتقام مما حصل في الخندق وحسب لما كان قد أرسل جيوشه

1 يرى المباركفوري أن غزوة ذات الرقاع والتي كانت متجهة نحو نجد قد حدثت عقب غزوة خيبر (المباركفوري 1996: 376)، بيد أن هنالك اختلافا كبيرًا بين المؤرخين حول تاريخ غزوة ذات الرقاع. فيذهب معظم المؤرخين، كالواقدي (2004: (1) 333) والطبري (1998: (3) 91) وابن إسحاق (2004: 387) إلى أن هذه الغزوة قد وقعت في العام الرابع للهجرة/625 ميلادية. ولكنّ المباركفوري من ناحية أخرى يرى أنه من غير الممكن أن تكون هذه الغزوة قد حدثت في مثل هذا الوقت المبكر، وذلك لأنّ أبا موسى الأشعري قد شهدها (المباركفوري 1996: 376)، وهذا رأي البخاري كذلك (2000: (2) 821). ورغم أن البخاري قد قدم رأيه بخصوص تاريخ هذه الغزوة، إلا أنّه أدرجها في صحيحه قبل غزوة خيبر، وهذا يعني أنّه ليس متأكدا تمامًا من تاريخ هذه الغزوة، ويبدو أنّه لم يتمكن من العثور على دليل يؤكّد رأيه في القضية، فعمد إلى وضع غزوة ذات الرقاع قبل غزوة الخيبر في كتابه الذي رتب فيه الغزوات حسب تاريخ وقوعها. ويرجع تردد البخاري إلى حديث لأبـــي موسى الأشعري (2000: (2) 821) يذكر فيه أنه ذهب مع النبـــي ﷺ في غزوة، وأنهم مشوا طويلاً حتى تأذت أقدامهم، فغطوها برقاع من القماش، فسميت الغزوة لذلك بذات الرقاع. ونحن نرى أن رأي الواقدي المتعلق بتسمية هذه الغزوة هو أكثر صحة، إذ يقول إنها سميت بذات الرقاع نظرًا لطبيعة الأرض في تلك المنطقة من نجد حيث تتعدد ألوان صخورها وترتبها فتبدو كأنها قطع من القماش. أما ابن هشام فيرى أن الغزوة سميت باسم شجرة كانت تعبدها العرب، وكان اسمها ذات الرقاع، وكانت العرب تربط خرقا من القماش بها (ابن هشام 2005: (3) 107). كما ورد في التاريخ أسباب أقل أهمية من هذه التي أوردناها. ولعل رأي المباركفوري هو الأكثر دقة من بين تلك الآراء، ويؤكد ذلك الحديث الذي رواه البخاري عن أبـــي موسى الأشعري، بالإضافة إلى حديث آخر رواه البخاري 2009: (2) 823) عن أبـــي هريرة، والذي أتى إلى النبـــي ﷺ بعد خيبر وشهد "غزوة نجد" مع النبـــي ﷺ، ومن المعروف أن النبـــي ﷺ لم يخرج في غزوة إلى نجد بعد اعتناق أبـــي هريرة للإسلام إلا تلك الغزوة. وقد ذكر أبو هريرة أنها سميت بذات القراع، وهذا يعني أنها قد وقعت على الأغلب بعد غزوة خيبر.

لتصل إلى أم القرى وتيماء، إذ لا علاقة مباشرة لهاتين المدينتين بالخندق. وبناء على هذا فإن الدافع الأكثر إقناعًا لخروج النبـــي ﷺ إلى غزوة خيبر هو أنها جزء من سلسلة الخطوات التي قام بها النبـــي ﷺ باتجاه الشام، خاصة إذا نظرنا إلى الوقائع والأحداث التي سبقت هذه الغزوة وما تبعها كذلك من تحركات عسكرية.

ومن خلال التخلص من اليهود القاطنين جهة الشمال الغربـــي صارت فرصة النبـــي ﷺ للتقدم بشكل أسرع في ذلك الاتجاه، وقد تحقق هذا بالفعل حين أقدم النبـــي ﷺ في العام نفسه بعد غزوة خيبر على إرسال سرايا أخرى بالاتجاه نفسه نحو الشام. كما أرسل النبـــي ﷺ غيرها من السرايا في اتجاهات أخرى، إلا أنّ معظم السرايا التي انطلقت في تلك الفترة توجهت نحو الشمال الغربـــي، خاصة باتجاه المناطق التي يقطنها اليهود والتي خضعت لسيطرة المسلمين بعد خيبر، مثل فدك. ولعل الهدف كذلك من تلك السرايا التحقق من ولاء اليهود القاطنين في تلك المناطق، خاصة بعدما وافق النبـــي ﷺ على الإبقاء عليهم في مناطقهم بعد خيبر.

سرية فدك الثانية، وسرية الجناب

لقد خضع ولاء يهود فدك للاختبار وصار على المحكّ، وذلك في إحدى السرايا التي وقعت في العامين السابع والثامن للهجرة، وهي سرية بشير بن سعد، وذلك حين أصيب قائدها، وبقي في فدك إلى أن استردّ عافيته (الواقدي 2004: (2) 178). كما انطلقت سرية بشير مرة أخرى إلى منطقة الجناب والواقعة على الطريق نفسه من أجل مهاجمة قبائل غطفان، والذين كانوا عازمين على مهاجمة المدينة المنورة (الواقدي 2004: (2) 182). وقد التقوا معهم قرب خيبر، ولكنّ اليهود لم يقدموا العون لقبائل غطفان، وقد مثّل هذا تحولاً كبيرًا في موقف اليهود، وذلك لأنهم كانوا في حلف مع غطفان في وقت سابق في غزوة الخندق، كما أنّه إشارة على أنّ النبـــي ﷺ قد ضمن حياد اليهود القاطنين جهة الشرق الغربـــي فصار الطريق نحو الشام آمنًا من هذه الجهة. ولعل هذا ما دفع النبـــي ﷺ للتقدم بخطوات متسارعة جهة الشمال الغربـــي، وأن يرسل سرية أخرى إلى ذات أطلاح.

سرية ذات أطلاح

يرى موشيه جيل (1997: 21) أن سرية ذات أطلاح[1] هي أول سرية للنبي ﷺ في فلسطين، وأن هذه السرية في رأيه جاءت بسبب ما اعترى البيزنطيين من ضعف كبير في تلك الفترة، مما دفع النبي لإمضاء سرية في العام الثامن للهجرة بهدف "خطب ودّ القبائل العربية القاطنة على مشارف فلسطين وكسبهم إلى جانبهم" (جيل 1997: 12-22). لقد كانت فلسطين في تلك الفترة تحت سيطرة البيزنطيين، وهذا ما يؤكده خالد العويسي أيضًا (2007: 26).

ولو اكتفينا بالاعتماد على ما ذهب إليه جيل على عواهنه فإن هذه السرية ستكون أول تحرك عسكري ضمن منطقة الشام، ولكنّه يصعب في الوقت ذاته أن نصف هذه السرية بأنها حملة عسكرية، إذ لم يشارك بها سوى خمسة عشر رجلاً كما يذكر الواقدي (2004: (2) 202) والطبري (1998: (3) 155). ولا يعقل بحال أن يقوم النبي ﷺ بإرسال خمسة عشر رجلاً في حملة عسكرية إلى منطقة يطؤها المسلمون للمرة الأولى. أما القول بأنّ القصد هو كسب ولاء القبائل العربية في تلك المنطقة فهو رأي أقرب للمنطق، ويؤيده ما يذكره الواقدي (2004: (2) 202) والطبري (1998: (3) 155)، من أنّ النبي ﷺ قد أرسل هذه السرية لدعوة الناس في تلك المنطقة للإسلام. ويبدو أن النبي ﷺ قد بدأ في هذه السرية الاهتمام بشكل فعلي في إستراتيجيته بهذه المنطقة، ولا شكّ أن إرساله وفدًا من الصحابة لعرض دعوة الإسلام والهداية على الناس في تلك المنطقة أمرٌ يحمل في طيّاته دلالات عديدة.[2] لقد أراد النبي ﷺ أن يبدأ وجود المسلمين الفعلي في بلاد الشام، ولكنّ العادة درجت لديه ﷺ على دعوة الناس إلى الإسلام قبل حربهم. كما أراد النبي ﷺ أن يدرس المنطقة جيدًا قبل إرسال الجيوش إليها. ويمكن فهم هذه الجوانب من خلال النظر في التوقيت والظروف الأخرى التي أحاطت بهذه السرية.

---

1 لا يذكر الحموي (1990 (1) 259) موقعًا محددًا لذات أطلاح، ويكتفي بالإشارة إلى أنها تقع بعد وادي القرى، على الطريق بين المدينة والشام.

2 لم يرد أي ذكر في كتب التاريخ عمّن كان يسكن في ذات أطلاح ولكنهم كانوا من قبائل العرب على الأرجح.

لقد جاءت هذه السرية بعد أن قام النبـــي ﷺ بضمان جانب اليهود القاطنين على تلك الطريق بعد عدد من الغزوات والسرايا، وبالأخص بعد غزوة خيبر، والتي كسرت شوكتهم وكفت شرّهم. ولذا يمكن النظر إليها على أنها الاختبار الأخير لمدى التزامهم بهذا المستوى من العلاقة مع المدينة المنورة. كما أراد النبـــي ﷺ أن يعرف طبيعة القبائل الشمالية التي تسكن تلك المنطقة قبل أن يصلها جيش المسلمين. ويؤكد هذا إلى حد ما رأي جيل بخصوص هذه القبائل (جيل 1997: 22). كما أن طبيعةَ سرية ذات أطلاح كانت أقرب إلى كونها دعوةً للناس إلى الإسلام. وهذا دليل على توجّه اهتمام النبـــي بشكل خاص نحو تلك المنطقة في ذلك الوقت بالتحديد، إذ لا يوجد ما يدل على إرسال سرايا أخرى للدعوة إلى الإسلام في العراق مثلاً في تلك الفترة بالتحديد.[1]

لقد انتهت سرية ذات أطلاح بفاجعة على المسلمين كما يذكر العديد من المؤرخين، إذ هاجم السريةَ سكانُ تلك المنطقة، واستشهد أربعة عشر من الصحابة رضوان الله عليهم، ولعل هذا هو السبب المباشر لمعركة مؤتة والتي حدثت بعد هذه الحادثة بوقت قصير.

معركة مؤتة

وقعت هذه المعركة في السنة الثامنة للهجرة. ويقول الواقدي (2004: (2) 202) في ظروف هذه السرية إن النبـــي ﷺ قرر عدم التوجه للانتقام لما حدث في ذات أطلاح لأنّه علمَ أنّ القبائل الساكنة هناك، والتي هاجمت سرية المسلمين في ذات أطلاح، قد هاجرت إلى مكان آخر. وإن كنا لا نتفق مع الواقدي تماماً في ما طرحه في هذه النقطة إلا أننا نسلم بأن النبـــي ﷺ لم يرسل جيشه إلى مؤتة للانتقام مما حصل في ذات أطلاح فقط، حيث أنه ليس من المعقول إرسال جيش يتألف من 3000 رجل إلى مؤتة لمجرد الانتقام من قتل الصحابة الذين استشهدوا في ذات أطلاح. خاصةً وأن جيش مؤتة لم يكن متوجها نحو ذات أطلاح، ولكنه توجه إلى نقطة أعمق في الشام (الطبري 1998: (3) 160). لكن الواقدي اعتمد في رفضه

1 باستثناء رسائل النبـــي ﷺ إلى الملوك والزعماء، ونحن نقصد هنا السرايا التي أرسلت لدعوة الناس إلى الإسلام.

لكون الانتقام لما حدث في ذات أطلاح هو السبب الرئيس لسرية مؤتة على فكرة هجرة القبائل التي كانت تقيم في ذات أطلاح إلى مكان آخر، وهذه النقطة بالذات لا نتفق فيها مع الواقدي، فلم يرد في التاريخ ما يدل على أن قبائل ذات أطلاح قد هاجرت إلى تلك النقطة من الشام، ولا تظهر رواية الواقدي إلى أينَ انتقل هؤلاء الأقوام. ولا يعقل أن يكون النبـــي ﷺ قد أرسل جيشًا كبيرًا كهذا للانتقام من مقتل أولئك الصحابة الذين قضوا في ذات أطلاح، وهو لم يفعل الشيء نفسه في واقعة أكبر من هذه حين استشهد سبعون من الصحابة في سريّة غير محاربةٍ عند بئر معونة (المباركفوري 1996: 299–301)، مع أنها كانت كذلك أقرب وأسهل.

غير أنّ الواقدي يشير إلى سبب آخر لإرسال النبـــي ﷺ جيشًا إلى مؤتة، فيذكر أنّ النبـــي ﷺ قد أرسل الحارث بن عمير الأزدي رسولاً إلى ملك بصرى[1]، وقد عرض له شرحبيل بن عمرو الغساني، وكان عاملاً على البلقاء، وقتله هناك. ولهذا السبب أرسل النبـــي ﷺ جيشًا إلى مؤتة للانتقام من مقتل رسوله (الواقدي 2004: (2) 205–206). وقد انفرَد الواقدي بذكر هذا السبب لمعركة مؤتة، ويعتمد معظم المؤرخين على هذه الرواية ويعدونها السبب الفعلي والمباشر للسرية، وهذا ما يرجحه الدكتور بريك أبو مايلة (2004: 248).

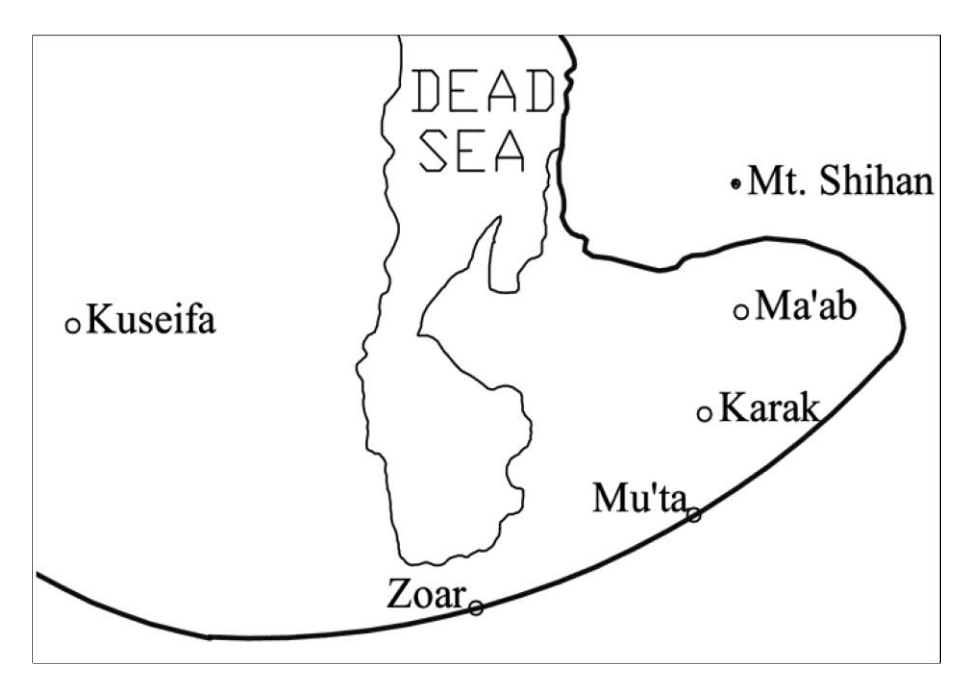
من جهة أخرى يقول أكرم ضياء العمري (1994: (2) 467) إن النظر إلى الأسباب المباشرة التي دعت إلى غزو قبائل العرب على حدود الشام لا يؤثر على تفسير هذه الوقائع كثيرًا، وذلك لأن تشريع الجهاد يتطلب إخضاعًا مستمرًا لقبائل العرب والتوسع بالدولة الإسلامية، بغض النظر عن الأسباب المباشرة". ولا يسعنا هنا إلا أن نختلف مع العمري فيما ذهب إليه، إذ يظهر أنّه درس معركة مؤتة خارج تسلسل الأحداث التي وقعت في تلك الفترة، مع أنه لا يمكن بحال أن نعزل هذه السرية عن بقية الأحداث التي أعقبتها وتلك التي تلتها، لأنها بمجموعها تظهر أن النبـــي ﷺ لم يكن معنيًا بإخضاع قبائل العرب في تلك المنطقة لسيطرته، بل إنّه ﷺ قد أمر جيش مؤتة بألا يتعرضوا لغير المحاربين ولا حتى للمحاربين قبل دعوتهم للإسلام (الواقدي 2004: (2) 207–208، المنصورفوري 1989 (2) 284)، وهذا يجعلنا نستبعد أن يكون الانتقام من الآخرين وإخضاعهم ضمن دوافع النبـــي ﷺ لإرسال جيش إلى مؤتة.

1 تقع بصرى قرب دمشق من أعمال الشام.

لا بدّ من التأكيد في الوقت نفسه على أنّ رواية الواقدي حول اغتيالِ رسولِ رسولِ الله ﷺ لا يمكن قبولها، فمن المعروف أنّ النبـــي ﷺ أرسل وفدًا بالفعل إلى عامل بصرى، وقام عامل بصرى بتسليم الكتاب بنفسه إلى هرقل (انظر البخاري 2000 (1) 5). ويظهر أن الواقدي، أو واحد من مصادره على الأغلب، قد اختلطت عليه قضية هذا الكتاب. فالواقدي حين يورد هذه القصة يشير بشكل واضح إلى المصدر الذي نقل عنه، وهو الربيع بن عثمان، والذي يقتبس هو الآخر عن عمر بن الحكم (انظر الواقدي 2004: (2) 205)، مع أن الواقدي لا يذكر عادة مصدرًا واحدًا لرواياته، مما يشعرنا في هذه الحالة أنّه نفسه لم يكن واثقًا تمامًا بهذه الرواية. ولا بد أن نلاحظ كذلك أن الصحابـــي الذي ذكر في رواية الواقدي، وهو الحارث بن عمير الأزدي، ليس معروفًا بين الصحابة، ولم يذكر في كتب التراجم إلا في هذه الرواية التي يعتمد عليها العلماء وكتّاب التراجم كالعسقلاني (د. ت: (1) 286) وابن الأثير (توفي عام 630 للهجرة/1233 ميلادية) (1994: (1) 628)، للإشارة إلى هذا الرجل باعتباره واحداً من صحابة رسول الله ﷺ. ولعل في هذا دلالة على أن هذه الحادثة التي ذكرها الواقدي لم تقع أصلاً.

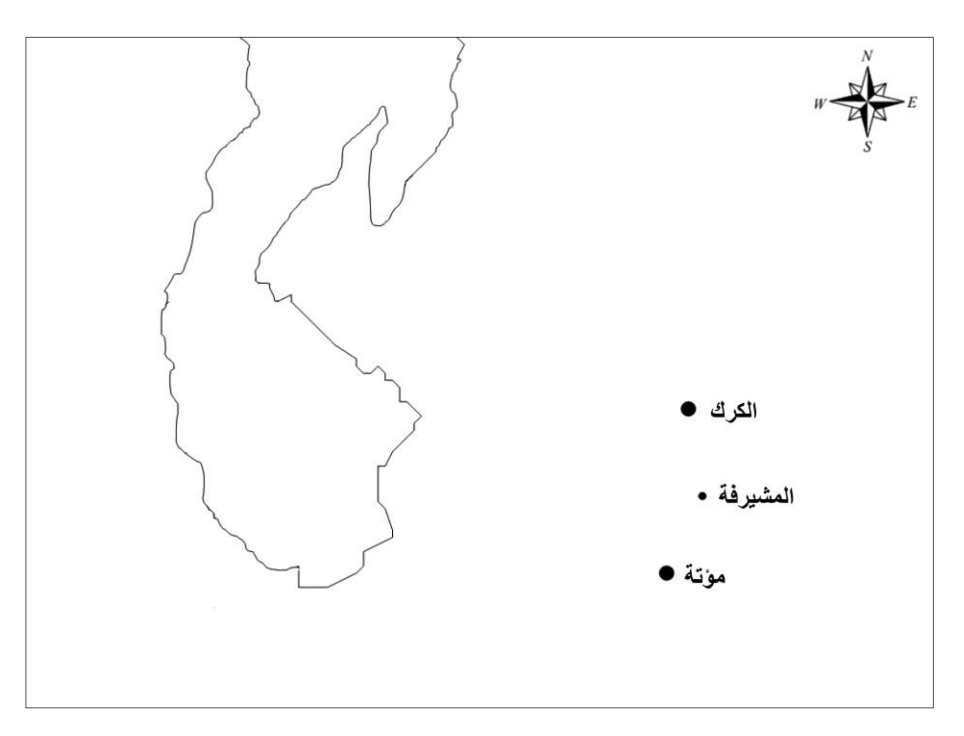
ولو عمدنا إلى النظر إلى هذه المعركة في إطار أوسع يشتمل على الأحداث التي أحاطت بها، وخاصة سرية ذات أطلاح، فإن هذا سيقودنا إلى أن الهدف من سرية مؤتة هو فتح الطريق المباشر نحو الشام وتأمينه، لأن هذا الطريق يصل مباشرة إلى داخل الشام من جهة تبوك بدل الوصول إليها عبر الطريق الساحلي، وهذا يعود إلى كون الطريق الداخلي أقصر ويؤدي مباشرة إلى قلب الشام، أمّا الطريق الساحلي فيمر عبر أيلة ومن ثم يدخل مرة أخرى إلى الصحراء. وقد يعدّ الذهاب إلى مؤتة أول تحرك فعلي للمسلمين داخل الشام، بل حتى ضمن منطقة الأرض المقدسة على وجه الخصوص، إذ تقع مؤتة على مشارف الأرض المقدسة كما يذكر خالد العويسي[1] (2007: 274). انظر الخريطة 5.

1 يطلق خالد العويسي على هذه الحدود حدود Islamicjerusalem التي يترجمها أحياناً إلى ما يسميه (إقليم بيت المقدس)، ولكن هناك خلافاً شديداً في اعتبار بيت المقدس إقليماً باعتبار أن الحدود الدينية الوحيدة المعروفة في هذه البقعة مرتبطة بمفهوم (الأرض المقدسة) لا بتحديد إقليمٍ معين باسم (بيت المقدس).



الخريطة (5): موقع مؤتة على حدود منطقة بيت المقدس. المصدر: خالد العويسي (2007: 274)

وليس لدينا ما يدل على أن جيش مؤتة كان متوجهًا إلى مؤتة على وجه التحديد، فاليعقوبـــي (ت. 248 للهجرة/ 862 ميلادية) على سبيل المثال يرى أن جيش المسلمين كان متوجهًا أصلاً إلى منطقة الشام بشكل عام، وليس إلى مؤتة تحديدًا (انظر اليعقوبـــي (د. ت: (2) 72). وقد تابع الجيش تقدمه إلى منطقة في الشمال داخل منطقة الأرض المقدسة تدعى "مشارف"، وهي التي تعرف الآن باسم المشيرفة. انظر الخريطة 6.



الخريطة (6): موقع المشيرفة. الخريطة من رسم المؤلف.

وهذا سبب آخر لردّ السبب الذي أورده الواقدي لمعركة مؤتة. إذ لو كانت هذه الغزوة بقصد الانتقام، لأمر النبـــي ﷺ هذا الجيش بالتوجّه إلى الموقع المطلوب[1]، ولكنّ للنبيّ ﷺ غايات أخرى من إرسال هذا الجيش. ويرى عثامنة (2000: 93) أن جيش مؤتة قد كان في واقع الأمر متوجهًا هناك لفتح المنطقة، وقد توصّل عثامنة لذلك بالنظر إلى أنّ النبـــي ﷺ قد أمر الجيش بدعوة الناس في تلك المنطقة إلى الإسلام قبل الدخول في قتال معهم (انظر الواقدي 2004: (2) 207–208). بيد أنّ عثامنة ليس مصيبًا تمامًا هنا، إذ إن دعوة الناس إلى الإسلام قبل قتالهم أمرٌ مبدأيٌ من سياسات النبـــي ﷺ، وهي سياسة طبقت في معظم السرايا والغزوات، ولم تترك سوى في حالات خاصة، كما حدث في بعث أسامة كما سنذكر لاحقًا. كما لا يعقل أن يقدم النبـــي ﷺ على فتح المنطقة من دون أن يمتلك فكرة واضحة ودقيقة بخصوص جيوش العدوّ عددِهم وعتادِهم. وهذا ما

1 لن نخوض هنا في تفاصيل هذه الأحداث لأنها خارجة عن سياق بحثنا هذا.

يتوصل إليه عثامنة نفسه حين قال إنّ معركة مؤتة كشفت للنبـــي ﷺ أن مواجهة البيزنطيين تتطلب عددًا كبيرًا من الرجال وأنّ قبائل العرب جنوب الشام عنصر مهم لضمان نجاح أي حملة عسكرية إلى تلك المنطقة (عثامنة 2000: 93). وقد أجاد عثامنة في تحليل أهمية معركة مؤتة، ولكنّ رأيه في أن هذه السرية مثلت تحركًا فعليا لحملةٍ لفتح منطقة بيت المقدس ليس دقيقًا، لأنه يسقط من اعتباره العديد من العناصر التي سبق ذكرها. ويبقى لهذه الغزوة بطبيعة الحال أهمية خاصة، فقد سمّى النبـــي ﷺ ثلاثة قادةٍ من الصحابة لهذا الجيش، وهم زيد بن حارثة، وجعفر بن أبـــي طالب، وعبد الله بن رواحة، رضي الله عنهم، وهم يمثلون ثلاثة قطاعات أساسية من مجتمع المدينة المنورة؛ فزيد وجعفر يمثلان المهاجرين من مكة، وعبد الله يمثل الأنصار، كما كان جعفر يمثل آل بيت النبـــي ﷺ، وكان زيد يمثل العرب الذين ينحدرون في أصولهم من مكة. ولهذا التنوع الفريد في طيف قادة هذا الجيش دلالة مهمة نابعة من أهمية الوجهة التي سيقصدها هذا الجيش. كما أنّ القائد الأول للجيش، وهو زيد بن حارثة رضي الله عنه، كان القائد الذي أرسله النبـــي ﷺ من قبل جهةَ الشمال الغربـــي من المدينة، فقد أمّره النبـــي ﷺ على سرية حسمى وعلى السريتين اللتين أرسلهما من قبل إلى وادي القرى، وقد يعني هذا أنّ النبـــي ﷺ كان يحضّر زيدًا رضي الله عنه لقيادة جيش مؤتة حين أرسله على رأس أول سرية نحو الشمال الغربـــي. كما قُدّر لابنه بعد ذلك أن يقود المعارك في هذه المنطقة.

يمكن كذلك أن نفهم تأمير النبـــي ﷺ لثلاثة من الصحابة على رأس هذا الجيش أنّه كان يتوقع جيشًا ضخمًا أمامهم، فهذا الجيش ليس متوجهًا للانتقام من إحدى قبائل العرب وإنما إلى مواجهة جيش عظيم. وتذكر العديد من المصادر الإسلامية، كالواقدي (2004: (2) 209) وابن إسحاق (2004: 504)، أن الجيش البيزنطي كان يتألف من 200، 000 رجل، وقد تكون هذه مبالغة في واقع الأمر، إذ كان يجب أن يرد ذكر هذا العدد لو كان صحيحًا في مصادر أخرى، كالتاريخ الذي كتبه تيوفانيس. ومع أنّ حجم جيش البيزنطيين لم يكن على الأغلب بهذا الحجم كما ذكرت بعض المصادر الإسلامية، إلا أنّ جيش المسلمين قد واجه بالفعل جيشًا ضخمًا من البيزنطيين.

وقد اضطر جيش المسلمين حين وقعت المواجهة بينه وبين جيش الدولة البيزنطية وحلفائه من القبائل العربية (الواقدي 2004: (2) 209، الطبري 1998: (3) 160)، إلى الانسحاب تحت راية خالد بن الوليد رضي الله عنه، والذي تسلم راية المسلمين بعد استشهاد القادة الثلاثة (انظر الواقدي 2004: (2) 212). وقد كان هذا الانسحاب في نظر مسلمي المدينة هزيمةً، وهذا ما يراه بعض مؤرخي الإسلام، كالواقدي (2004: (2) 212)، الذي يعتقد أن معركة مؤتة انتهت بهزيمة جيش المسلمين، مع أنّ هناك العديد من الروايات التي تشير إلى أنّ النبيّ ﷺ يرى في معركة مؤتة ظفرًا للمسلمين لا هزيمةً لهم.

لقد كان النبـــي ﷺ على منبره في المدينة يتحدث عن المعركة أثناء حدوثها، وأخبر المسلمين أن القادة الثلاثة قضوا نحبهم، ثم قال إن خالدًا بن الوليد استلم الراية، كما جاء في رواية البخاري (2000: (2) 848):

"... حتى أخذ الراية سيف من سيوف الله حتى فتح الله عليهم"

كما أنّ النبـــي ﷺ كما يذكر ابن إسحاق (2004: 510) دافع عن جيش مؤتة حين وصل المدينة، وكان المسلمون فيها يحسبون أنهم فارّون من أرض المعركة، فقال النبـــي ﷺ حينها رادًّا إليهم اعتبارهم ومعزّزًا لشأنهم: "ليسوا بالفرار ولكنهم الكرار إن شاء الله". إن تعليق النبـــي ﷺ على ما حدث في معركة مؤتة يكشف عن الظروف الحقيقية التي أحاطت بها، من حيث طبيعتها ودورها في تاريخ فتح بيت المقدس، ويبدو واضحًا من كلام النبـــي ﷺ أنّ جيش المسلمين سيعود قريبًا إلى تلك المنطقة.

ويرى أسامة جمعة الأشقر (2006: 32) أنّ هذه المعركة قد كشفت للنبـــي ﷺ القوة الفعلية للبيزنطيين، كما أنها أماطت اللثام عن شكل العلاقة بين البيزنطيين وحلفائهم من العرب في تلك المنطقة، وهذا رأي سديد، لأنّ هذا هو ما ندركه تحديدًا عند النظر إلى السرية التي تلت معركة مؤتة، وهي سرية ذات السلاسل في جمادى الآخرة للعام الثامن للهجرة/629 ميلادية، حيث توجهت هذه السرية إلى منطقة من أقوى معاقل حلفاء البيزنطيين، وهم قبائل أذرح وبلي ولخم وجذام، كما يذكر البخاري (2000: (2) 868).

سريّة ذات السلاسل

يذكر الواقدي (2004: (2) 216–217) أن سبب هذه السرية التي حدثت في العام الثامن للهجرة، أن النبي ﷺ علم أن جيشًا من قبيلتي بلّي وقضاعة (اللتين عاشتا في تلك المنطقة)، كان يتجهّز للهجوم على المدينة المنورة، فأرسل النبي ﷺ سرية من 300 رجل على رأسهم عمرو بن العاص رضي الله عنه للهجوم عليهم قبل ذلك. وقد طلب عمرو بن العاص مددًا من الرجال لأن الجيش الذي قابله كان كبيرًا، فأمدّه النبي ﷺ بمئتي رجل آخرين، وأمّر عليهم أبا عبيدة عامر بن الجراح رضي الله عنه.

يشير الواقدي في أكثر من موقع إلى أنّ الأسباب التي دعت إلى إرسال السرايا والغزوات بشكل عام هي أخبارٌ تصل إلى النبي ﷺ بشأن هجمات محتملة على المدينة من قبل قبائل عربية في المناطق المجاورة. ولكن قبائل بلي وأذرح ولخم وجذام كانت قوىً أساسيةً تحالفت مع البيزنطيين في مؤتة، ولذا يمكن أن نقول إن النبي ﷺ أرسل هذا الجيش للتخلص من التهديد الذي تشكله هذه القبائل. ويجدر أن نشير هنا إلى أنّ تأمير عمرو بن العاص رضي الله عنه على هذا الجيش له دلالة خاصة، فالواقدي (2004: (2) 218) يذكر أن أمّه من بلّي، وأنّ النبيّ ﷺ كان يطمح إلى أن يكون ذلك مفتاحًا لقبول هذه القبيلة دعوة الإسلام.

فنرى إذن أن عمروًا من هذه الناحية كان أفضل مرشّح لقيادة هذه السرية، لأنّه كان على علمٍ بالمنطقة، فأمه وعائلتها من هناك. ويمكن القول من ناحية أخرى إن التجربة التي مرّ بها المسلمون في مؤتة قد أمدّت النبي ﷺ بدروس عديدة، فبدأ يعمل على تشكيل أحلاف جديدة له وإزالة أي عوائق قد تقف أمام جيوش المسلمين في المستقبل. وبما أنّ هذه القبائل هي الأقرب للبيزنطيين في الأراضي التابعة للمسلمين في شبه الجزيرة، فكان من الأولى البدء بهم، وهذا يشير في الوقت نفسه إلى أن معركة مؤتة وما تبعها مثّل التحرك الفعلي للمسلمين داخل منطقة الشام.

ولكنّ النبي ﷺ بعد هذه السرية توقّف عن التحرك جهة الشمال الغربي وبدأ التركيز بدلاً من ذلك على مكة والمنطقة حولها، إذ قد آن الأوان للانصراف إلى مكة بعد أن فاجأت قريش المسلمينَ بنقض صلح الحديبية، وهذا أمر منطقي،

فقد كان فتح مكة في رمضان من العام الثامن للهجرة/630 ميلادية، وقد انتهى بهذا الفتح الصراعُ بين النبي ﷺ وقريش. وبعدها توجه النبي ﷺ بنفسه للتخلص من كل تهديد يحيط بمكة المكرمة، كقبائل غطفان والطائف.

وبعد أن أحكم النبي ﷺ سيطرته على معظم أرجاء شبه جزيرة العرب، وذلك بعد فتح مكة وغزوة حنين والطائف من بعدها، عمدَ إلى التركيز بشكل أساسي على الطريق الشمالي الغربي الواصل إلى الشام. ويبدو ذلك جليّا عند النظر إلى أولى هذه السرايا، والتي أرسلت على ذلك الطريق بعد السيطرة على شبه الجزيرة. فقد كانت قبيلتا أذرح وبلي تقطنان في منطقة الجناب التي توجهت إليها سرية عكاشة بن محصن.

سريّة الجناب الثانية

رغم أن الواقدي لم يذكر خبرَ هذه السرية، إلا أنّ قصتها قد وردت عند ابن سعد (1997: (2) 124)، وقد وقعت هذه السرية كما يذكر ابن سعد في ربيع الثاني للعام التاسع للهجرة/630 ميلادية، من دون إشارة إلى الأسباب التي دعت النبي ﷺ لإرسال هذه السرية ومن دون ذكرٍ كذلك لما حدث فيها. ولعل هذا يعود إلى كون هذه السرية جزءًا طبيعياً من إستراتيجية النبي ﷺ جهة الشمال الغربي، فهي لم تكن ردّا على اعتداء أو هجوم على المسلمين. بيد أنه تجدر الإشارة هنا إلى أن هاتين القبيلتين كانتا من الحلفاء الأساسيين للبيزنطيين في شمال شبه الجزيرة العربية.

ولو قمنا بالربط بين هذه السرية والتحرك العسكري الكبير الذي أعقبها، والمتمثل في غزوة تبوك، فإننا سنجد أنها كانت بمثابة تحضير لهذه الغزوة المهمة بالتحديد. فهذه السرية لم تخض أي قتالٍ كما يذكر ابن سعد. ويمكن وصفها بالتالي بأنها حملة لجمع المعلومات العسكريّة والإستراتيجية ومراقبة الطريق، وليس هذا سوى تحضيرٍ لحملة كبيرة، كانت هي غزوة تبوك، والتي وقعت بعد شهرين فقط من سرية عكّاشة، أي في رجب للعام التاسع للهجرة/630 ميلادية.

غزوة تبوك

تعدّ غزوة تبوك أكبر وأهم غزوة في حياة النبـــي ﷺ، فقد كانت الأكبر من حيث عدد الرجال الذين شاركوا فيها، وكانت الأبعد من حيث المنطقة التي وصلت إليها، كما كانت الأطول من حيث الفترة التي استغرقتها. وبالرغم من أن النبـــي ﷺ كان قد توجه قبل هذه الغزوة على رأس جيش صغير إلى دومة الجندل، التي تعد بعيدةً نسبياً عن المدينة، شمال شرقي المدينة المنورة، إلا أنها كانت حملة عسكرية صغيرة مقارنة بغزوة تبوك. لقد أتت غزوة تبوك بعد أن أمّن النبـــي ﷺ شبه الجزيرة، كما كان النبـــي ﷺ قد أصدر أمرًا حازمًا لجميع المسلمين بالمشاركة فيها، إلا ذوي الأعذار منهم. وشارك جميع المسلمين بالفعل في هذه الغزوة، إلا من كان له عذر، وباستثناء منافقي المدينة كذلك. كما تخلّف عن تبوك ثلاثة من الصحابة دون عذر، فقاطعهم النبـــي ﷺ وبقية الصحابة خمسين يومًا إلى أنّ عفا الله تعالى عنهم في آيات من القرآن الكريم (سورة التوبة: 117-118) (انظر ابن إسحاق: 2004: 609-615).

لقد ورد ذكر غزوة تبوك في معظم المصادر التاريخية دون ذكر سبب لها (انظر ابن إسحاق 2004: 595، والطبري 1998: (3) 196). ويشير اليعقوبـــي إلى أن النبـــي ﷺ قد أمر المسلمين بالتحرك نحو تبوك انتقامًا لمقتل ابن عمّه جعفر بن أبـــي طالب في مؤتة (اليعقوبـــي (د. ت): (2) 67). ولا يمكن قبول هذا الرأي، إذ يفصل بين الحدثين، مؤتة وتبوك، زمان طويل. كما أنّ ذكر جعفر رضي الله عنه وحده في هذا الرأي، لكونه من آل بيت النبـــي ﷺ راجعٌ على الأغلب إلى كون اليعقوبـــي شيعيًا، وأثر تشيعه ظاهرٌ في معظم كتبه.

ولكنّ لابن كثير رأيًا آخر (1966: (4) 3) بخصوص أسباب هذه الغزوة، فيقول:

> روي عن ابن عباس ومجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير وقتادة والضحاك وغيرهم: أنه لما أمر الله تعالى بأن يُمنَع المشركون من قربان المسجد الحرام في الحج وغيره، قالت قريش: لتنقطعن عنا المتاجر والأسواق أيام الحج وليذهبن ما كنا نصيب منها. فعوضهم الله عن ذلك بالأمر بقتال أهل الكتاب حتى يسلموا أو يعطوا الجزية عن يد

وهم صاغرون. قلت: فعزم رسول الله ﷺ على قتال الروم لأنهم أقرب الناس إليه وأولى الناس بالدعوة إلى الحق لقربهم من الإسلام وأهله.

ومع أنّ هذا التحليل مثيرٌ للاهتمام، إلا أنّه يصعب قبوله لأسباب عديدة، أولها ما يبدو من انقطاع للعلاقة بين غزوة تبوك والرواية التي يوردها ابن كثير. والثاني أن هذه القصة تذكر أنّ منع المشركين من دخول المسجد الحرام في مكة المكرمة، سواء في الحجّ أو غيره من الأيام، هو الداعي الأساسي لغزوة تبوك، ولكنّ هذا المنعَ قد حدث بعد غزوة تبوك، إذ وقعت هذه الغزوة في رجب للعام التاسع للهجرة/تشرين أول 630 ميلادية، بينما كان تحريم دخول المشركين للبيت الحرام حين كان أبو بكر الصديق رضي الله عنه على رأس بعثة الحج في نهاية ذلك العام (ذو الحجة 9 هجرية/آذار 631 ميلادية). وهذا يعني أنّ المشركين خلال غزوة تبوك لم يكونوا قد منعوا من دخول مكّة، وهذا ما يجعلنا نردّ رواية ابن كثير وتحليله.

وهنالك تسويغ آخر يقدمه عثامنة (2000: 89) يقول فيه إن تبوك وكل التحركات العسكرية الأخرى التي قام بها النبـــي ﷺ كانت نابعةً من رغبته ﷺ في توجيه "القدرات القتالية" للقبائل العربية نحو البيزنطيين بدل أن يكون الاقتتال دائرًا فيما بينهم، كما يذهب إلى أنّ لهذه الغزوات والسرايا دواعي اقتصادية. ولكنّا نردّ هذه المقولات، إذ كيف يمكن للنبـــي ﷺ أن يرسل جيوشه في السرايا والغزوات بهدف تشتيت قبائل العرب وهي التي كانت تدخل في دين الإسلام أفواجًا وانتهت الحروب الدائرة بينها. فهذا أمرٌ مستبعد، خاصة أنّ النبـــي قد قاد بنفسه غزوات ضد القبائل العربية في الجزيرة وخارجها في حياته. ويبدو أنّ عثامنة قد سيق لهذا الاستنتاج بناءً على قول ابن كثير الذين سبق ذكره، وهو في ذلك غير مدرك لشخصية النبـــي ﷺ الأساسية، وهي النبوة، وهذا ما دفعه كذلك للقول بأن أهدافًا ماديّة كانت وراء هذه الغزوة وسواها من الغزوات والسرايا.

ويذكر الواقدي (2004: (2) 379) سببًا آخر لهذه الغزوة، إذ يروي أنّ النبـــي ﷺ قد وصله نبأ بأن البيزنطيين قد جمعوا جيشًا عظيمًا في الشام، وأن

هرقل قد زوّد هذا الجيش بما يكفيه من المؤونة لعام كامل، كما كانت قبائل لخم وجذام وعاملة وغسان في حلف مع هرقل، وكانت جيوشهم قد وصلت البلقاء في جنوب الشام. وهذا ما دفع النبـــي ﷺ في ظنّ الواقدي إلى جمع جيش كبير من مختلف قبائل شبه الجزيرة العربية لمهاجمة البيزنطيين. ولكن الواقدي انفرد من بين المؤرخين في ذكر هذه القصة كسبب لغزوة تبوك. ثم يضيف الواقدي أن ذلك الخبر الذي وصل للنبـــي ﷺ لم يكن صحيحًا، أي أن البيزنطيين لم يكونوا قد جمعوا جيشًا لحرب المسلمين (الواقدي 2004: (2) 379). ويعتمد على رواية الواقدي هذه معظم المؤرخين الذين يذكرونها على أنها السبب المباشر لغزوة تبوك، كابن سعد (1997: (2) 125).

ويبني المباركفوري كذلك (1996: 422–424) على هذه القصة، ويذهب إلى أنّ السبب الأساسي وراء غزة تبوك هو وجود تهديد حقيقي على المدينة من قبل ملك العرب الغساسنة[1]. وقد كان هذا بسبب معركة مؤتة قبل سنتين. ويعتمد المباركفوري في رأيه هذا على حديث رواه البخاري (2000: (3) 1206–1207) عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه. ويتحدث هذا الحديث بشكل أساسي عن الحادثة التي هجر فيها النبـــي ﷺ أزواجه شهرًا كاملاً، فظنّ المسلمون أنه طلقهنّ كلّهنّ. ونترك الفاروق رضي الله عنه يروي لنا الحديث:

> وكان من حول رسول الله ﷺ قد استقام له فلم يبق إلا ملك غسان بالشأم كنا نخاف أن يأتينا فما شعرت إلا بالأنصاري وهو يقول إنه قد حدث أمر قلت له وما هو أجاء الغساني قال أعظم من ذاك طلق رسول الله ﷺ نساءه...

ويظهر هذا الحديث في رأي المباركفوري أن المسلمين في المدينة كانوا تحت تهديد الغساسنة حين هجر النبـــي ﷺ أزواجه. وتروى هذه القصة عند الكثير من العلماء على أنها سبب نـــزول سورة التحريم، كالواحدي (د. ت: 243–245). ولكن علماء الحديث والتفسير يختلفون كثيرًا بخصوص تاريخ هذه القصة، وما إذا

---

1 العرب الغساسنة كانوا حكامًا على جزء من الشام وكانوا حلفاء للبيزنطيين، وكان منهم ملوك يحكمون، ولكنّهم كانوا تبعًا للإمبراطورية البيزنطية بشكل غير مباشر. (انظر المباركفوري 1996: 27).

كانت قد وقعت قبل غزوة تبوك أو بعدها، ولن نخوض نحن طويلاً في هذا الخلاف، فهو ليس في صلب موضوعنا. ما يهمّنا هو أنّ الرواية تذكر أنّه قد خضع جميع من في جزيرة العرب لسيطرة النبـــي ﷺ. ولقد تنـــزّلت سورة التحريم في القرآن الكريم بعد سورة الحجرات، وهذا ما يرد في معظم كتب علوم القرآن، ككتاب الإتقان للسيوطي (د. ت: (1) 11)، ولا خلاف بين العلماء على هذه القضية. وقد تنـــزلت سورة الحجرات على النبـــي ﷺ في عام الوفود، حين قام بعض الحاضرين برفع أصواتهم فوق صوت النبـــي ﷺ وهم ينادونه كما تذكر المصادر ولاسيما الواحدي (د. ت: 215-217). وهذا يعني أن سورة التحريم قد تنـــزلت كذلك في عام الوفود، وكذا الحديث الذي سبق ذكره، أي بعد غزوة تبوك.

ويذكر ابن إسحاق (2004: 637) بشكل واضح أن زيارات معظم تلك الوفود التي وصلت المدينة لإعلان ولائها للنبـــي ﷺ قد تمّت بعد غزوة تبوك. ويظهر الحديث الذي رواه عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن هذا التهديد قد بدأ بعد استسلام القبائل المجاورة للنبـــي ﷺ، كما تذكر بوضوح أنه لم يبق سوى ملك الغساسنة ليخضع لسلطة النبـــي ﷺ. وهذا يقودنا إلى الحكم بأنّ هذه الحادثة قد حصلت بعد غزوة تبوك.[1] وبالتالي فيمكن القول إنه لم يكن هنالك تهديدات حقيقية تستدعي تجهيز جيش كبير للدفاع عن المدينة المنورة إبّان غزوة تبوك. ولهذا نرى أن السبب الذي تحدث عنه الواقدي وبنى عليه المباركفوري ليس دقيقًا تمامًا، إذ إن خطر الغساسنة قد ظهر بعد غزوة تبوك وليس قبلها.

ولكنّ السيوطي في كتابه *لباب النقول* (د. ت: 276) يذكر رواية أخرى مثيرة كذلك للاهتمام تتعلق بسبب غزوة تبوك، وقد ذكر هذه الرواية ابن أبـــي حاتم (ت. 327 للهجرة/940 ميلادية) (2006: (6) 125):

> عن عبد الرحمن بن غنم أن اليهود أتوا النبـــي ﷺ فقالوا: إن كنت نبياً فالحق بالشام فإن الشام أرض المحشر وأرض الأنبياء عليهم الصلاة

1 لقد بدأ تهديد الغساسنة للمدينة بعد غزوة تبوك، كما كان على الأغلب قبيل بعث أسامة بن زيد رضي الله عنه كما سيأتي.

والسلام. فصدق رسول الله ﷺ ما قالوا، فغزا غزوة تبوك لا يريد إلا الشام، فلما بلغ تبوك أنـــزل الله عليه آيات من سورة بني إسرائيل بعدما ختمت السورة: "وإن كادوا ليستفزونك من الأرض" إلى قوله "تحويلا" فأمره بالرجوع إلى المدينة وقال: فيها محياك ومماتك ومنها تبعث.

هذه الرواية ضعيفة، وهذا ما يذكره السيوطي نفسه (د. ت: 277)، ويذكر كذلك أنّ هناك روايات ضعيفة أخرى قد تقوّيها. وفي الواقع، هنالك فقط رواية واحدة مشابهة وقد رواها الطبري (1999: (8) 121)، ولا يرد فيها ذكر لتبوك، كما لا تذكر أن النبـــي ﷺ قد صدق قول اليهود. وقد أورد الطبري ذكر هذه الرواية في معرض حديثه عن تفسير آية من القرآن الكريم، وهي الآية رقم 76 من سورة الإسراء، فمن العلماء من يقول إنها مكّية ومنهم من يقول إنّها مدنية. وجاء في الرواية الأولى:

حدثنا محمد بن عبد الأعلى ثنا معتمر بن سليمان عن أبيه قال: زعم حضرمي[1] أنه بلغه أن بعض اليهود قال للنبـــي ﷺ: إن أرض الأنبياء أرض الشام، وإن هذه ليست بأرض أنبياء. فأنـــزل الله: ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا...﴾

ومن ثم يذكر الطبري أربع روايات تعارض هذه الرواية، حيث تذكر هذه الروايات أن الآية تقصد أهل مكّة، ومنهم قريش بالتحديد، وليس يهودَ المدينة. وبعد أن يشير الطبري إلى هذه الروايات الأربعة، يرجع إلى الأولى ويردّها، اعتمادًا على جو السورةِ والروايات الأربعة التي ذكرها. أمّا ابن كثير (1994: (3) 74) يردّ رواية السيوطي من أساسها نظرًا لضعفها متنًا وسندًا.

1 يبدو أن سليمان بن طرخان (ت. 143 للهجرة/761 ميلادية) لم يذكر اسم الشخص الذي نقل قصةَ كلام اليهود للنبـــي ﷺ، واكتفى بالإشارة إلى أنه حضرمي. فشمس الدين الذهبـــي (ت. 748 للهجرة/1374 ميلادية) (2001: (6) 195-196) يذكر أسماء جميع من روى عنهم سليمان، ليس من بينهم شخص من يسمّى أو يلقّب بالحضرمي. ويذكر الذهبـــي (2001: (25) 140) أربعة أشخاص فقط باسم أو لقب الحضرمي، وجميعهم توفّوا لقرونٍ عدّةٍ بعد سليمان، ونخلص بهذا إلى أنّ سليمان نقل هذه القصة عن شخص غير معروف، خاصّة أن سليمان نفسه يضعف الرواية حين يقول: زعم حضرمي أنه سمع...، فهي إذن رواية ضعيفة ولا يمكن الاعتماد عليها.

هنالك مفسّر واحد انفرد بقبول أنّ هذه الآية مدنية، وهو القرطبـــي (1998: (5) 185)، إذ يقول إن سورة الإسراء سورةٌ مكّية ما عدا ثلاث آيات، منها الآية رقم 17، فهذه الآية في نظر القرطبـــي قد تنـــزلت على النبـــي ﷺ حين أتى وفد من الطائف إلى المدينة ليسلموا بين يديه. وهذا في الواقع يثير إشكالاً أكبر، لأنّ وفد الطائف أتوا النبـــي ﷺ وهو في المدينة المنورة بعد غزوة تبوك (انظر ابن إسحاق 2004: 615، والطبري 1998: (3) 193-195، وابن كثير 1966: (4) 53). ولو قبلنا برأي القرطبـــي هذا، فلا يمكن ذكر غزوة تبوك في معرضها، لأنها الغزوة ستكون قد وقعت بعد هذه الحادثة.

جميع الآراء السابقة تظهر أن هناك خلطًا واضحًا بخصوص السبب الرئيس لهذه الغزوة تحديدًا، مع أنّ الأسباب الفعلية لها قد تكون أغفلت في خضمّ الأحداث التي وقعت في الغزوة نفسها. فعند دراستنا لهذه الأحداث، لفت انتباهَنا نقطتان أساسيتان؛ أما الأولى فهي استغلال النبـــي ﷺ غزوةَ تبوك لكتابة العديد من الكتب والمعاهدات التي تضمن للمسلمين الحصول على أي موارد تلزمهم في المستقبل. فقد ضمن مثلاً التزود بالسلاح من مقنا وأذرح، كما ضمن من ناحية أخرى التزود بالطعام والشراب من أيلة. أي أنّ النبـــي ﷺ قد مكث في تبوك إلى أن ضمن موارد كافية للمسلمين في هذه الغزوة وغيرها من الحملات في المستقبل. كما أنّ هذه المعاهدات والوثائق كانت تعني انتهاء الحلف بين هذه القبائل والإمبراطورية البيزنطية، مما يعني أنه قد تمخّض عن غزوة تبوك مرحلة جديدة في العلاقة بين المسلمين وسكان تلك المنطقة.

أما النقطة الثانية، فيمكن تلخيصها بحديث أورده البخاري (2000: (2) 621) كان النبـــي ﷺ قد قاله في تبوك:

> عن عوف بن مالك قال: أتيت النبـــي في غزوة تبوك وهو في قبة من أدم فقال: اعدد ستاً بين يدي الساعة: موتي ثم فتح بيت المقدس...

وهذا الحديث هو أوضح ما يمكن أن يعبر عن أهداف النبـــي ﷺ من هذه الغزوة، وهي المرة الأولى التي يذكر فيها النبـــي ﷺ أنّ الزمان الذي سيتحقق فيه

فتح بيت المقدس هو بعد وفاته ﷺ.[1] وأكثر ما يهمّنا هنا هو اختيار النبـــي ﷺ لمنطقة تبوك، وهي القريبة كلّ القرب من حدود الشام. كما يجب أن نتنبه إلى أن عوف بن مالك رضي الله عنه لم يسأل النبـــي ﷺ عن هذه القضية من قبل حديث النبـــي ﷺ معه، وهذا يعني أنّه ﷺ قد قصد إخبار عوف بن مالك بهذا الحديث بعد أنْ أوحيَ إليه أنّه لن يشهد فتح بيت المقدس. وهكذا يكون هذا الحديث الشريف

---

1 هناك حديث آخر ذكر فيه النبـــي ﷺ فتح بيت المقدس، وقد رواه شداد بن أوس (ت. 58 للهجرة/678 ميلادية)، يقول فيه إن النبـــي ﷺ قد عاده في مرضه، وأنّه قال له: "إن الشام يفتح، ويفتح بيت المقدس، وتكون أنت وولدك أئمة فيهم إن شاء الله. "وقد ذكر هذا الحديث المتقي الهندي (ت. 975 للهجرة/1567 ميلادية) (1998: (14/7) 69). ومع أنّ هذه الرواية ضعيفة بسبب عدم معرفة بعض الرواة فيه، إلا أنّها رويت بطريق آخر قد يقوّيها (انظر الطبري 1985: (7) 289)، ولكن لا يعرف كذلك متى روي هذا الحديث. ولذا لا يمكن الجزم إن كان قد قاله النبـــي ﷺ قبل غزوة تبوك أو بعدها، مع أنّ العويسي (2006: 50) يرى أن هذا الحديث قد قيل على الأغلب قبل تبوك، ويذهب الأشقر (2006: 23) أبعد من ذلك قائلاً إن النبيّ ﷺ قد قال هذا الحديث قبل الهجرة. ولكنّ رأي الأشقر بعيد عن الصحة، وذلك لأنّ شدادًا بن أوس كان من الأنصار، ولا يعقل أن يكون النبـــي ﷺ قد زاره في مرضه قبل الهجرة. كما أنّ العويسي لا يملك دليلاً على ما ذهب إليه. ولكنّ الحديث على أية حال لا يحدد وقتًا للفتح ولا يقدّم حتى أي إشارة إلى ذلك، وهذا ما يميّز حديث عوفٍ رضي الله عنه في تبوك، فهو يحدد جدولاً زمنيًا لفتح بيت المقدس، حيث سيكون هذا الفتح بعيد وفاة النبـــي ﷺ. ويرى خالد العويسي في حديث بيت المقدس أثناء تبوك أنه قد يلتقي مع حديث السيوطي بخصوص اليهود الذين أتوا النبـــي ﷺ طالبين منه أن يخرج إلى الشام، وهذا قد يعني حسب خالد العويسي أن النبيّ ﷺ قد أخذ برأي اليهود، حسب ما تشير رواية السيوطي، وانطلق إلى تبوك. ولكنّه حين وصل هناك، أدرك بوحيٍ من الله تعالى أن فتحّ بيت المقدس لن يتمّ في حياته، وحينها قال ذلك الحديث لعوف بن مالك، وهذا ربما ما دفع ابن كثير (1997: (1/1) 279) إلى القول بأن ذهاب النبـــي محمد ﷺ إلى تبوك وتجهيزه لبعث أسامة بعد ذلك، يشبه حكاية ذهاب النبـــي موسى عليه السلام إلى الأرض المقدسة. فكلاهما أرادا الذهاب إليها، ولكنه لم يكن قد كتب لأيّ منهما تحقيق ذلك. وقد أعربّ خالد العويسي عن رأيه هذا في لقاء أكاديمي في السادس من تموز 2007. وأجد صعوبة في قبول هذا الرأي، وذلك لأنّ رواية السيوطي لا يمكن أن يعتدّ بها كدليل كما أسلفنا. ثم إن ابن كثير نفسه يردّ تلك الرواية، فلا يعقل أن يكون قد ردّها واعتمد عليها في آنٍ معًا، ولا يمكن للعويسي كذلك أن يعتمد على مقولة ابن كثير، وذلك لأنها قد أتت في معرض بسطه للأسباب التي دعت النبـــي ﷺ للذهاب إلى تبوك وإلى تجهيز بعث أسامة بن زيد رضي الله عنه، فلا علاقة إذن بين قول ابن كثير ورواية السيوطي.

أوضح دليل وأقوى حجة تدعم النظرية القائلة بأن الهدف المحدد من غزوة تبوك هو فتح الطريق نحو بيت المقدس. ومع أنّ بيضون (1997: 95) يرى أن هدف الغزوة هو فتح الطريق نحو الشام عمومًا، إلا أننا نختلف معه ونرى أن الهدف محدّد بفتح بيت المقدس، وذلك اعتمادًا على النص الصريح للحديث الذي أوردناه.

وقد يرى البعض أن النبـــي ﷺ قد قاد جيشًا إلى تبوك تمهيدًا لتجهيز حملة لفتح بيت المقدس، وليس لدينا في الواقع ما يجعلنا نردّ هذه الفكرة، خاصّة أنّ الواقدي (2004: (2) 400) يورد أنّ النبـــي ﷺ كان قد طلب من أصحابه في تبوك أن يشيروا عليه في التقدم نحو الشمال أو العودة إلى المدينة المنورة:

> وشاور رسول الله ﷺ في التقدم فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: إن كنت أمرت بالمسير فسر. قال رسول الله ﷺ: لو أمرت به ما استشرتكم فيه. قال: يا رسول الله فإن للروم جموعا كثيرة وليس بها أحد من أهل الإسلام وقد دنوت منهم حيث ترى، وقد أفزعهم دنوك، فلو رجعت هذه السنة حتى ترى، أو يحدث الله عز وجل لك في ذلك أمراً.

تظهر هذه الرواية كما يرى الأشقر (2006: 36) الحرصَ الكبير لدى النبـــي ﷺ على الوصول إلى الشام. وقد تبدو هذه القصة متعارضة مع حديث عوف بن مالك رضي الله عنه بخصوص فتح بيت المقدس. فالحديث يشير إلى أنّ النبـــي ﷺ قد أخبرَ بأن فتح بيت المقدس سيتحقق بعد وفاته، أما رواية الواقدي هذه فتظهر أنّه لم يكن مدركًا لهذا الأمر. والحقيقة أنْ لا تعارضَ في الواقع بين الأمرين، لأنّنا لا نعرف الزمنَ الذي تكلم فيه النبـــي ﷺ مع عوف بن مالك في تبوك. ولعل ما حدث هو أنّ النبـــي ﷺ تقدم إلى تبوك لبدء حملة لفتح بيت المقدس وكان قد تجهّز تمامًا لإنجاز الفتح، وتجلّى هذا في العدد الكبير لجيش المسلمين وبالطريقة التي كان يخاطب فيها النبـــي ﷺ جيشه أثناء التحضير للغزوة. ولما وصل النبـــي ﷺ إلى تبوك، استشار أصحابه، وحين انتهت هذه المشاورات، أبرم النبـــي ﷺ معاهدات مع القبائل والمدن على طول الطريق الساحلي الواصل لبيت المقدس. فأمّن بذلك الطريق، وربما عزم على العودة في العام المقبل، كما ذكر

في عهدته لأهل أذرح. وبعد ذلك كلّه أوحي إليه أن الفتح لن يكون في حياته، وعلى إثر ذلك تكلّم مع عوف بن مالك في حديث فتح بيت المقدس. وبهذا يكون النبـــي ﷺ قد مهّد الطريق إلى بيت المقدس للمسلمين الذين سيأتون للفتح بعد وفاته ﷺ، وقفل راجعًا إلى المدينة المنورة بعد إتمامه لهذه المهمة.

بعث أسامة

تبع غزوةَ تبوك سرية أخرى إلى المنطقة نفسها. وقد كانت هذه السرية، وهي بعث أسامة بن زيد رضي الله عنه، آخر حملة عسكرية في حياة النبـــي ﷺ، حيث شرع في الإعداد لها بعد عودته من حجة الوداع في العام الحادي عشر للهجرة/632 ميلادية (انظر الواقدي 2004: (2) 473). ولكنّ البعث لم يخرج إلا بعد وفاته ﷺ.

وقد وردَ سببٌ مباشرٌ لتجهيز النبـــي ﷺ لبعث أسامة عند ثلاثة من المؤرخين وحسب، وهم اليعقوبـــي (د. ت: (2) 113)، والواقدي (2004: (2) 473) وابن سعد (1997: (2) 145). حيث ذكروا أنّ الهدف من إرسال بعث أسامة هو الانتقام لمقتل قادة جيش المسلمين في مؤتة. بينما يرى المباركفوري أن هذه السرية قد شكّلت من أجل إثارة الرعب لدى البيزنطيين، لأنهم قتلوا كل من دخل الإسلام في بيزنطة، كفروة الجذامي رضي الله عنه، وكان عاملاً لهم على معان. ويضيف المباركفوري أن هذه السرية قد بثّت الثقة من جديد بين القبائل العربية التي واجهت البيزنطيين على مشارف الشام (المباركفوري 1996: 470). أما ابن كثير (1997: (11/1) 279) فله رأي آخر، إذ يرى أن النبـــي ﷺ كان يريد المضي نحو الشام، فأرسل أسامة لبدء حملة يقودها النبـــي ﷺ بنفسه، للذهاب هناك بعد البعث. ولكن هذه الفكرة تتعارض مع الحديث الذي سمعه عوف بن مالك رضي الله عنه من النبـــي ﷺ في تبوك، ولذلك فإننا نميل إلى ردّها.

ويظهر أنّ هنالك عددًا من الظروف التي أحاطت ببعث أسامة ودعت النبـــي ﷺ إلى تجهيزه، ومن ذلك تهديد الغساسنة للمدينة المنورة بعد تبوك كما أشرنا من قبل. ولكنّ هذا ليس سببًا أساسيًا للبعث، فالحديث الذي يحدد فيه النبـــي ﷺ وجهة هذا البعث كما سنرى بعد قليل تجعلنا نتردد في الجزم بأنّ تهديد الغساسنة للمدينة كان دافعًا مباشرًا لتجهيز بعث أسامة، ولكنّه يبقى واحدًا من الدوافع المهمة له،

إذ لو كان هذا التهديد هو السبب الوحيد لكان النبـــي ﷺ قد تعامل بشكل مختلف مع هذه السرية كما سنرى، أو لكان قد أمرَ الجيش بالانطلاق إلى وجهة أخرى.

ولعل آراء الواقدي واليعقوبـــي وابن سعد قد جاءت بناءً على ما قاله النبـــي ﷺ لأسامة بن زيد[1] رضي الله عنه في هذا الشأن، كما يورده الواقدي (2004: (2) 473):

يا أسامة، سر على اسم الله وبركته حتى تنتهي إلى مقتل أبيك.

وكما ذكرت وجهة بعث أسامة عند المؤرخين فإنها قد وردت كذلك في نص حديث نبويّ شريف رواه أبو دواد (2000: (2) 446):

قال عروة: فحدثني أسامة أن رسول الله ﷺ كان عهد إليه فقال: أغد على أبنى صباحاً وحَرِّق.

لا يذكر هذا الحديث اسم زيدٍ ولا غيره من القادة الذين استشهدوا في مؤتة، مع أنّه يمكن إلحاق الإضافة التي أوردها الواقدي والتي يذكر فيها مكان استشهاد زيد رضي الله عنه. بيد أنه حتى لو جمعنا بين النصين، فإن عبارة الواقدي التي يقول فيها النبـــي ﷺ "يا أسامة، سر على اسم الله وبركته حتى تنتهي إلى مقتل أبيك" إنما تشير إلى مكانٍ لا إلى سبب. ولا يمكن إذن أن نعتمد رأي الواقديّ في هذا السياق، فهنالك فجوة زمنية بين معركة مؤتة وبعث أسامة تبلغ ثلاث سنوات تحديدًا، وقد تخلل هذه الفجوة الزمنية العديد من الأحداث والوقائع.

وقد كانت إشارة النبـــي ﷺ لأسامةَ إلى مكان استشهاد أبيه أسلوبًا يدلّ على حكمته ﷺ، إذ حدّد له وجهة البعث وحفّزه في عبارة واحدة. وهنالك خلاف بين المؤرخين في الوجهة، فمنهم من يرفض رواية الواقدي بخصوص تحديد وجهة بعث أسامة، ومنهم من يذكر أنّ البعث توجه إلى أُبنى، وبعضهم يقول إلى يُبنى، وغيرها من الآراء المتضاربة. وقد جمعت هذه الآراء (انظر عمر 2006: 88-90)، ولخصتها في الجدول التالي:

---

1 أسامة بن زيد رضي الله عنه (ت. 54 للهجرة/674 ميلادية) وهو ابن زيد بن حارثة رضي الله عنه، أمير المسلمين الأول في معركة مؤتة. وقد كان يعرف بين الصحابة بالحِبّ ابن الحِبّ وذلك لحبّ النبـــي ﷺ له ولأبيه (انظر بن سعد 1997: (4) 45)

الرقم	العالم/المؤرخ	الرأي	ملاحظات
1	اليعقوبـــي (د. ت: (2) 113)	يُبنى	يورد في حديث أسامة لفظ (يُبنى) وليس (أُبنا)
2	الواقدي (2004: (2) 473-474)	أبنى مؤتة	كان عنوان الفصل الذي تحدث فيه عن بعث أسامة (غزوة أسامة بن زيد إلى مؤتة)، مع أنّه يذكر أن البعث توجه إلى أبنى.
3	ابن سعد (1997: (2) 145)[1]	أبنى	
4	الطبري (1998: (3) 244-269)	البلقاء والداروم آبل الزيت	يذكر كلا الرأيين
5	ابن إسحاق (2004: 673)	البلقاء والداروم	
6	ابن هشام (2005: (4) 170)	البلقاء والداروم	
7	السهيلي (د. ت: (4) 385)	أبنى	
8	ياقوت الحموي (1990: (1) 101)	أبنى آبل الزيت	يذكر كلا الرأيين
9	البكري (ت. 487 للهجرة/1094 ميلادية) (1998: (1) 91)	أبنى	
10	أبو داود (2000: (2) 446)	أبنى	
11	أبو مسهر	يبنى	رواية في سنن أبـــي داود (2000: (2) 446)
12	السهارنفوري (د. ت: (11) 124-125)	يبنى	
13	الكاندهلوي	أبنى	يذكر هذا الرأي في تحقيقه لكتاب السهارنفوري (د. ت: (11) 124-125)
14	ابن حنبل (1995: (16) 96	أبنى	
15	ابن ماجه (2000: 415)	أبنى	
16	البنا (د. ت: (13) 66-67)	أبنى	كما يذكر أن ابن قدامة المقدسي قال إنها قرب الكرك على مشارف الشام
17	ابن عساكر (1995: (8) 46-64)	أبنى مؤتة	يذكر كلا الرأيين
18	ابن كثير (1966: (4) 440)	البلقاء والداروم	

الجدول (4) آراء العلماء والمؤرخين حول مكان بعث أسامة بن زيد

1 يذكر ابن سعد أن أبنى تقع على ساحل البحر، ويبدو أنه خلط بين أبنى ويبنى.

الموقع	عدد الآراء
أبنى	11
البلقاء والداروم	4
يبنى	3
مؤتة	2
آبل الزيت	2

الجدول (5) ملخص الآراء بخصوص موقع بعث أسامة بن زيد.

يظهر الجدولان السابقان أن معظم العلماء والمؤرخين ذكروا أنّ أن أُبنى هي الوجهة التي حددها النبي ﷺ لبعث أسامة، وقد يعود الخلط إلى الشهرة التي كانت تتمتع بها منطقة أخرى تدعى يُبنى، بينما كانت أبنى أقل شهرة منها في ذلك الوقت.[1] وما تزال يبنى معروفة حتى الآن في فلسطين، ولكن ما مكان يعرف حاليًا باسم أبنى. ويبدو أن رواية الواقدي واليعقوبي تشيران إلى أن أبنى تقع على الأغلب في المكان الذي استشهد فيه زيد بن حارثة رضي الله عنه. ومن المعروف أن قادة مؤتة رضي الله عنه لم يدفنوا في مكان المعركة نفسه، أي مؤتة، وإنما دفنوا على مقربة منها في قرية تدعى اليوم "المزار"، والتي تظهر في الخريطة:

1 يوضح الإمام الحموي فيما يتعلق برأيه حول البلقاء والداروم أن الأولى تقع بين الشام ووادي القرى في شبه الجزيرة العربية، وعاصمتها عمّان (1990: (1) 579-580). وهذا يعني أنها تقع شرقي وادي الأردن. أما الداروم فتقع قرب غزة (انظر الحموي 1990: (2) 483). وهنالك مسافة طويلة تفصل بين البلقاء والداروم إذن. ولكنّ الحموي (1990: (2) 483) يرى أن هنالك منطقة أخرى قرب البحر الميت تدعى داروما، ويمكن أن يكون هو المكان الذي ذكر فيها هذه الآراء كذلك. كما تقع منطقة آبل الزيت في منطقة قرب وادي الأردن أيضًا كما يذكر الحموي نفسه (1990: (1) 68). ويبدو بناء على هذا أن لا أثر كبير يترتب على هذا الخلاف. فمنطقة آبل الزيت لا تذكر إلا عند اثنين من العلماء من دون ذكر دليل على وجود هذا الاسم، ولهذا تبقى الأدلة والآراء مؤكدة على اسم أبنى. ويعني هذا أن جميع المناطق الأخرى المذكورة، باستثناء يبنى، قريبة من أبنى، والتي ذكر الحموي (1990: (1) 101) أنها في منطقة البلقاء حول مؤتة. يتبين لنا إذن أن الخلط الرئيس قد وقع بين أبنى ويبنى، وسبب هذا الخلط تلك الرواية التي تحاول توضيح الحديث والتي رواها أبو مسهر (انظر أبو داود 2000: (2) 446). لكنّ أبا مسهر لا يقدم أي سبب لذكر يبنى مكان أبنى مع أنها قد وردت صراحة في الحديث، وهذا يضعف رأيه، خاصة مع وجود رواية الواقدي (2004: (2) 473)، والتي تحدد أنه المكان الذي استشهد فيه زيد بن حارثة رضي الله عنه. وكل هذا يؤكد على الرأي القائل بأن أبنى تقع شرق وادي الأردن وقرب منطقة البلقاء أو ضمنها.



الخريطة (7) موقع قرية المزار (من رسم المؤلف)

ويقودنا هذا البحث إلى أنّ المكان الذي توجّه إليه بعث أسامة رضي الله عنه كان قرب مؤتة والمزار[1] كما نعرفهما اليوم، ولعلّ قرية المزار هذه هي نفسها أُبنى[2]، ويبدو أنها صارت معروفة بشكل جيد لدى المسلمين لارتباطها بمعركة مؤتة. ولهذا وصفها النبي ﷺ بأنها على مقربة من مكان استشهاد زيد حين تحدث ﷺ عن بعث أسامة، بخلاف ما يراه الواقدي واليعقوبي وابن سعد أما الجوانب التي أشار إليها المباركفوري وابن كثير فيما يتعلق بدوافع تجهيز بعث أسامة فقد تكون الأقرب لما كان عليه الوضع في المنطقة في تلك الفترة، وفي هذا السياق نفسه يمكننا أن نفهم حديث عمر بن الخطاب ﷺ في البخاري (2000: (3) 1206–1207) بشأن خوف المسلمين من ملك الغساسنة، فهو يزيد من قوة الرأي الذي قدمه المباركفوري وابن كثير رحمهما الله.

1 تبعد المزار ثلاثة كيلومترات فقط عن مؤتة

2 المزار هو مكان الزيارة، ولعل هذه المنطقة صارت تعرف بهذا الاسم لاحقا بين المسلمين، إذ لم نجد في المصادر ما يشير إلى وجود هذا الاسم من قبل.

لقد استعاد البيزنطيون هيبتهم ومكانتهم بعد أن هزموا الفرس قبل سنوات قليلة، بالرغم من حالة الضعف العام التي أصابتهم بسبب حربهم مع الدولة الفارسية كما أشرنا سابقًا. ولهذا تجدّد التهديد الذين يمثله البيزنطيون وحلفاؤهم من العرب على المدينة المنورة، خاصة بعد غزوة تبوك، والتي تَقَدَّم الآلافُ من الرجال وقتها لقتال الروم من المدينة المنورة ومن مختلف مناطق شبه الجزيرة العربية، وليس في هذا إغفال لرأي المباركفوري وابن كثير. فهناك العديد من العناصر التي دفعت النبـــي ﷺ لتشكيل هذه السرية وتجهيز هذا البعث، وإن أمرَه أسامةَ بحرق بعض المواقع في أُبنى يكشف بعضًا منها كما سنرى.

ويود المؤلف هنا أن يشير إلى هنا إلى فكرةٍ مهمّة تستدعي الوقوف عندها لخليل عثامنة (2000: 96)، الذي يرى أن بعث أسامة يدلّ على رغبة النبـــي ﷺ في معرفة درجة صدق قادة قبائل العرب في الجانب الجنوبـــي من الشام ومدى التزامهم بالمعاهدات التي أبرمها النبـــي ﷺ معهم. ولعل هذا يكون سببًا وجيهًا لتجهيز بعث أسامةَ في ذلك الوقت بالتحديد. هنالك في المقابل رواية تاريخية مهمة يوردها ابن عساكر (1995: (8) 63) تتعلق بأهمّية هذا البعث وأثره على البيزنطيين الذين كانوا يسيطرون على الشام في تلك الفترة:

> .. فقدم بنعي رسول الله ﷺ على هرقل وإغارة أسامة في ناحية من أرضه خبراً واحداً، فقالت الروم: ما بالى هؤلاء بموت صاحبهم أن أغاروا على أرضنا..

هذه الرواية المهمة تكشف عن أحد أهم النتائج التي ترتبت على بعث أسامة. فأمرُ النبـــي ﷺ لأسامة بحرق بعض الأجزاء من أُبنى كان رسالةً لأهل تلك المنطقة، كي ينقلوها إلى البيزنطيين، وذلك للحفاظ على سمعة المسلمين في تلك المنطقة وصورتهم القويّة، ولهذا لم ينقل لنا التاريخ حدوث عصيانٍ أو نبذٍ للمعاهدات مع المسلمين من قبل هذه القبائل التي تقطن الجهة الجنوبية من الشام بعد وفاة النبـــي ﷺ.

ولعلّ هذا ما دفع النبـــي ﷺ حسب رواية الواقدي ليحثّ أسامة رضي الله عنه على التوجه بسرعة وخفية إلى أبنى قبل أن يصل الخبر إلى العدوّ، كما أمره

النبـــي ﷺ أيضًا بعدم المكوث هناك كثيرًا بعد الهجوم (انظر الواقدي 2004: (2) 473). وتكشف لنا هذه الأوامر الصارمة أن النبـــي ﷺ كان حريصًا على حماية منجزاته في تلك المنطقة والتي تحققت له إبان غزوة تبوك، فكانت هناك حاجة ماسّة للتحرك العسكري فيها لتعزيز سمعة المسلمين وحماية ما تحقق في غزوة تبوك وما سبقها من غزوات وسرايا.

وهكذا تتجلّى لنا الأهمّية العظيمة لبعث أسامة، مما يتيح لنا أن نفهم إصرار النبـــي ﷺ على إنفاذ بعث أسامة في ذلك الوقت بالتحديد كما يقول ابن إسحاق (2004: 707–708). وقد أمر النبـــي ﷺ المسلمين وهو في اللحظات الأخيرة من حياته على فراش الموت أن ينفذوا بعث أسامة بن زيد رضي الله عنه لما وجدَ فيه النبـــي ﷺ من أهمية وضرورة. كما أن الأوامر التي وجهها النبـــي ﷺ لأسامة رضي الله عنه، والتي ساعدت حينها في تأمين الطريق الشمالي الغربـــي نحو بيت المقدس، تظهر لنا حنكة النبـــي ﷺ ونظرته الإستراتيجية البعيدة، كما تظهر لنا في المقام الأول التوجيه الإلهيّ للنبـــي ﷺ وأنه لا ينطق عن الهوى. وتظهر العديد من القصص والروايات أن النبـــي ﷺ كان يستشعر قرب منيته[1]، ولذا حرص ﷺ على توجيه أمره لأسامة رضي الله عنه للتوجه على هيئة محدّدة إلى نقطة بعينها على الطريق الشمالي الغربـــي، للقيام بعمليات محددة كذلك. وهذا التحركات والأوامر تظهر أنّ النبيّ كان مؤيّدًا بوحي السماء، فقد كان ﷺ يتصرف وهو يستشرف بوضوح ما سيعقب وفاته، وهذا سبب اهتمامه البالغ ﷺ بإنفاذ بعث أسامة. فقد أصدر أوامرَ جازمةً في أنفاسه الأخيرة بإرسال هذا البعث، قائلاً للمسلمين في مرض موته: "أنفذوا بعث أسامة" (انظر ابن إسحاق 2004: 707). فقد أراد النبـــي ﷺ أن يتأكد من أنّ المسلمين من بعده سينفذون وصيته ويطبقون

---

1 ومن هذا ما قاله النبـــي ﷺ للمسلمين في حجة الوداع، كما يروي الدارمي (ت. 255 للهجرة/869 ميلادية): "أيها الناس اسمعوا مني ما أبين لكم، فإني لا أدري لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا" (انظر الدارمي 1996: (1) 79). وما قاله ﷺ لمعاذ بن جبل رضي الله عنه (ت. 18 للهجرة/639 ميلادية) حين أرسله إلى اليمن: "يا معاذ إنك عسى ألا تلقاني بعد عامي هذا، ولعلك أن تمر بمسجدي هذا وقبري" (انظر ابن حنبل 1995: (16) 179–180) بالإضافة إلى ما قاله النبـــي ﷺ في حديثه من أن فتح بيت المقدس سيكون بعد وفاته.

إستراتيجيته، وهذا ما أدركه الصديق أبو بكر رضي الله عنه عندما كان أولَ ما فعله بعيد وفاة النبـــي ﷺ وتوليه خلافة المسلمين من بعده أن أنفذَ جيش أسامة وفاءً لوصية النبـــي ﷺ (انظر الواقدي 1990: 51)، وتمّ هذا في نفس الشهر الذي توفّي فيه النبـــي ﷺ.

الخلاصة

يمكن أن نخرج من هذا الفصل بخلاصات عديدة. فنحن رأينا كيف أن معظم المؤلفين قد تناولوا كل حدثٍ من الأحداث، خاصّةً التحركات العسكرية، التي وقعت في حياة النبـــي ﷺ، بمعزل عن بقية الظروف التي سبقت كل واحدة منها أو أعقبته. ولكنّا نظرنا في هذا الفصل إلى تلك التحركات العسكرية والأحداث باعتبار أنها تدور ضمن إستراتيجية موحّدة يظهر لنا من خلالها صورة واضحة لمقاصد النبـــي ﷺ وإستراتيجيته التي تجلت في تحركاته العسكرية. وقد ظهر بجلاء أيضًا أن النبـــي ﷺ قد أقدم على بعض الخطوات العسكرية المهمة التي كان من شأنها فتح الطريق من شبه الجزيرة نحو بلاد الشام، وقد نبهنا في هذا الفصل إلى أن معظم هذه الحملات العسكرية قد توجهت جهة الشمال الغربـــي، وهي الجهة الواصلة إلى بيت المقدس، وقد حدث ذلك بالتحديد في النصف الثاني من حياة النبـــي ﷺ في المدينة المنورة. وهذا يكشف عن المكانة العظيمة لبيت المقدس عند النبـــي ﷺ كما يوضّح عزمه ﷺ على تأمين الطريق إليه لتحقيق الفتح المنشود.

لا يمكن في الوقت نفسه الجزمُ بأن هذه الخطوات العسكرية التي أقدم عليها النبـــي ﷺ بهذا الهدف بالتحديد، أي فتح بيت المقدس، قد بدأت لدى وصوله المدينة المنورة، بخلاف ما ذهب إليه الطل. وهذا يعود إلى حقيقة بسيطة مفادها أنّ النبـــي ﷺ كان أمام عائق كبير تمثّل في كون معظم القبائل العربية في شبه الجزيرة العربية تقف ضدّه، خاصّة في مكة المكرمة. فلا يعقل بحال أن يهمل النبـــي ﷺ الخطر المحدّق به في مكةَ ويتوجّه شمالاً إلى بيت المقدس. وبناء على ذلك قمنا بتحديد نقطة بدء العمليات العسكرية والتي كانت أول خطوةٍ للنبـــي ﷺ نحو بيت المقدس، حيث كانت هذه البداية في غزوة الخندق. فقد كانت هذه الغزوة في واقع الأمر نقطة تحول هامة في شكل العلاقة بين النبـــي ﷺ وقريش، إذ كانت

بمثابة بداية نهاية سيطرة قريش على مكةَ المكرمة. وانطلاقًا من هذه النقطة، لم يضيّع النبـــي ﷺ أي فرصة لإرسال السرايا والخروج في الغزوات على الطريق الواصل إلى بيت المقدس، فأرسل أول سرية إلى حسمى، وكان على رأسها زيد بن حارثة رضي الله عنه، ومن ثم توالت الحملات العسكرية الواسعة التي توجهت إلى مناطق وقبائل عديدة في تلك المنطقة.

وبدأ النبـــي ﷺ بعد ذلك بتأمين بعض المناطق في اتجاهات متعددة قاصدًا كسر شوكة قريش وذلك بالتزامن مع الاستمرار في إرسال السرايا نحو الطريق الواصل إلى بيت المقدس. وقد كان صلح الحديبية الذي جاء في خضمّ سعي النبـــي ﷺ لفتح الطريق الشمالي الغربـــي نحو بيت المقدس نقطة تحولٍ في المواجهة بين النبـــي ﷺ وأهل مكة، وهذا ما دفعه ﷺ لقيادة المسلمين بنفسه في غزوة خيبر والتركيز بشكل خاص عليها، إذ كان يدرك ﷺ أنها أكبر عقبة تحول دون بيت المقدس، فعمد إلى الاهتمام بتلك المنطقة بشكل خاص في تلك المرحلة بالتحديد، وأرسل أكبر سرية في تاريخ المسلمين خارج شبه الجزيرة باتجاه مؤتة. وقد كانت مؤتة بوابة المسلمين لمعرفة مناطق البيزنطيين وإدراك حجم قوتهم، ولهذا نظر النبـــي ﷺ إلى هذه المعركة على أنها مجرد بداية لحملة كبيرة للمسلمين، وأنهم سيكرّون بعدها في سرايا وحملات كثيرة أخرى.

وقد تخلل هذه الأحداث فتح مكة وما حولها، إذ قطف المسلمون ثمار صبرهم وجهادهم في هذه المرحلة الأخيرة من الصراع على مكة، وتكللت هذه الجهود بالفتح العظيم لمكة المكرمة. وهكذا تحوّلت معظم السرايا بعد الفتح نحو الطريق الواصل إلى بيت المقدس وللتعامل مع النتائج التي تمخضت عنها معركة مؤتة. وقد أرسل النبـــي ﷺ جيوشًا عديدةً نحو هذا الطريق للوقوف أمام تلك القبائل التي تحالفت مع البيزنطيين في مؤتة.

وقد كانت غزوة تبوك الحملة الكبرى حجمًا وأهمية نحو بيت المقدس، ولعل هذه الغزوة تكون أهم خطوة عسكرية للنبـــي ﷺ في هذا الاتجاه، ليس لأنها الأكبر والأبعد وحسب، بل لأنها كانت فرضًا حظر على المسلمين التخلف عنه. وتكشف هذه الغزوة عن غاية النبـــي ﷺ في هذا السياق، والمتمثل بفتح بيت المقدس على وجه التحديد، وليس مجرد فتح منطقة الشام بشكل عام كما يرى

بيضون (1997: 83-84). ولقد تجلّت في الحديث الذي روي عن النبـــي ﷺ في تبوك عن الزمان الذي سيتحقق فيه فتح بيت المقدس تلك العلاقةُ القائمة بين إستراتيجية النبـــي ﷺ كقائد وبين عنصر الوحي الذي يوجّه خططه وأفعاله. وكانت المعاهدات التي أبرمها النبـــي ﷺ خلال غزوة تبوك متعلقة بأهداف الغزوة، والتي كانت بمثابة تمهيد لحملات أخرى ستعقبها لتحقيق مراده ﷺ بفتح بيت المقدس.

وقد انتهى بنا المطاف بين غزوات النبـــي ﷺ وسراياه إلى التحرك العسكري الأخير له ﷺ والمتمثل ببعث أسامة بن زيد رضي الله عنه. وقد كان الهدف من هذا البعث التحقق للمرة الأخيرة من حالة الطريق الواصل إلى بيت المقدس والتأكد من تأمينه أمام جيوش المسلمين قبل تطبيق الخطة الفعلية للفتح. فقد كان لزامًا بعد وفاة النبـــي ﷺ حماية المعاهدات والاتفاقيات التي أبرمها في تبوك وضمان هيبة دولة المسلمين أمام دولة البيزنطيين العظمى. وقد رأينا كيف أنّ بعث أسامة لم يكن يهدف إلى التوجه نحو بيت المقدس، وإنما كان المراد منه تأمين خطة الفتح وتعزيزها، ولهذا لم يتوجه البعث نحو يبنى، وإنما إلى أبنى، وهي نقطة قرب مؤتة والمزار في حدود دولة الأردن المعروفة الآن.

ويمكن القول إن التحرك العسكري للنبـــي ﷺ باتجاه بيت المقدس قد اتخذ شكلين اثنين: عمليات عسكرية صغرى وعمليات عسكرية كبرى، وقد كان الهدف من الأولى استطلاع الطرق وتدريب قادة الجيوش الإسلامية، ويدخل في هذا الشكل جميع السرايا التي شارك بها عدد محدود من الصحابة. أما العمليات العسكرية الكبرى فقد عنيت بالتخلص من العقبات الكبرى أمام جيوش المسلمين باتجاه بيت المقدس والتحضير فعليًا للحملات العسكرية التالية للفتح، ويمكن أن ننظر إلى غزوة خيبر ومعركة مؤتة وغزوة تبوك وبعث أسامة على أنها عمليات عسكرية كبرى، كما تعدّ هذه الوقائع الأربعة الكبرى أهم خطوات عسكرية ارتبطت مباشرة ببيت المقدس، ولا ريب أن نتائجها قد انعكست بشكل مباشر على التحضير للفتح الفعلي لبيت المقدس.

لقد كان النبـــي ﷺ حاملاً لرؤية واضحة بخصوص الأحداث التي ستعقب وفاته، ولذا كان حريصًا على تجهيز المسلمين للخروج في حملات عسكرية قريبة.

ولا بدّ عند النظر إلى هذا الجانب أن ندرك أنّ خطةَ النبـــي ﷺ كانت مؤيدةً بالوحي. فلقد كان من الضروري أن يضع النبـــي ﷺ تلك الخطة، لأن المسلمين سيقفون في وجه أعظم قوة في ذلك الزمان، وهي الإمبراطورية البيزنطية، ولا شكّ أن هذا الأمر يتطلب استعدادات كبيرة ويستلزم خطوات دقيقة. وهذا يدل على العلاقة المهمة والمميزة بين التحركات العسكرية للنبـــي ﷺ وبين بيت المقدس.

الخاتمة

يتمثل الهدف الأساسي من هذا الكتاب في عرض وبيان النظرية القائلة بأن النبـــي ﷺ قد وضعَ خطة واضحة المعالم لفتح بيت المقدس الذي تحقق بعد وفاته ﷺ بخمس سنوات. إنّ مجمل القضية المتعلقة بالخطوات التي أقدم عليها النبـــي ﷺ نحو منطقة الشام، وطبيعة علاقته بها، كانت محط نقاش وخلاف طويلين بين العلماء والباحثين. فبينما يرى بعض الباحثين كعثامنة (2000: 96) وشرّاب (1994: 74)، وبيضون (1997: 8) وجيل (1997: 21) وأبو الرب (2002: 96)، وكوهين (1990: 8)، والعويسي (2006: 50)، والأشقر (2006: 23)، أن النبيّ قد خطا مثل هذه الخطوات بالفعل وأنّ علاقةً فريدةً قد كانت قائمة بين النبـــي ﷺ وبيت المقدس، فإنّ آخرين من أمثال لازاروس يافيه (1990: 42) وجويتين (1986: (5) 323) وليفني كَفري (2005: 216) يرون خلاف ذلك ويذهبون إلى أن هذه المنطقة لم تكن ذات أهمية في الإسلام خلال حياة النبـــي ﷺ.

وفي الواقع يمكن بسهولةٍ التوصل خلال الدراسة إلى قناعة بأنّ بيت المقدس قد احتل مكانةً عظيمة من دون شكٍّ في حياة النبـــي ﷺ، وذلك ما فصّلناه وبيّناه في فصول هذا الكتاب. فالمؤلف هنا يتفق مع الباحثين والعلماء من المجموعة الأولى، بيدّ أنّه في الوقت نفسه يضيف بعدًا آخر إلى هذه النظرية يتمثل في العديد من الأحداث والوقائع التي حدثت قبل فترة طويلة من تبلور الخطة الإستراتيجية للنبـــي ﷺ بخصوص بيت المقدس، وذلك من أجل تحضيره ولفت انتباهه والمسلمين إلى مركزية هذه المنطقة وأهميتها.

وسيتم فيما يلي تلخيص المخرجات الأساسية التي تمخّضت عنها هذا الدراسة، حيث سيتم الربط بين الآراء المختلفة في هذا السياق بالنظر إلى الإطار

الأوسع لهذه الخطة النبوية. فمن خلال إعادة النظر في السيرة النبوية سيتبدّى لنا علاقةٌ مميزة بين النبـــي ﷺ وبيت المقدس. وقد قام المؤلف بتحليل هذه العلاقة من عدد من الجوانب وفي سياق كثيرٍ من الأحداث التي مهّدت الطريق لفتح بيت المقدس.

وفي هذا المعرض يمكن القول إنه بالرغم من أنّ هذه الخطة كانت بتوجيهٌ إلهيّ إلا أنّها تنسب للنبـــي ﷺ بالنّظر إلى أنه قدّمها للمسلمين ودعاهم إليها. فقد كانت عموم أفعال النبـــي ﷺ موجّهة ومرتبطة بالوحي، إلا في ظروف محددة أشار النبـــي ﷺ إلى أنها ليست أمرًا من الله تعالى، ومن ذلك ما حدث في غزوة بدر (انظر ابن هشام (2005 (2) 143)[1]. والقرآن ينصّ صراحة على أنّ النبـــي ﷺ مؤيّد بوحيٍ من السماء، فقد قال الله تعالى في كتابه العزيز: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى﴾ (النجم: 3). وينطبق هذا على أحاديث النبـــي ﷺ، فهي وإن كانت صادرة عنه ﷺ إلا أنها تعدّ مصدرًا أساسيًا للوحي بنصّ القرآن الكريم كذلك.

ويبسط كتابنا هذا القولَ في العديد من الأحداث، ويتناول بشيء من التفصيل تلك التحركات التي قام بها النبـــي ﷺ في مكة المكرمة والمدينة المنوّرة، والتي كانت لها علاقة مباشرة أو غير مباشرة ببيت المقدس. ويمكن لنا أن نوزع سلسلة هذه الأحداث والتحركات التي تشكل بمجموعها خطة النبـــي ﷺ في مرحلتين أساسيتين:

1. مرحلة التحضير: حيث رسخت المكانة العظيمة والأهمية الكبيرة لبيت المقدس من خلال الإشارة إليه وإلى أهمّيته في القرآن الكريم تصريحًا أو تلميحًا، كما تأكّد ذلك في أمر الله تعالى لنبيه والمسلمين بالتوجه بالصلاة إليه. كما كانت رحلة الإسراء والمعراج قد وقعت في نقطة مفصلية في هذا السياق، إذ مثلت التواصل الفعلي الأول بين النبـــي محمد ﷺ وبيت المقدس حيث مثلت هذه البقعة المكانَ الذي تجلّت فيه الرؤية الكونية للنبـــي محمد ﷺ وزعامته لجميع الأنبياء من قبله. ولا شكّ أن هذه المرحلة قد لفتت انتباه النبـــي ﷺ لأهمية فتح بيت المقدس

1 ولا نودّ أن نعرض تفاصيل هذه القصة هنا لأنها ليست في مجال بحثنا.

وإدخاله ضمن بيضة المسلمين كجزء من إستراتيجيته لنشر الدعوة في أصقاع الأرض جميعًا.

2. الخطوات العملية: حيث أقدم النبـــي ﷺ على اتخاذ هذه الخطوات العملية بتأييد من الوحي، وقد أخذت هذه الخطوات شكل إبرام العديد من المعاهدات والكتب وإرسال السرايا والخروج في الغزوات باتجاه طريق بيت المقدس وتمهيد الطريق الواصل إلى بيت المقدس استعدادًا لفتحه.

مرحلة التحضير

بدأت مرحلة التحضير لفتح بيت المقدس مع بداية نبوة رسول الله ﷺ، وكان ذلك باستقبال المسلمين لبيت المقدس في صلاقم. وقد كان لهذا الأمر أثر عظيم في ترسيخ أهمية بيت المقدس في الإسلام وفي وجدان النبـــي ﷺ والمسلمين بشكل خاص. فقد صلى النبـــي ﷺ في حياته نحو بيت المقدس مدةً أطول من صلاته نحو الكعبة المشرفة مع أنّ معظم المفسرين والمؤرخين لم يولوا لهذا الأمر أهمّية عند ذكره. فقد كانت الصلاة نحو بيت المقدس بحقّ أحد الأمور التي أقامت الرابط الروحي للمسلمين مع تلك المنطقة، وكان هذا الرابط عزيزًا ومهمًا للمسلمين في مكة نظرًا لبعد المسافة التي تفصلهم عن بيت المقدس. وقد استمرت الصلاة تجاه القبلة الأولى أكثر من أربع عشرة سنة، وشكّل هذا جانبًا جوهريًا من ارتباط النبـــي ﷺ والمسلمين بتلك البقعة المقدسة.

ولم يكتف المسلمون بهذا الرابط الروحي مع بيت المقدس بوصفه مكانًا مقدسًا وإنما أرادوا أن يشكلوا علاقة فعلية مع تلك المنطقة. ولذلك كان المسلمون مهتمين بما يحدث في ذلك المكان البعيد عنهم، فهذه هي الخطوة الأولى قبل التحرك فعليًا إليها. ويؤدي القرآن الكريم في هذا الصدد دورًا مهمًا، فنراه يعزز هذا الرابط بين المسلمين وبيت المقدس في وقت مبكر جدًا من البعثة النبوية، فيرد ذكر هذه الأرض في غير موضع من القرآن لافتًا الأنظار إلى مكانتها وأهميتها كمكان للبركة. ولا يكتفي القرآن الكريم بذلك، بل يخبر المسلمين بما يجري في بيت المقدس كما ورد في سورة الروم، والتي وردت فيها أول إشارة تربط المسلمين فعلاً ببيت

المقدس، بالإضافة إلى اشتمال هذه السورة على إشارات عديدة غير مباشرة تدل على أهمية بيت المقدس وتخبر عن مستقبله.

ويظهر أن علاقة خاصّة قد تشكلت منذ تلك الفترة بين النبـــي ﷺ وبيت المقدس، مع أنّ هذه العلاقة لم تبلغ ذروتها حتى رحلة الإسراء والمعراج. فقد كانت هذه المعجزة نقطة تحول أساسية ودافعًا عمليا للنبـــي ﷺ للتفكير بفتح بيت المقدس ووضع ذلك في خطةٍ واضحة. وأمدّت رحلة الإسراء والمعراج رسولَ الله ﷺ بالأمل وسلّت عنه، إذ أتت والنبـــي ﷺ يمر في ظروف عصيبة وفترة حرجة، فكانت لفتةً ربانية خاصّة أمدّته بما يحتاج من عزمٍ ويقين لتحقيق مراد الله تعالى في الأرض، وهو نشر الهداية للعالمين. وتعدّ رحلة الإسراء والمعراج معلمًا مهمًا ليست في حياة النبـــي ﷺ وحسب، وإنما في تاريخ بيت المقدس كذلك، إذ كشفت هذه الرحلة للنبـــي ﷺ رمزية هذه المنطقة ومكانتها، ومما دلّ على ذلك بشكل مباشر هو إمامة النبـــي ﷺ لجميع الأنبياء في الصلاة في المسجد الأقصى، والذي يحتل مكان القلب من بيت المقدس. ولعلّ هذا الحدث من أهم ما شهده النبـــي ﷺ في تلك الرحلة، إذ كانت صلاته بالنبيين إشارة إلى أنّه سيتقلّد زعامة الكون من بعدهم.

وهكذا رسخت مكانة بيت المقدس ومنحت هذه الأرض ألقها الذي لن يخفت بفضل رحلة الإسراء والمعراج، وهذا ما يؤكده النتشة (2006: 66) فيقول: "حتى إذا حاول أحدهم أن يلوي عنق الحقيقة، فيدعي أن تحويل القبلة عن بيت المقدس تهوين من مقامها، قامت رحلة الإسراء وآية الإسراء بالمنافحة عن هذه المكانة"، ولذا كانت رحلة الإسراء والمعراج عنصرًا أساسيًا في رفع مكانة بيت المقدس وترسيخها في وجدان المسلمين. وقد تجلّى ذلك في القرآن الكريم في أنّ السورة التي يرد فيها ذكر رحلة الإسراء، والتي تحمل الاسم نفسه، قد جاءت في منتصف القرآن تقريبًا، فهي تشترك مع رحلة الإسراء في ترتيبها في سيرة النبـــي ﷺ، إذ جاءت قبيل نقطة المنتصف من بعثته ﷺ.

لقد أسري بالنبـــي ﷺ من مكة المكرمة ووصل إلى بيت المقدس حيث صلى بالأنبياء جميعًا صلاةً كانت دلالةً على أنّ النبيّ وارثٌ لإرث النبيين، فكانت رحلة الإسراء على الأغلب العنصر الأساسي لتحفيز النبـــي ﷺ على وضع خطة من

مرحلتين بعد هجرته إلى المدينة: الأولى هي تأمين مكّة وضمّها إلى سيطرة المسلمين، فهي المكان الذي يمثل منارة هداية للكون ومركزَ الدعوة الأول، ثم توجّه بعد مكة لتأمين بيت المقدس، وهو المكان الذي يمثل نقطة التوسع والانتشار لرسالة الإسلام.

وقد تأكّد هذا الترتيب للأولويات في القرآن الكريم بعد هجرة النبي ﷺ إلى المدينة المنورة. فقد أوحى الله تعالى إلى نبيّه ﷺ والمسلمين أن يولوا وجوههم قبل المسجد الحرام في مكة، وكانت هذه نقطة بدايةٍ لفتح مكة، وكشف هذا الأمر بأهميته وأثرِه عن الطبيعة الكونية لرسالة النبي ﷺ، إذ لو كان ﷺ قد حصر اهتمامه ببناء مجتمع له في المدينة لفعل ذلك ولما اكترث للإعداد لفتح مكة. ولكنّ مكةَ المكرمة تمثّل رمزًا كونيًا للهداية ولا بدّ من أن تكون تابعة للمسلمين. وهكذا كان تحويل القبلة إليها أمرًا أساسيًا للنبي ﷺ من قبل أن يتوجه باهتمامه إلى بيت المقدس.

ولا يمكن أن يكون أمر تغيير القبلة مجردَ تغييرٍ وجدانيّ كما يقول واتسون (1912: 132)، بل كان هذا التغيير خطوة لا غنى عنها لتحقيق فتح مكة ومن بعده فتح بيت المقدس. لقد ساعد فتح مكةَ في تحقيق الرسالة العظمى للإسلام والمتمثلة في الهداية، وكان لا بدّ لهذه الهداية أن تعمّ الكون بأسره من خلال بيت المقدس. ولكنّ تحول القبلة ليس القضية الكبرى في هذا السياق، بل إن الأصل أن ننظر في السبب وراء جعل بيت المقدس قبلةً أولى للمسلمين في الصلاة قبل المسجد الحرام، كما يجب أن ندرك أن لا مغزى ولا فائدةَ من فتح بيت المقدس قبل مكة المكرمة.

الخطوات العملية

لقد تم التحضير لفتح بيت المقدس بعدد من الخطوات في المسار السلمي والمسار العسكري على السواء، ولاسيما فتح مكة. فمنذ هجرة النبي ﷺ إلى المدينة المنورة، وذلك بعد فترة ليست طويلةً من رحلة الإسراء والمعراج، كان للنبي ﷺ هدفٌ أساسي تمثل في فتح مكة أو التخلص على الأقل من تهديد قريش وعدائها للمسلمين ودولتهم. وقد بدأ النبي ﷺ بالاهتمام بتحقيق هذه

الغاية منذ العام الأول لهجرته. وبمجرد أن تجاوز النبـــي ﷺ هذه المرحلة ودخلَ مكة المكرمة فاتحًا لها، توجه اهتمامه إلى فتح بيت المقدس، وبدأ التخطيط والتحرك نحو هذه الغاية.

وكما أشرنا في ثنايا هذا الكتاب، لم يشهدِ الطريق الواصل إلى بيت المقدس أي تحركات عسكرية قبل العام الخامس للهجرة، أي قبل غزوة الخندق. ثم توجّهت معظم الحملات العسكرية للمسلمين بعد هذا العام شمال غربيّ المدينة، أي باتجاه بيت المقدس. وهذا ما دعانا إلى أن نعدّ غزوة الخندق نقطةَ تحول في إستراتيجية النبـــي ﷺ العسكرية، وهذا ما قرره النبـــي ﷺ نفسه حين أعلن أنّ حربه مع قادة مكة من قريش ستأخذ منحى مختلفًا بعد الخندق.

لقد كان العام السادس للهجرة نقطة المنتصف في نبوة النبـــي ﷺ في المدينة ما بين هجرته ووفاته، وهو العام الذي شهد نقطة التحول في هذا السياق، وهذا أمر مثير للاهتمام، إذ يتزامن هذا مع رحلة الإسراء والمعراج، والتي تعدّ نقطة تحول حقيقية في حياة النبـــي ﷺ حين وصلَ إلى منتصف فترة نبوّته. وقد تحول اهتمام النبـــي ﷺ بعد هذه الرحلة بشكل كبير نحو فتح بيت المقدس بكونها بوابةً لنشر دعوة الإسلام في العالم بأسره. وكذا العام السادس من الهجرة، وهو نقطة المنتصف في حياة النبـــي ﷺ في المدينة، إذ بدأت فيه التحركات العسكرية الفعلية باتجاه بيت المقدس، حيث كانت الغاية متمثلة في تحقيق ما مثلته رحلة الإسراء والمعراج من تطلعاتٍ للنبـــي ﷺ بخصوص هذه المنطقة.

لقد كانت غالبية الحملات العسكرية التي أطلقها النبـــي ﷺ في حياته موجّهة في الاتجاه الذي تقع عليه أرض بيت المقدس، فلا عجبَ في كون هذه المنطقة ذات أولوية لديه ﷺ، ولعل هذا راجع إلى نظرته ﷺ بخصوص تلك المنقطة بأسرها. إذ تعززت هذه النظرة في المرحلة المكية، من خلال اتخاذ بيت المقدس قبلة للمسلمين، بالإضافة إلى ذكره في القرآن الكريم، وتجلّت في أكمل صورها في رحلة الإسراء والمعراج. وهذا يدلنا على أنّ النبـــي ﷺ كان ينظر إلى تأمين مكةَ كخطوة أولى وحسب لضمان الانتشار لرسالة الإسلام العالمية، ولكي تتحقق هذه الصبغة العالمية لدعوة الإسلام، فلا بدّ من بسط السيطرة على البقاع الثلاثة المقدسة في الإسلام، وهي مكة المكرمة والمدينة المنورة وبيت المقدس.

بدأت باكورة الحملات العسكرية باتجاه الطريق الواصل إلى بيت المقدس مع سرية حِسمى، بيدَ أنّه لا بدّ من الإشارة إلى أنه لا يمكن النظر إلى جميع السرايا على أنها حملات عسكرية واسعة. فقد كان بعضها مجرد سرايا استطلاعية باتجاه ذلك الطريق أو متوجّهة إلى بعض القبائل المحيطة. ولكنّ السرية الأولى التي انطلقت نحو ذلك الطريق كانت تحركا مهمًا بسبب المسافة البعيدة التي تفصل بين عاصمة النبوة في المدينة وبيت المقدس. ويبدو التوجيه الإلهي لهذه الخطة واضحًا، حيث تجلّى في صلح الحديبية الذي تمّ في نهاية السنة السادسة للهجرة بوحيٍ من السماء في المقام الأول. ونجمَ عن هذا الصلح إنهاء خطر قريش المتمركز في مكة، وهذا ما أتاح المجال للنبـــي ﷺ للتحضير على نطاق واسع للحملة القادمة الرامية لفتح بيت المقدس.

وقد بدأ النبـــي ﷺ، بمجرد أن كسرت شوكة قريشٍ في مكةَ وكفّوا أذاهم عنه ودولتِه بعد صلح الحديبية، بالإعداد لحملات عسكرية واسعة النطاق. فقد كان النبـــي ﷺ حريصًا على إضعاف أحد أهم العوائق على ذلك الطريق، وتحديداً اليهود والقبائل العربية القاطنة هناك. وهذا ما دفعه للتحرك على رأس جيش كبير نحو خيبر، حيث قام بالتخلص من الخطر المتمثل بالمدن والمناطق اليهودية التي تشمل خيبر وغيرها مثل فدك ووادي القرى. ولكنّ النبيّ ﷺ لم يتخلص من هذا الخطر بالقوة، بل قدّم مثالاً تاريخيًا لتطبيقِ مفهوم التدافع المذكور في القرآن الكريم، فبدل أن يتخلص منهم تمامًا حول موقفهم تجاهه إلى الحياد. ولعل هذا يرتبط برغبة النبـــي ﷺ في الاستفادة من علاقتهم التاريخية السلبية مع البيزنطيين في بيت المقدس ليكسبهم إلى صفّه في حال رفض البيزنطيون فتحَ بيت المقدس أمام المسلمين طواعيةً. وقد تمكّن النبـــي ﷺ بفضل هذه الإستراتيجية من تأمين الطريق نحو بيت المقدس بالإضافة إلى تقليل عدد أعدائه.

وفي أثناء هذه العملية الهادفة لتحييد خطر القوتين الأساسيتين الموجودتين على الطريق إلى بيت المقدس قام النبـــي ﷺ بأول خطوة من خطواته الدبلوماسية المرتبطة بالفتح داخل منطقة بيت المقدس. وقد جاءت هذه الخطوة على شكل رسالةٍ أرسلها ﷺ إلى الإمبراطور البيزنطي هرقل، في خطوة دبلوماسية هي الأهم في سياق فتح بيت المقدس. وتكشف هذه الرسالة عن دافعين أساسيين لدى

النبـــي ﷺ وهما: التخطيط لفتح بيت المقدس بشكل فعلي، ومحاولة الحدّ من الخسائر البشرية والمادية. وكانت هذه الرسالة بحق خطوة دبلوماسية مهمة قبل بدء التحرك العسكري الفعلي على تخوم بيت المقدس.

وقد بدأت هذه التحركات بإرسال عدد من السرايا إلى الطريق الواصل إلى بيت المقدس، وكان الهدف الأساسي منها معرفة الوضع الأمني في المناطق البعيدة عن المدينة المنورة، حيث دخل اليهود في عهد مع المسلمين. فأرسل النبـــي ﷺ سرية إلى مشارف الدولة البيزنطية، وكانت هذه السرية التي سمّيت "سرية ذات أطلاح" دليلاً على حرص النبـــي ﷺ على إظهار سلميّة دعوته ومقاصده. لكنّ هذه السرية انتهت بفاجعةٍ على المسلمين، إذ استشهد من كان فيها على يد القبائل العربية المحالفة للبيزنطيين، فلم يجد النبـــي ﷺ أمامه سوى أن يتحرك عسكريًا وعلى نطاق واسع ضد البيزنطيين وحلفائهم من العرب.

وعليه تم تشكيل جيش ضخم للتوجّه إلى مؤتة، غير أنّه ورغم ضخامته لم يكن حملة عسكرية كاملة وإنما كان سريّة استطلاعية على حدود بيت المقدس، ولهذا لم يكلّف النبـــي ﷺ هذا الجيش بمهمة محددة، بل أراد لجيش مؤتة أن يستكشف تلك المنطقة وأن يكون بمثابة طليعةٍ ورسالةِ تحذير للبيزنطيين وقبائل العرب حولهم. وهذا ما أعلنه النبـــي ﷺ بوضوح حين أشار إلى ما سيعقب معركة مؤتة من الرجوع مجددًا واستئناف القتال من جانب المسلمين.

إلا أن البيزنطيين وحلفائهم من قبائل العرب لم يدركوا الرسالة التي يمثلها جيش مؤتة، وهذا ما جعل النبـــي ﷺ يدرك تمامًا حجم الخطر المتمثل بتلك القبائل العربية الموالية للدولة البيزنطية، وضرورة كسر شوكتهم والتخلص من خطرهم. فعمدَ النبـــي ﷺ إلى إرسال عدد من السرايا إلى المناطق التي تقطنها تلك القبائل ليتأكدَ من إضعاف قوتهم وصدّ شرّهم. غير أنّه لم يكن من الحكمة في تلك الفترة أن يشنّ حملة عسكرية واسعة عليهم، وذلك لأنّ مكةَ ما تزال خارج سيطرة المسلمين ولا ضمانة بعدُ تمنع من هجومهم على المسلمين. لكنّ الحال تغيرت حين نجح النبـــي ﷺ في فتح مكة دون قتال فدخلت والمناطقُ التي حولها في سيطرته، ولاسيما حنين والطائف، وهكذا تمّت للنبـــي ﷺ السيطرة على شبه الجزيرة العربية، ومُهّدت الطريق لخطوة عسكرية كبيرة ومهمة، وهي غزوة تبوك.

لقد كانت غزوة تبوك الخطوة العسكرية الكبرى حجمًا وأهمية باتجاه فتح بيت المقدس، فقد أعلن النبـــي ﷺ عن وجوب مشاركة المسلمين جميعًا من غير ذوي الأعذار في هذه الغزوة منبّها إيّاهم على أهمية بيت المقدس ومكانته في المستقبل. كما ظهر بوضوح تأييد الوحي للنبـــي ﷺ في هذه الغزوة حين لفت انتباه المسلمين للهدف الأساسي للغزوة حين بشّر للمرة الأولى صراحة بفتح بيت المقدس وأخبر عن الزمن الذي سيتحقق فيه هذا الفتح. ويعدّ ذلك الحديث الشريف الذي جاء فيه ذكر فتح بين المقدس من أهمّ ما حدث أثناء غزوة تبوك، إذ كشف عن طبيعة هذه الحملة وأهدافها، وأنهى الخلاف بين العديد من المؤرخين بخصوص أسباب غزوة تبوك وأهدافها، وسواها من الغزوات والسرايا على الطريق الواصل إلى بيت المقدس.

ويظهر هذا الحديث الذي أخبر به النبـــي ﷺ وهو في غزوة تبوك أن النبـــي ﷺ قد كان على علم بالموعد المنتظر لفتح بيت المقدس عن طريق الوحي. إلا أنّ هذا لا يعني بحال أن هذه الغزوة لم تكن في ذاتها جانبًا أساسيًا من التحضيرات لهذا الفتح المنتظر. بل لقد كشفت هذه الغزوة في واقع الأمر عن العديد من التحضيرات التي أجراها النبـــي ﷺ للتمهيد لحملة عسكرية كبيرة في المستقبل. ولهذا تواصل ﷺ مع العديد من الأطراف المهمة والمحطات الأساسية على طريق بيت المقدس حين كان في تبوك.

لقد أبرم النبـــي ﷺ معاهدات مع أهل أيلة ومقنا وأذرح، وهذا من أبرز ما تمخّض عن غزوة تبوك. وقد خضنا في تفاصيل هذه الوثائق وحللناها بعمق في الفصل الثاني من هذا الكتاب، ورأينا كيف كانت معالم أساسية في خطة النبـــي ﷺ لفتح بيت المقدس. فقد نجح النبـــي ﷺ من خلالها في أن يضمن تزوّد الحملات العسكرية القادمة نحو بيت المقدس بالعتاد والطعام والماء. كما نتج عن تلك المعاهدات تأمين الطرق الأساسية نحو الشام من شبه الجزيرة العربية. ويجدر التنبيه هنا إلى أنّه لا يمكن أن نفترض أن النبـــي ﷺ كان يهدف لفتح منطقة الشام بأكملها، إذ يظهر خلاف هذا جلياً في كتاب النبـــي ﷺ إلى أهل أيلة والذي يبيّن أنّ غاية النبيّ كانت موجّهة خصوصًا إلى المناطق الجنوبية من بيت المقدس، و لم يولِ اهتمامًا لبادية الشام، كما يَظْهرُ هذا كذلك في الأحاديث النبوية التي ذكرت بيت المقدس وفتح بيت المقدس في تلك الفترة.

تمكن النبـــي ﷺ بفضل هذه المعاهدات الثلاثة من إقامة ثلاث محطات أساسية تستفيد منها الحملات العسكرية المقبلة للمنطقة، فكانت هنالك محطة للتزود بالسلاح، ومحطة أخرى للطعام والشراب، ومحطة ثالثة إستراتيجية في حالة حدوث تراجع طارئ لجيش المسلمين. فكانت مقنا هي محطة التزود بالعتاد، وتقع قرب الطريق الساحلي الواصل إلى بيت المقدس، وليس على الطريق نفسه. ولعل اختيار هذا الموقع يعود إلى أنه يصلح ليكون محطة احتياطية للانسحاب الإستراتيجي للمسلمين. أما أيلة فقد كانت محطةً للتزود بالطعام والشراب، ومنها تم تأمين الطريق الساحلي الأساسي الواصل إلى صحراء النقب في منطقة بيت المقدس. أما تأمين محطة إستراتيجية أخرى لحالات الانسحاب الطارئ لجيش المسلمين (وتمثلت في أذرح) فقد كان أمرًا ضروريًا لجيوش المسلمين التي ستمر من هناك متوجهة إلى المناطق الجنوبية الشرقية.

ومن اللافت للنظر إن مقنا وأذرح كانتا مأهولتين باليهود بشكل أساسي، أما أيلة فكانت مدينة مسيحية، وفي هذا دليل على أنّ النبيّ ﷺ قد تعامل بشكل منفتح بخصوص بيت المقدس مع أصحاب الأديان الأخرى، حيث حاول البناء على العناصر الدينية والتاريخية المشتركة بين هذه الأديان، خاصة عند التعامل مع اليهود، حيث كان لهم تاريخ من الصراع مع الدولة البيزنطية المسيحية.

ويجدر التذكير هنا بأنّنا تناولنا هذه المعاهدات على أنها معاهدات أمان لا معاهدات صلح بين قوى متعادلة، وهذا جانب مهمٌّ يظهر المقاصد السلمية للنبـــي ﷺ تجاه سكان تلك المنطقة ورغبته في نشر سيطرته سلمياً فيها. بيد أنّ النبـــي ﷺ كان في الوقت ذاته متحمّسًا أيّما حماسة لترجمة زعامته الروحية على بيت المقدس والتي بلغت أوجها في رحلة الإسراء، إلى وجود فعلي للمسلمين داخل بيت المقدس وما حوله من مناطق. وقد تمثل هذا في عدد من الإقطاعات التي وهبها النبـــي ﷺ لعدد من الناس لأراض حول بيت المقدس وفي مناطق أخرى مؤدية إليه، كالإقطاع الذي منحه النبـــي ﷺ لبني جفال، وآخرَ في بلاد الشام قدّمه لأبـــي ثعلبة رضي الله عنه. أما الإقطاع الأهم والذي تظهر فيه رغبة النبـــي ﷺ في تأكيد وجوده في بيت المقدس فكان وقفَ تميم الداريّ رضي الله عنه، حيث منحه النبـــي ﷺ هذا الإقطاع بُعيد غزوة تبوك بقليل. وكان هذا الإقطاع في

مكان مركزي داخل بيت المقدس له أهمية روحية كبيرة ترتبط بالنبـــي إبراهيم عليه السلام، مما مكّن النبـــي ﷺ من تعزيز ارتباطه الروحي ببيت المقدس. وقد أتت هذه الهبة في توقيت مهم وكانت واحدة من الخطوات السياسية المهمة الرامية إلى تأكيد سيطرة النبـــي ﷺ وسلطته على بيت المقدس.

ولا يمكن أن نفصل هذه الهبة بحال عن التأييد الإلهي للنبـــي ﷺ في هذه الخطوات العملية من خطة فتح بيت المقدس، إذ كانت بمثابة وعدٍ وبشارةٍ من النبـــي ﷺ ساعد المسلمين في المستقبل للتقدم نحو بيت المقدس بعزم كبير لتحقيق هذا الوعد، والذي أكّده ﷺ في حديثه الذي أخبر به المسلمين في غزوة تبوك بخصوص بيت المقدس. إن هبة تميم الداريّ رضي الله عنه ليست مجرّد وعدٍ من النبيّ ﷺ بتحقق فتح بيت المقدس في المستقبل، بل هي تطبيق عملي لهذا الوعد كي يحثّ المسلمون الخطى لتحقيق هذا الفتح الموعود.

الخطوة الأخيرة

كان بعث أسامة بن زيد رضي الله عنه الأمر العسكري الأخير في حياة النبـــي ﷺ. وقد أشرنا فيما سبق أن بعث أسامة كان من أهم ما حدث في اللحظات الأخيرة من حياته ﷺ، حيث أمرَ بانطلاق هذا البعث نحو مشارف بيت المقدس إلى منطقة تدعى أبنى تقع بين بلدتين تعرفان الآن باسم مؤتة والمزار. ويدل هذا على حرص النبـــي ﷺ على أن يولي المسلمون اهتمامهم ببيت المقدس في المرحلة التالية لوفاته.

كما أن الأوامر المخصوصة التي وجهها النبـــي ﷺ لأسامة بخصوص طبيعة البعث تظهر لنا الأهداف المرجوة منه، وهي ثلاثة أهداف: الأول هو التحقق من الترتيبات الأخيرة لفتح بيت المقدس من خلال التأكد من احترام قبائل العرب القاطنة على الطريق الواصل إلى بيت المقدس للمعاهدات التي أبرمها النبـــي ﷺ معهم. والهدف الثاني هو حماية الترتيبات السابقة من خلال ضمان الاستقرار والهدوء اللازمين على طول ذلك الطريق، ويتضح ذلك فيما قاله الروم في رواية ابن عساكر (1995: (8) 63). أما الهدف الثالث فهو تمهيد الطريق بصورة نهائية لفتح بيت المقدس.

ولا ريبّ أن إصرار النبـــي ﷺ وحرصه على إنفاذ بعث أسامة في تلك الفترة بالتحديد كان خطوة أساسية أخرى أبانت أهمّية هذا البعث وما يعنيه من مركزيّة

في ذلك السياق. ويبدو أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه كان أكثر الصحابة إدراكًا لمقاصد النبيّ من هذا البعث، فقد أشارَ بشكل قاطع لا رجعة عنه حين أمرَ بإنفاذ بعث أسامة مباشرة بعيد وفاة النبــي ﷺ رغمَ المعارضة الكبيرة التي واجهها بسبب هذا القرار، فقال رضي الله عنه (الواقدي 1990: 51):

> لو علمت أن السباع تأكلني في هذه المدينة لأنفذت جيش أسامة بن زيد كما قال النبــي ﷺ: أنفذوا بعث أسامة.

كما أظهر أبو بكر الصديق رضي الله عنه أنّ النبــي ﷺ قد أراد فتح بيت المقدس وخطّط له، فحرصَ رضي الله عنه أيّما حرص على تطبيق إستراتيجية النبــي ﷺ التي بدا أنه يطبقها بحذافيرها كما رأى النبــي ﷺ قبل وفاته. وقد أعلن الصديق رضي الله عنه إنفاذ جيوش فتح بيت المقدس قائلاً: (الواقدي: (د. ت): 5):

> واعلموا أن رسول الله ﷺ كان عوَّل أن يصرف همته إلى الشام فقبضه الله إليه، ألا وإني عازم على أن أوجه أبطال المسلمين إلى الشام بأهليهم وماهم **فإن رسول الله أنبأني بذلك قبل موته**.

وهذا الإعلان يدل بوضوح على أنّ النبــي ﷺ كان معنيًا على الدوام بأمر بيت المقدس حتى لحظة وفاته، وكانت كل خطوةٍ خطاها ﷺ جزءاً من خطة إستراتيجية محكمة لفتح بيت المقدس. وقد تعامل النبــي ﷺ مع المسألة الخاصة بهذه المنطقة في العديد من المواقف في سيرته الشريفة في شتى المراحل، ابتداءً من اتخاذ بيت المقدس قبلة أولى للمسلمين ومرورًا برحلة الإسراء إلى بيت المقدس وذكرِه غيرَ مرة في القرآن الكريم والإشارة إلى مكانته في الإسلام والإخبار عن توقيتِ الفتح، وانتهاءً بتجهيزه ﷺ لبعث أسامة رضي الله عنه. كل هذه الخطوات وغيرها من العناصر تظهر بوضوح أنّ النبيَّ ﷺ كان مؤيّدًا بالوحي في تحركاته جميعها، وهذا أمر لا يمكن تجاهله بأي حال.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

د. عبدالله معروف عمر

المصادر والمراجع

كتب منشورة باللغة العربية:

ابن أبـــي حاتم، عبدالرحمن بن محمد بن إدريس الرازي. (2006). **تفسير ابن أبـــي حاتم الرازي المسمى التفسير بالمأثور**. تحقيق: أحمد فتحي حجازي. بيروت: دار الكتب العلمية. الطبعة الأولى.

ابن الأثير، علي بن محمد الجزري. (1994). **أسد الغابة في معرفة الصحابة**. بيروت: دار الكتب العلمية. الطبعة الأولى.

ابن إسحق، محمد المطلبـــي المدني. (2004). **السيرة النبوية لابن إسحق**. تحقيق: أحمد فريد المزيدي. بيروت: دار الكتب العلمية. الطبعة الأولى.

ابن تيمية، تقي الدين أحمد. (1997). **مجموعة الفتاوى**. تحقيق: عامر الجزار وأنور الباز. بيروت: دار الجيل. الطبعة الأولى.

ابن الجوزي، عبدالرحمن بن علي بن محمد. (1987). **زاد المسير في علم التفسير**. بيروت: المكتب الإسلامي. الطبعة الرابعة.

ابن الجوزي، عبدالرحمن بن علي بن محمد. (1991). **صيد الخاطر**. تحقيق: علي والناجي الطنطاوي. جدة: دار المنارة. الطبعة الخامسة.

ابن الجزري، أبو الخير محمد بن محمد الدمشقي. (د. ت). **النشر في القراءات العشر**. تحقيق: علي محمد الضباع. بيروت: دار الكتب العلمية.

ابن حبان، الإمام محمد التميمي البستي. (2000). **السيرة النبوية**. تحقيق: عبدالسلام بن محمد علوش. بيروت: المكتب الإسلامي.

ابن حنبل، الإمام أحمد. (1995). **المسند**. تحقيق: حمزة أحمد الزين. القاهرة: دار الحديث. الطبعة الأولى.

ابن سعد. محمد الهاشمي البصري. (1997). **الطبقات الكبرى**. تحقيق: محمد عبدالقادر عطا. بيروت: دار الكتب العلمية. الطبعة الثانية.

ابن سيد الناس، محمد بن عبدالله. (1986). **عيوب الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير**. القاهرة: مكتبة القدسي.

ابن طولون، محمد الدمشقي. (1987). **إعلام السائلين عن كتب سيد المرسلين**. تحقيق: عبدالقادر ومحمد الأرناؤوط. بيروت: مؤسسة الرسالة. الطبعة الثانية.

ابن عاشور، محمد الطاهر. (1997). **تفسير التحرير والتنوير**. تونس: دار سحنون.

ابن عساكر، علي بن الحسن ابن هبة الله. (1995). **تاريخ دمشق**. تحقيق: محب الدين عمر بن غرامة العمري. بيروت: دار الفكر.

ابن عطية، عبدالحق بن غالب. (2001). **المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز**. تحقيق: عبدالسلام عبدالشافي محمد. بيروت: دار الكتب العلمية. الطبعة الأولى.

ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل. (1966). **السيرة النبوية**. تحقيق: مصطفى عبدالواحد. بيروت: دار إحياء التراث العربـــي.

ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل. (1994). **تفسير القرآن العظيم**. تحقيق: عبدالقادر الأرناؤوط. دمشق: مكتب دار الفيحاء. الطبعة الأولى.

ابن ماجه، محمد بن يزيد أبو عبدالله. (2000). **سنن ابن ماجه**. Vaduz: Thesaurus Islamicus Foundation.

ابن منظور، محمد بن مكرم. (1999). **لسان العرب**. تحقيق: أمين عبدالوهاب ومحمد العبيدي. بيروت: دار إحياء التراث العربـــي. الطبعة الثالثة.

ابن هشام، عبدالملك. (2005). **السيرة النبوية**. تحقيق: محمد محيي الدين عبدالحميد. القاهرة: دار الطلائع.

أبو خليل، شوقي. (2002). **أطلس التاريخ العربـــي الإسلامي**. دمشق: دار الفكر. الطبعة الخامسة.

أبو خليل، شوقي. (2003). **أطلس السيرة النبوية**. دمشق: دار الفكر. الطبعة الثانية.

أبو داود، سليمان بن الأعشى بن شداد. (2000). **سنن أبـــي داود**، Vaduz: Thesaurus Islamicus Foundation

أبو الرب، هاني. (2002). **تاريخ فلسطين في صدر الإسلام**. عمان: بيت المقدس للنشر والتوزيع. الطبعة الأولى.

أبو عبيد، القاسم بن سلام. (1986). **كتاب الأموال**. تحقيق: محمد خليل هراس. بيروت: دار الكتب العلمية. الطبعة الأولى.

أبو مايلة، بريك بن محمد بن بريك. (2004). **غزوة مؤتة والسرايا والبعوث النبوية الشمالية**. المدينة المنورة: الجامعة الإسلامية. الطبعة الأولى.

أبو يوسف، القاضي يعقوب بن إبراهيم. (د. ت). **كتاب الخراج**. بيروت: دار المعرفة.

الأزدي، محمد بن عبدالله. (1970). **تاريخ فتوح الشام**. تحقيق: عبدالمنعم عبدالله عامر. القاهرة: مؤسسة سجل العرب.

الأشقر، أسامة جمعة. (2006). **فتوح فلسطين**. دمشق: دار مؤسسة فلسطين للثقافة. الطبعة الأولى.

الألباني، محمد ناصر الدين. (1997). **ضعيفة سنن ابن ماجه**. الرياض: مكتبة المعرفة. الطبعة الأولى.

الألباني، محمد ناصر الدين. (2000). **سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيء في الأمة**. الرياض: مكتبة المعارف. الطبعة الأولى.

الألباني، محمد ناصر الدين (2000). **صحيح السيرة النبوية**. عمان: المكتبة الإسلامية.

الألباني، محمد ناصر الدين. (2002). **صحيح سنن الترمذي**. الرياض: مكتبة المعارف، الطبعة الثانية.

الألوسي، أبو الفضل شهاب الدين محمود. (1994). **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني**. تحقيق علي عبدالباري البدوي. بيروت: دار الكتب العلمية. الطبعة الأولى.

البخاري، الإمام محمد بن إسماعيل. (2000). **صحيح البخاري**. Vaduz: Thesaurus Islamicus Foundation

البغوي، أبو محمد بن معاد الفراء. (2002). **معالم التنــــزيل في التفسير والتأويل**. بيروت: دار الفكر. الطبعة الأولى.

البكري، أبو عبيد عبدالله بن عبدالعزيز. (1998). **معجم ما استعجم من أسماء البلدان والمواضع**. بيروت: دار الكتب العلمية. الطبعة الأولى.

البلاذري. أحمد بن يحيى بن جابر. (1992). **البلدان وفتوحها وأخبارها**. تحقيق: سهيل زكار. بيروت: دار الفكر. الطبعة الأولى.

البنا، أحمد عبدالرحمن. (د. ت). **الفتح الرباي لترتيب مسند الإمام أحمد بن حنبل الشيباني**. بيروت: دار إحياء التراث العربـــي.

البيضاوي، ناصر الدين عبدالله بن عمر الشيرازي. (1988). **تفسير البيضاوي**. بيروت: دار الكتب العلمية. الطبعة الأولى.

بيضون، إبراهيم. (1997). **تاريخ بلاد الشام**. بيروت: دار المنتخب العربـــي.

الترمذي، محمد بن عيسى بن سورة. (2000). **سنن الترمذي**. Vaduz: Thesaurus Islamicus Foundation

الجرجاني، علي بن محمد بن علي. (2002). **كتاب التعريفات**. تحقيق: إبراهيم الأبياري. بيروت: دار الكتاب العربـــي.

الحموي. ياقوت بن عبدالله. (1990). **معجم البلدان**. تحقيق: فريد الجندي. بيروت: دار الكتب العلمية.

حميد الله، محمد. (1987). **مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة**. بيروت: دار النفائس. الطبعة السادسة.

الرازي، أبو حاتم محمد بن إدريس. (1952). **كتاب الجرح والتعديل**. حيدرأباد: مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية. الطبعة الأولى.

الرازي، فخر الدين. (1990). **التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب**. بيروت: دار الكتب العلمية.

الزركشي، بدر الدين محمد بن عبدالله. (1998). **البرهان في علوم القرآن**. تحقيق: محمود أبو الفضل إبراهيم. بيروت: المكتبة العصرية.

الزمخشري، جار الله محمد بن عمر. (1995). **تفسير الكشاف عن حقائق غوامض التنـــزيل وعيون الأقوال في وجوه التأويل**. تحقيق: محمود شاهين. بيروت: دار الكتب العلمية. الطبعة الأولى.

السمرقندي، نصر بن محمد بن أحمد. (1997). **تفسير السمرقندي المسمى بحر العلوم**. تحقيق: محمود مطرجي. بيروت: دار الفكر. الطبعة الأولى.

السهارنفوري، خليل أحمد. (د. ت). **بذل المجهود في حل أبـــي داود**. تحقيق: محمد زكريا الكاندهلوي. بيروت: دار الكتب العلمية.

السهيلي، أبو القاسم عبدالرحمن بن عبدالله. (1994). **الروض الأنف في تفسير السيرة النبوية لابن هشام**. تحقيق: مجدي بن منصور بن سيد الشورى. بيروت: دار الكتب العلمية. الطبعة الأولى.

السيوطي، جلال الدين. (د. ت). **الإتقان في علوم القرآن**. بيروت: دار الفكر.

السيوطي، جلال الدين. (د. ت). **لباب النقول في أسباب النـــزول**. تحقيق: حمزة النشرتي وآخرون. القاهرة: المكتب القيمة.

السيوطي، جلال الدين. (2000). **الدر المنثور في التفسير بالمأثور**. بيروت: دار الكتب العلمية. الطبعة الأولى.

شراب، محمد محمد حسن. (1990). **تميم بن أوس الداري راهب أهل عصره وعابد أهل فلسطين**. دمشق: دار القلم. الطبعة الأولى.

شراب، محمد محمد حسن. (1994). **بيت المقدس والمسجد الأقصى: دراسة تاريخية موثقة**. دمشق: دار القلم. الطبعة الأولى.

الشوكاني، محمد بن علي بن محمد. (2000). **فتح القدير**. بيروت: دار ابن حزم. الطبعة الأولى.

صلاح، محمد محمود. (1990). **الفيوض الربانية في الرحلة النورانية معجزة الإسراء والمعراج**. القاهرة: مكتبة مدبولي. الطبعة الأولى.

الطبراني، أبو القاسم سليمان بن أحمد. (1985). **المعجم الكبير**. تحقيق: حمدي عبدالمجيد. القاهرة: دار البيان العربـــي. الطبعة الثانية.

الطبري، محمد بن جرير. (1998). **تاريخ الطبري**. تحقيق: صادق جميل العطار. بيروت: دار الفكر. الطبعة الأولى.

الطبري، محمد بن جرير. (1999). **تفسير الطبري**. بيروت: دار الكتب العلمية. الطبعة الثالثة.

عثامنة، خليل. (2000). **فلسطين في خمسة قرون: من الفتح الإسلامي حتى الغزو الفرنجي (634–1099)**. بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية. الطبعة الأولى.

العسقلاني، أحمد بن علي بن محمد بن حجر. (د. ت). **الإصابة في تمييز الصحابة**. بيروت: دار الفكر.

العسقلاني، أحمد بن حجر. (1997). **فتح الباري شرح صحيح البخاري**. تحقيق: محمود فؤاد عبدالباقي. الرياض: مكتبة دار السلام.

العلي، إبراهيم. (2002). **صحيح السيرة النبوية**. عمان: دار النفائس.

العليمي، مجير الدين الحنبلي. (1999). **الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل**. تحقيق: محمود علي عطاالله. عمان: مكتبة دنديس. الطبعة الأولى.

العمري:، أكرم ضياء. (1994). **السيرة النبوية الصحيحة**. المدينة المنورة: مكتبة العلوم والحكم. الطبعة السادس.

العمري، شهاب الدين أحمد بن فضل الله. (2003). **مسالك الأبصار في ممالك الأمصار**. تحقيق: عبدالله بن يحيى السريحي. أبو ظبـــي: المجمع الثقافي.

عويس، عبدالحليم، وعمارة، محمد. (2002). **مكانة بيت المقدس**. القاهرة: مركز الإعلام العربـــي.

العيني، بدر الدين محمود بن أحمد. (2001). **عمدة القاري شرح صحيح البخاري**. تحقيق: عبدالله محمود عمر. بيروت: دار الكتب العلمية. الطبعة الأولى.

الغيطي، نجم الدين محمد بن أحمد. (1986). **الجواب القويم عن السؤال المتعلق بإقطاع السيد تميم**. تحقيق: حسن عبدالرحمن سلوادي. القدس: مركز الأبحاث الإسلامية. الطبعة الأولى.

الفيروزآبادي، محمد بن يعقوب. (1991). **القاموس المحيط**. بيروت: دار إحياء التراث العربـــي. الطبعة الأولى.

قحف، منذر. (2000). **الوقف الإسلامي**. دمشق: دار الفكر. الطبعة الأولى.

القرطبـــي، محمد بن أحمد الأنصاري. (1998). **الجامع لأحكام القرآن**. تحقيق: صدقي محمد جميل. بيروت: دار الفكر.

القزقي، سعيد بن عبدالرحمن بن موسى. (2003). **بيت المقدس في الحديث النبوي الشريف**. دبـــي: مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث. الطبعة الأولى.
القسطلاني، أحمد بن محمد. (1996). **المواهب اللدنية بالمنح المحمدية**. تحقيق: مأمون بن محيي الدين الجنان. بيروت: دار الكتب العلمية. الطبعة الأولى.
قطب، سيد. (1996). **في ظلال القرآن**. القاهرة: دار الشروق. الطبعة الخامسة والعشرون.
كانو، عبداللطيف جاسم. (1997). **الرسائل النبوية الأولى دعوة إلى الإسلام**. المنامة: بيت القرآن. الطبعة الأولى.
كوهين، أمنون. (1990). **القدس: دراسات في تاريخ المدينة**. القدس: ياد يتسحاق بن تسفي.
لاتسروس يافيه، هافا. (1990). "قدسية القدس في الإسلام"، في **القدس: دراسات في تاريخ المدينة**. تحرير: أمنون كوهين. القدس: ياد يتسحاق بن تسفي.
مالك، الإمام أبو عبدالله بن أنس بن مالك، (2000). **الموطأ**. Vaduz: Thesaurus Islamicus Foundation.
المباركفوري، أبو العلى محمد عبدالرحمن بن عبدالرحيم. (2003). **تحفة الأحوذي شرح جامع الترمذي**. تحقيق: صدقي محمد جميل العطار. بيروت: دار الفكر.
المباركفوري، صفي الرحمن. (1996). **الرحيق المختوم**. الرياض: منشورات دار السلام. الطبعة الأولى.
المراغي، أحمد مصطفى. (1974). **تفسير المراغي**. بيروت: دار الفكر. الطبعة الثالثة..
مسلم، الإمام ابن الحجاج. (2000). **صحيح مسلم**. Vaduz: Thesaurus Islamicus Foundation.
المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي. (د. ت). **إمتاع الأسماع بما للرسول من الأنباء والأموال والحفدة والمتاع**. (مكان الطبع غير معروف): لجنة التأليف والترجمة والنشر.
المنصورفوري، القاضي محمد سليمان سلمان. (1989). **رحمة للعالمين**. تحقيق: مقتدى حسن ياسين الأزهري. بومباي: الدار السلفية. الطبعة الأولى.
النتشة، جواد بحر. (2006). **مكانة بيت المقدس بين نصوص الوحي وحركة الإنسان**. الخليل: مركز دراسات المستقبل الإسلامي. الطبعة الأولى.

النسائي، أبو عبدالرحمن أحمد بن شعيب. (2000). **سنن النسائي**. Vaduz: Thesaurus Islamicus Foundation.

النووي، أبو زكريا يحيى بن شرف. (1996). **صحيح مسلم بشرح النووي**. بيروت: دار الفكر. الطبعة الأولى.

هلال، إبراهيم إبراهيم. (1987). **حديث هرقل وكتاب رسول الله إليه**. القاهرة: دار الصحوة. الطبعة الأولى.

الواحدي، علي بن أحمد النيسابوري. (د. ت). **أسباب النـــزول**. القاهرة: مكتبة المتنبـــي.

الواقدي، محمد بن عمر. (د. ت). **فتوح الشام**. بيروت: دار الجيل.

الواقدي، محمد بن عمر. (1990). **كتاب الردة**. تحقيق: يحيى وهيب الجبوري. بيروت: دار الغرب الإسلامي.

الواقدي، محمد بن عمر. (2004). **كتاب المغازي**. بيروت: دار الكتب العلمية.

اليعقوبـــي، أحمد بن يعقوب بن جعفر. (د. ت). **تاريخ اليعقوبـــي**. بيروت: دار صادر.

الكتب المنشورة باللغة الإنجليزية:

Abu-Munshar, Maher Y. 2007. Islamic Jerusalem and its Christians: A History of Tolerance and Tension. London: Tauris Academic Studies

El-Awaisi, Abd al-Fattah. 2005. Umars’ Assurance of Safety Aman to the People of Aelia (Islamic Jerusalem) A Critical Analytical Study of the Historical Sources. Dundee: Al-Maktoum Institute Academic Press

El-Awaisi, Abd al-Fattah. 2006. Introducing Islamicjerusalem. Dundee: Al-Maktoum Institute Academic Press. 2nd edition

El-Awaisi, Khalid. 2007. Mapping Islamicjerusalem, a Rediscovery of Geographical Boundaries. Dundee: Al-Maktoum Institute Academic Press

Ben-Sasson, Menahem. 2007. ‘Genizah, Cairo’ in Encyclopaedia Judaica. ed. Fred Skolnik and Michael Berenbaum. Detroit: Thomson Gale

Elisséeff, F. Buhl-N. 1986. ‘Adhri‘āt’, in Encyclopaedia of Islam ed. H. A. R. Gibb and others. Leiden: E. J. Brill

Gil, Moshe. 1996. ‘The Political History of Jerusalem’ in The History of Jerusalem: the Early Muslim Period 638-1099. ed. Jushua Prawer and Haggai Ben-Shammai. Jerusalem: Yad Izhak Ben-Zvi

Gil, Moshe. 1997. A History of Palestine, 634-1099. ed. Ethel Broido. Cambridge: Cambridge University Press

Goitein, S. D. 1986. ‘al-Ḳuds: History’, in Encyclopaedia of Islam ed. H. A. R. Gibb and others. Leiden: E. J. Brill

Goldhill, Simon. 2005. The Temple of Jerusalem. London: Profile Books Ltd

Hitti, Philip K. 1951. History of Syria Including Lebanon and Palestine. London: Macmillan Co. Ltd

Jones, Lindsay (ed.). 2005. Encyclopaedia of Religion. Detroit: Thomson Gale

McHenry, Robert (ed). 1993. The New Encyclopaedia Britannica. Chicago: Encyclopaedia Britannica Inc. 15th edition

Al-Tel, Othman Ismael. 2003. The First Islamic Conquest of Aelia (Islamic Jerusalem), a Critical Analytical Study of the Early Islamic Historical Narratives and Sources. Dundee: Al-Maktoum Institute Academic Press

Theophanes the Confessor. 1997. The Chronicle of Theophanes Confessor: Byzantine and Near Eastern History AD 284-813. ed. Cyril Mango and Roger Scott. New York: Oxford University Press Inc.

Watson, C. M. 1912. The Story of Jerusalem. London: J. M. Dent & Sons Ltd.

Watt, W. Montgomery. 1962. Muhammad at Medina. Oxford: Oxford University Press

Whitby, Michael and Mary (ed). 1989. Chronicon Paschale 284-628 AD. Liverpool: Liverpool University Press

Wilkinson, John. 1990. ‘Jerusalem under Rome and Byzantium 63 BC - 637 AD’, in Jerusalem in History ed. K J Asali. New York: Olive Branch Press

بحوث علمية محكمة:

Abd Rahman, Fatimatuzzahra'. 2005. 'Political, Social and Religious Changes in Islamicjerusalem from the First Muslim Conquest to the End of the Umayyad Period (637-750 CE)' in *Journal of Islamicjerusalem Studies*. 6 (1): 109-166

Al-Khatib, Abdallah. 2001. 'Jerusalem in the Qur'ān' in *British Journal of the Middle Eastern Studies*. 28 (1): 25-53

Alrabi, Fadi. 2009. 'Islamicjerusalem: the first Qiblah' in *Journal of Islamicjerusalem Studies*, 10: 1-26

Conybear, Frederick C. 1910. 'Antiochus Strategos' Account of the Sack of Jerusalem in A. D. 614' in *The English Historical Review*. 25 (99): 502-516

El-Cheikh, Nadia Maria. 1999. 'Muḥammad and Heraclius: A Study of Legitimacy' in *Studia Islamica*. 89: 5-21

Faizer, Rizwi S. 1999. 'The Issue of Authenticity regarding the Traditions of al-Wāqidī as Established in His Kitāb al-Maghāzī' in *Journal of Near Eastern Studies*. 58 (2): 97-106

Fitzgerald, William. 1950. 'The Holy Places of Palestine in History and in Politics' in *International Affairs (Royal Institute of International Affairs 1944)*. 26 (1): 1-10

Hirschfeld, Hartwig. 1903. 'The Arabic Portion of the Cairo Genizah at Cambridge' in *The Jewish Quarterly Review*. 15 (2): 167-181

Livne-Kafri, Ofer. 2005. 'On Muslim Jerusalem in the Period of Its Formation' in *Liber Annuus*. 55: 203-216

Mayerson, Philip. 1964. 'The First Muslim Attacks on Southern Palestine (A. D. 633-634)' in *Transactions and Proceedings of the American Philological Association*. 95: 155-199

Nor, M Roslan M. 2006. 'The Land of the Night Journey and Ascension' in *Journal of Islamicjerusalem Studies*, 7: 3-54

Omar, Abdallah Ma'rouf. 2006. 'Towards the Conquest of Islamicjerusalem: The Three Main Practical Steps taken by Prophet Muhammad' in *Journal of Islamicjerusalem Studies*. 7: 55-99

Omar, Abdallah Ma'rouf. 2009. 'Islamicjerusalem and the first Qur'ānic Prophecy: a study of the first verses in Chapter 30 *al-Rūm*' in *Journal of Islamicjerusalem Studies*, 10: 27-59

المواد غير المنشورة:

Jabareen, Ra'id. 2006. *Muslim Juristic Rulings of Islamicjerusalem with special reference to Ibadat in Al-Aqṣā Mosque: A Critical Comparative Study*. (Unpublished PhD Thesis). Dundee: Al-Maktoum Institute for Arabic and Islamic Studies - Aberdeen University

Nor, Mohamad Roslan Mohamad. 2006. *The Significance of Islamicjerusalem in Islam: Qur'ānic and H□adīth Perspectives*. (Unpublished PhD Thesis). Dundee: Al-Maktoum Institute for Arabic and Islamic Studies - Aberdeen University

Omar, Abdallah Ma'rouf. 2005. *(Islamicjerusalem - Bayt al-Maqdis) Reflections of translation*. Paper presented for the 7th International Academic Conference on Islamicjerusalem Studies. Dundee. 6th June 2005

Al-Tel, Othman. (n. d). *The way to Jerusalem*. Unpublished chapter in al-Tel's PhD notes, consulted in the collection of papers in the Centre for Islamicjerusalem Studies - Al-Maktoum Institute for Arabic and Islamicjerusalem Studies - Aberdeen University

Yatiban, Aminurraasyid. 2006. *Muslim understanding of the Concept of al-Siyāda (Sovereignty): an Analytical Study of Islamicjerusalem from the First Muslim Conquest Until the End of the First Abbasid Period (16-264 AH/ 637-877 CE)*. (Unpublished PhD Thesis). Dundee: Al-Maktoum Institute for Arabic and Islamic Studies - Aberdeen University

المخطوطات:

التميمي، عبدالله بن خضر بن المفاخر. **روضة الأبرار في سير النبـــي المختار**. 1128هـــ/1716م

The British Library, London. Ref. IO ISLAMIC 2060

المصادر الإلكترونية:

Compareti, Matteo, 2002, *The Sasanians in Africa*. Transoxiana (4), 13-3-2008, <http: //www. salvador. edu. ar/transox/0104/sasanians.html>

Delgado, José Martínez. (n. d). *Las versiones árabes de La Destrucción de Jerusalén por los Persas 614 d. C* (The Arabic versions of The Destruction of Jerusalem by the Persians 614 CE). Biblioteca Tercer Milenio, 07-01-2008, <http: //www. biblioteca-tercer-milenio. com/sala-de-lectura/Bizancio-Vasiliev/docs/DestrucciondeJerusalen. htm>

'*Republic of Turkey Ministry of Culture and Tourism*', 17-5-2006, <http: //www. kultur. gov. tr/EN>

'*Al-Shabakah al-Islāmiyyah*', 1-10-2006, <http: //www. islamweb. net>

يوسف، أحمد ربيع. (2003). **رسولنا والقدس: وشائج أصيلة**. إسلام أونلاين. بتاريخ 2006/10/12م، <http: //www. islamonline. net/arabic/daawa/2003/09/article14. shtml>

يعدّ الفتح الإسلامي الأول لبيت المقدس في القرن السابع الميلاديّ نقطةَ تحول كبرى في تاريخ العالم في القرون الوسطى، ذلك لأن بيت المقدس كان يرزح تحت حكم واحدة من أقوى إمبراطوريات ذلك الزمان، ألا وهي الإمبراطورية البيزنطية. لذا كان لا بدّ أن يتطلب فتح بهذه العظمة والأهمية تحضيراتٍ كبيرةً وتخطيطًا على أعلى المستويات كي يتم الظفر به وبلوغ الغاية منه. وبينما يعزو معظم الناس، سواء كانوا من المختصين أو العامّة، الفضل في فتح بيت المقدس إلى الخليفة الراشد الثاني عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وينسبه آخرون إلى أبي بكرٍ الصديق، خليفة المسلمين الأول، رضي الله عنه. إلا أنّه قلّما يشارُ إلى دورِ النبي محمد ﷺ وخطتِه لفتح بيت المقدس، مع أنّ تأثيره لا يخفى في الأحداث والوقائع التي أدت إلى فتح تلك البلاد المقدسة. لذا جاء هذا الكتاب ليسلط الضوء على دور النبي محمّد ﷺ في صياغة الفتح الإسلامي الأول لبيت المقدس.

يتناول هذا الكتاب فرضية مفادها أنّ النبي محمدًا ﷺ هو من خططَ بداءةً وأصالةً للفتح الإسلامي لبيت المقدس. ووفق هذه الفرضيّة، فإن أبا بكر الصديق وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما إنّما قاما بتنفيذ خطة النبي ﷺ وتحقيق مراده. وبناءً على هذه الفرضية، فإن جميع الحملات العسكرية الإسلامية التي سبقت فتح تلك المدينة إنما كانت تطبيقًا لهذه الخطة.



ISBN 978-614-01-0665-9
9 786140 106659

توزيع
الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.
www.asp.com.lb - www.aspbooks.com